MA'NA
معنى للنشر والترجمة

دار الكتب العلمية
للطباعة النشر والتوزيع

سماء بغداد القرمزيّة

فيكتور باسوفاليوك

مذكرات وتأملات نائب وزير الخارجية وممثل رئيس روسيا
في الشرق الأوسط عن العراق والعالم العربي
وسفير موسكو في بغداد

ترجمة وإعداد / د. فالح الحمراني

فيكتور باسوفاليوك

سماء بغداد القرمزية

ترجمة وإعداد

د. فالح الحمراني

دار الكتب العلمية
للطباعة | النشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام إلكتروني يمكن استرجاع الكتاب أو أي جزء منه دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

اسم الكتاب: سماء بغداد القرمزية

اسم المؤلف: فيكتور باسوفاليوك

اسم المترجم: د. فالح الحمراني

الطبعة الأولى 1438هـ/ 2017م

عدد الصفحات: 304 صفحة

الناشر: دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع. العراق - بغداد

الرقم الدولي: ISBN: 978 - 9933 - 57009 - 5

Iraq I Baghdad I Mutanabi Street
Mob. 07819141219 I 07702931543
e.mail:darktbalmya@yahoo.com

مقدمة خاصة بالطبعة العربية

ميخائيل بوغدانوف
بقلم ممثل الرئيس الروسي إلى الشرق
الأوسط وشمال افريقيا، نائب وزير
خارجية روسيا الاتحادية

لقد كُتبت الكثير من المؤلفات الجيدة والمثيرة للاهتمام حول الأحداث التي شهدها العراق في أواخر الثمانينيات - وبداية التسعينيات من القرن العشرين. وتثار حتى الآن حولها مناقشات ساخنة وجدالات حادة. ومع ذلك، ان الكتاب الذي بيدي القارئ العربي، لافت للنظر في كثير من النواحي، ويكتسب أهمية خاصة.

أولاً وقبل كل شيء، ان عنوان الكتاب هو (سماء بغداد القرمزية)، وهو بطبيعة الحال يعطي تحليلا مفصلا لعمليات معقدة للغاية، قام بها مؤلف الكتاب فيكتور باسوفاليوك الذي تميز بمهنية عالية، وفي الوقت نفسه ان الكتاب ليس دراسة اكاديمية وانما تصور شخصي عميق لرجل لم يفهم وحسب - بوضوح ودقة -تلك الأحداث، ولكنه بالدرجة الأولى عايشها بعقله وقلبه وروحه.

وتكمن قيمة هذا الكتاب في الواقع ولحد كبير في أنه سيرة ذاتية مفصلة للمؤلف. ويمكن للقارئ أن يتعرف فيه على عائلته والأقارب والأصدقاء. ان السرد الصريح يكشف عن طريق حياة فيكتور باسوفاليوك الشاق، وتشكيل شخصيته البارزة، والكشف عن مواهبه المتعددة، وتكوّنه كمستشرق مميزودبلوماسي فريد من نوعه. وتجدر الإشارة بطبيعة الحال، وباستحقاق إلى الصفات المتأصلة فيه كالاجتهاد الاستثنائي والإخلاص في تأدية المهام وكشخصية هادفة التي هي من دون مبالغة، يمكن أن تكون نموذجا للأجيال القادمة.

ولعل من أهم محاسن كتاب بوسافاليوك تكمن في وجوب تقييمه ليس في سياقه التاريخي فقط. ويبدو أن ذكريات هذا الدبلوماسي الروسي الفذ ما زالت تحتفظ براهنيتها حتى في يومنا الحالي، وبالمقام الأول فيما يتعلق بشرعية مبدأ استخدام القوة في السياسة الدولية ومدى فعاليتها. وليس سراً أن (سيناريوهات القوة) تنتشر في السنوات الأخيرة بصورة خطيرة، بالرغم من أن تنفيذها لم يحقق الأهداف المعلنة، بيد أنها خلقت فقط العوامل والأخطار التي تزعزع الاستقرار وتخلق التهديدات، بما في ذلك انتشار الإرهاب الدولي. وإذا ما دار الكلام حول الوضع الحالي في العراق وحوله، فمن الواضح أن جذور العديد من المشاكل التي يتعين على العراقيين التصدي لها بمساعدة من المجتمع الدولي، تعود إلى الزمن الذي جرى وصفه في كتاب فيكتور باسوفاليوك.

وثمة جانب آخر يتعلق بالبعد الإنساني لمذكرات زميلنا ورفيقنا الذي رحل في عام 1999. لقد تراكمت الكثير من الأساطير عن الخدمة في السلك الدبلوماسي

حيث كثرت حفلات البروتوكول، والبدلات الانيقة والمراسم الجميلة. في كل هذا، بطبيعة الحال، هناك بعض الحقيقة، ولكن، هناك فيه جانبا آخر تماما كما وصفه فيكتور باسوفاليوك. وأظهر بدقة كما في الفيلم الوثائقي إلى أي حد يكون عمل موظف مؤسسة السياسية الخارجية معقداً سايكولوجيا ومنهكاً جسدياً، وفي بعض الأحيان مميتاً. وللأسف، فإن لائحة المواقع التي تقع في (منطقة الخطر) تتضاعف فقط على مر السنين، وما يبرهن بحزن على ذلك هو الحدث المأساوي في تركيا، الذي سقط فيه السفير الروسي الكسندر كارلوف ميتا ضحية عمل إرهابي. وفيما يتعلق بالعراق، فبصراحة، ان الحياة اليومية لموظفي السفارة الروسية في بغداد لم تتغير كثيرا منذ الوقت الذي وصفه فيكتور باسوفاليوك.

وفي الوقت الذي أقدم فيه كتاب فيكتور باسوفاليوك (سماء بغداد القرمزي)، أود أن أعرب عن ثقتي بأن القراء العرب سيهتمون بالتعرف على ذكريات شاهد عيان مباشر ومشارك في الأحداث المعروفة، وان نشر هذا الكتاب باللغة العربية، سيسهم في التعزيز اللاحق والتفاهم المتبادل والصداقة بين شعوب روسيا والعالم العربي.

كلمة لا بد منها

د. فالح الحمراني

بين يدي القارئ الكريم كتابٌ مهمٌ بقلم الراحل فيكتور باسوفاليوك نائب وزير خارجية روسيا وسفيرها السابق في بغداد وخبير شؤون الشرق الأوسط الذي أمضى معظم حياته متنقلا بين دوله مشاركا في حل أزماته ومشاكله ومكافحا من أجل بقاء المنطقة ضمن أولويات موسكو، إنه وقبل كل شيء وثيقة تاريخية، عن أحداث عاصفة مر بها العراق والعالم العربي بأسره. في جزء منها مذكرات وانطباعات، انه رؤية رجل متمرس مهنيا ودقيق النظر لما عاشته بغداد رسميا ومدنيا، خلال قصف التحالف الدولي بزعامة الولايات المتحدة لبغداد في كانون ثاني/يناير 1991 في اطار ما يسمى بعاصفة الصحراء التي أرغمت دكتاتور العراق على سحب قواته التي احتلت الكويت في 2 آب/أغسطس 1990. صورة بغداد التي اكتسبت سماؤها لونا قرمزيا من نيران القنابل والأسلحة الجديدة التي كأنت تستخدم لأول مرة. شهادة عن حياة العراقيين ومآسيهم وحياة الأجانب بل وحتى عن الكلاب السائبة في تلك الأجواء الكارثية. ومن ثَمَّ جهود الراحل في تجنيب العراق عدوانا أمريكيا في 1989.

وكتب الراحل مذكراته ومقالاته فيما بعد وهو يصارع بشجاعة المرض الخبيث، ولكن بروح الرجل الحكيم الذي عرف العراق والتحولات فيه وسبر اغوار ساسته لا سيِّما إبان حكم حزب البعث وانزلاق حكمه إلى نظام دكتاتوري بوليسي سبب المآسي والكوارث لشعب العراق والشعوب العربية. ووصل الراحل بعد التعاطي معهم لعشرات السنوات إلى تقييم شخصيات النظام البائد وكشف عن أدوارهم في المصائب التي ألحقت بالبلد. انه يتحدث عنا نحن العراقيين كشعب، لاقى من الظلم والعنت والحرمان وعمليات القتل الفردي والجماعي والنزوح والتأخر ما لم يلقه أي شعب في المنطقة، أو ربما في العالم على الرغم من ثرواتنا الطبيعية والبشرية ومكانة بلدنا الجغرافية. كنا دائما الضحية.

وفي الوقت نفسه انه شهادة دبلوماسي فذ ضليع بالشؤون العربية على التطورات فيها والشخصيات التي تصنع القرار، وربما كدبلوماسي محترف نضج في محتدمها، عرف عبد الناصر والسادات وحافظ الأسد وصدام وياسر عرفات والسلال والقذافي والملك حسين وبيغن وشارون، والكتاب أيضاً أطلاله من نافذة واسعة على مطابخ العمل الدبلوماسي وبالمقام السوفيتي ومن ثَمَّ الروسي، وهنا نجد أيضاً الدوافع التي ترسم المصالح الروسية في البلدان العربية وسبل تجسيدها على أرض الواقع. وهو دليل عمل للدبلوماسي وللإنسان العادي في ظل الأزمات والظروف الاستثنائية. انها تجربة حياتية غنية بالدروس.

وهو عرض للتاريخ الحديث، ولمجريات العديد من القضايا في العالم العربي، لا سيِّما القضايا الساخنة فيه من حرب الخليج الثانية إلى القضية الفلسطينية.

وبهذا فانه ينعش في الذاكرة تلك الأحداث الجسام التي شهدتها المنطقة والمسارات التي تبعتها، علاوة على أنه مرشد تاريخي لفئة القراء الذين ولدوا بعد تلك الأحداث. ان تاريخ اليوم هو استمرار أو بالأحرى هو صورة لتداعيات ذلك الزمن الأغبر الذي فقد فيه العرب كل مفاتيح باب الدخول إلى العالم المتحضر فخسروا فرصة ان يكونوا متفاهمين على القواسم المشتركة ومتفاعلين من أجل استحقاقات الحياة الكريمة لكافة شعوب البلدان العربية.

ويجد القارئ بين طيّات الكتاب تجربة شخصية بحتة يمكن ان تضيف حكمة حياتية. فالراحل تنقّل وهو ما زال يافعا وحتى الخمسينيات من عمره بين الدول العربية مترجما ودبلوماسيا، وعقد صداقات مع ممثلي مختلف دوائر المجتمعات العربية، وأدى مهاماً دبلوماسية، نجح في أغلبها، وكان في الخارجية الروسية من الجناح المؤمن بأهمية توثيق علاقات روسيا مع البلدان العربية، وخاض المواجهات من أجل أن لا تدير موسكو ظهرها للعرب، ونجح على هذا المسار. ويعود له الكثير من الفضل لما بلغته العلاقات بين موسكو والعالم العربي بعد أن راحت الأواصر تتقطع إثر انهيار الاتحاد السوفيتي وظهور قوى في الخارجية الروسية عملت على تهميش تلك العلاقات وتغيّر الأولويات.

والكتاب إلى حدٍّ ما رواية وثائقية عن رجل صنع نفسه بنفسه، وهو مثالٌ للشخصية الطموحة التي أرادت ان تعيش الحياة بمتعة وفائدة من خلال تنمية الطاقات الكامنة في الإنسان، ومن خلالها تقديم خدمة لوطنه ولمجتمعه

وللإنسانية، فهو دبلوماسي وموسيقار وشاعر ورياضي وساعي لتعلّم اللغات وسائح نبه ورسول للخير والسلام.

وهناك صوت آخر لا يقلّ قوةً في الكتاب. انه صوت عقيلة الراحل سفيتلانا نيكولايفنا التي رافقت زوجها في الحل والترحال، واستوعبت تجربته وهي وراء اعداد الكتاب وتحريره بمساعدة زميلة الدبلوماسي الروسي ورئيس إدارة الشرق الأوسط في الخارجية الروسية في زمن الاتحاد السوفيتي فاسيلي كولوتوشا، وكانت سفيتلانا نيكولايفنا شريكة مخلصة على مدى حياة الراحل، ومرت معه في كافة محطاته في المنطقة، فكتبت عن ما لم يمهل المرض الخبيث الراحل تدوينه. وتحدثت بشفافية كامراة عن انطباعاتها عن مدن العالم العربي وناسه وعاداته وتقاليده. وتحدثت عن أماكن واسواق ومدن وأجواء جميلة لم يعد لبعضها مع الأسف، وجود.

والكتاب يتألف من مذكرات الراحل (سماء بغداد القرمزية) و« محطات باسوفاليوك في الشرق الأوسط » و(عودة روسيا للشرق الأوسط) وبوسافاليوك بالعربية، وبدلا عن الخاتمة بقلم السياسي، المستغرب الروسي الشهير الأكاديمي يفجيني بريماكوف، وهي أيضاً شهادة عادلة بحق الراحل فيكتور باسوفالوك.

ولا يسعني إلاّ أن اتقدم بالشكر لصاحب دار (اليتيا) في سانت بطرسبورغ إيجور سافكين الذي وافق من غير تردد على ترجمة الكتاب إلى العربية. والسيدة سفتلانا نيكولايفنا التي باركت بظهوره للعربية والسيد فاسيلي كوتولوشا الذي تحمس للفكرة ودعمها بلا حدود.

بطاقة شخصية

فيكتور باسوفاليوك كان أسطورة حية في وزارة الخارجية الروسية. وكان ضليعاً ومتألقاً في شؤون الشرق الأوسط، وهو صديق شخصي للكثير من زعماء العالم العربي.

قطع طريقا طويلا في رحلته الدبلوماسية فبعد تخرجه عمل ديبلوماسياً في عدد من البلدان العربية، منها اليمن وسورية والعراق، وغدا أول سفير للاتحاد السوفيتي في مسقط، ثم نقل إلى بغداد سفيراً حيث اضطلع بمهمة صعبة أثناء حرب الخليج الثانية. حتى بلغ منصب نائب وزير الخارجية، وكان مسؤولاً عن ملف الشرق الأوسط لسنوات طويلة، وتولى عدداً من المهمات كمبعوث خاص للرئيس بوريس يلتسن في المنطقة.

وخلال اشغاله منصب المبعوث الشخصي للرئيس الروسي لشؤون الشرق الأوسط أمضى الجزء الكبير من وقته متجولا في بلدان الشرق الأوسط. وكان باسوفاليوك في غمرة الأحداث سواء كان الكلام يدور عن المباحثات أو النزاعات: وفي الأيام الساخنة خلال حرب الخليج الأولى وقد أدى واجبه تحت وابل قصف التحالف الدولي بغداد.

ولكن هناك القليل من يعرف في وزارة الخارجية الروسية ان الموسيقى والعزف على البيانو والقيثارهي ولع باسوفوليوك الثاني بعد الدبلوماسية. وكثيرا ما أغاثت الموسيقى باسوفوليوك في الظروف الاستثنائية. ويقول شهود عيان بأن الدبلوماسي جلس خلف البيانو لعزف مقطوعة من جورج جيرشفين حينما دخلت المفاوضات مع الجانب الإسرائيلي لطريق مسدود. وتحلحل الوضع. كان بوسوفاليوك يجيد اللغة العربية التي درسها في معهد شعوب آسيا وافريقيا التابع لجامعة موسكو، واثر استدعائه إلى موسكو كلف بإدارة قسم الشرق الأوسط وشمال افريقيا، ثم أصبح نائباً لوزير الخارجية، مبعوثاً خاصاً لرئيس الدولة.

ارتبط بوسوفاليوك بصلات شخصية واسعة مع كثيرين من القادة ووزراء الخارجية العرب، ولعب دوراً مهماً في احتواء مشاكل ملتهبة ومعالجتها، ومن أبرزها التوصل إلى تسوية لاحتواء أزمة كانون الأول ديسمبر 1998 بين العراق والولايات المتحدة، وكان أمضى في بغداد زهاء شهرين لإيجاد حلول مقبولة للطرفين.

كما تولى بوسوفاليوك مهمات خاصة غير معلنة، نجح في إحداها في إقامة صلات مع (حزب الله) لمنع التصعيد في الجنوب اللبناني.

وكان بوسافلوك من كتّاب صحيفة (الحياة) اللندية، نشر فيها عدداً من الدراسات والمقالات التي أوضح فيها سياسة بلاده حيال المعضلات الكبرى في الشرق الأوسط وافغانستان وإيران، وكذلك استراتيجية موسكو في الشؤون الدولية. وإلى جانب احترافه الديبلوماسية، كان بوسوفاليوك ذا مواهب عديدة، إذ تخرج في مدرسة عليا للموسيقى، وكان يكتب كلمات ويضع ألحان أغانٍ أداها

بنفسه، وصدر بعضها في البومين انتشرا على نطاق واسع في روسيا. وحتى إصابته بمرض السرطان صيف 1998، كان بوسوفاليوك لا يتوانى عن المشاركة في مباريات أسبوعية لكرة القدم، تنظمها وزارة الخارجية والحكومة الروسية.

ولد يوم 7 مايو عام 1940 في موسكو. وتخرج عام 1963 في معهد اللغات الشرقية لدى جامعة موسكو الحكومية.

وبدأ حياته العملية مترجما مع الخبراء السوفييت في ميناء الحديدة بشمال اليمن، ثم انتقل إلى الخدمة في السلك الدبلوماسي السوفيتي حيث شغل عام 1964 منصب موظف في السفارة السوفيتية بالجمهورية العربية اليمنية ثم عمل موظفاً في قسم بلدان الشرق الأوسط بـ (وزارة الخارجية) السوفيتية.

وتولّى المستعرب مناصب مستشار السفارة السوفيتية في العراق أعوام 1969 - 1976 والقائم بأعمال السفارة السوفيتية في سوريا أعوام 1980 - 1985 ونائب رئيس قسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بوزارة الخارجية أعوام 1986 - 1988 وسفير الاتحاد السوفيتي في عمان أعوام 1988 - 1990.

ولعب فيكتور بوسوفاليوك دورا متميزا في المرحلة الصعبة التي أعقبت تفكك الاتحاد السوفييتي حين بدأت تتشكل ملامح السياسة الخارجية الجديدة لروسيا. وترأس في تلك الفترة الانتقالية قسم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ونجح في التخلص من تركة الماضي وتبديد الأوهام بأن الشرق الأوسط ليس

حيويا لروسيا، واستطاع ان يثبِّت أسس التعاون واعادة العلاقات مع دول المنطقة. بعدها تولى عام 1990 منصب سفير الاتحاد السوفيتي ثم روسيا الاتحادية في العراق.

وسجلت الخارجية الروسية للسفير النشط محاولاته لدرء الهجوم الأميركي على العراق أثناء الحصار، ونجح أكثر من مرة. وبقى سفيرا أجنبيا وحيدا يقيم في بغداد تحت شظايا القنابل الاميركية. وكانت تجري عن طريقه كل الاتصالات بين الدبلوماسيين الروس والغربيين من جهة وقيادة العراق آنذاك من جهة أخرى.

تولى عام 1992 إدارة شعبة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في وزارة الخارجية الروسية. ثم تم تعيينه عام 1994 نائبا لوزير الخارجية الروسي ومبعوثا خاصا لرئيس روسيا إلى الشرق الأوسط. وظل يشغل هذين المنصبين لغاية وفاته في 1 أغسطس/آب عام 1999.

أشير إلى أن فيكتور باسوفاليوك كان ينظم القصائد المغناة إلى جانب عمله على الصعيد الدبلوماسي. وصدر بعد وفاته ديوان ضمّ ما كتب من شعر.

سماء بغداد القرمزية

كلمة المحرِّر

فاسيلي كولوتوشا
رئيس إدارة الشرق الأوسط في
الخارجية السوفيتية

لقد حالفني الحظ ان اكون أول من يقرأ مذكرات صديقي وزميلي فيكتور باسوفاليوك هذه. ولن أخجل بالاعتراف باني شعرت بالقلق من الصميم، وأنا أنظر بعيون فيكتور للظروف التي عملت بها سفارتنا في العراق في كانون الثاني / يناير - شباط / فبراير، 1991. ومن حيث المبدأ اني أعرف عما يكتب، لأني كنت رئيسا لإدارة الشرق الأوسط وعملت على (موقف موسكو) وأزمة الشرق الأوسط ومشكلة إجلاء مواطنيننا من العراق، والاتصالات بالجانب العراقي. بيد ان فيكتور وصف تلك الأحداث على قدر من القوة وعلى قدر من الحيوية تجعل قارئ مذكراته كما لو انه كان مشاركا فيها. وأنا على ثقة بان المذكرات تنطوي على أهمية كبيرة لكل من يهتم بقضايا الشرق الأوسط والشؤون الدولية. ان هذه تدوينات مشارك مباشر بالأحداث الموصوفة. فضلا عن انه دبلوماسي ناضج ومراقب دقيق، ونفساني، ومحلل.

وعلى القارئ ان يعير الانتباه إلى انه وبعد بدء ضرب أمريكا الكثيف ببغداد في كانون ثاني / يناير 1991 بقى في العراق فقط سفارتان اللتان واصلتا العمل بشكل فعلي. سفيران نفذا الدور الذي انيط بهما. هما سفير فلسطين عزام الأحمد وسفير الاتحاد السوفيتي فيكتور بوسوفاليوك. ويمكن وصف عملهما في تلك الأيام ومن دون مبالغة بانه مأثرة دبلوماسية.

فبفضل بوسوفاليوك بالذات لم ينقطع الحوار يوما واحدا بين قيادتي الاتحاد السوفيتي والعراق. ولكن من يعرف كيف جرى ذلك من الناحية العملية، كيف وصل سفير الاتحاد السوفيتي إلى طارق عزيز، أو إلى المسؤولين في وزارة الخارجية العراقية، وكيف تم تسليم رسائل القيادة السوفيتي لصدام حسين؟ وتصور ذلك بشكل عام وبشكل تقريبي حتى من عمل بالشؤون العراقية في موسكو. فأنا مثلا فهمت وشعرت اية حياة واقعية كانت فقط بعد ان قرأت مذكرات فيكتور، حينما تصورت فكريا لو اني كنت محله. وأقول بصراحة، باني شعرت بما يشبه الصدمة، بالرغم من أني أعرف الكثير.

وتثير الاهتمام أفكار فيكتور عن العراق وشعبه وحكامه،! أو عن العلاقات السوفيتية - العراقية! علاوة على ذلك انه كرس للعمل في العراق أكثر من 8 سنوات.

كلمة: سفتلانا نيكولايفنا بوسوفاليوك

عقيلة الراحل نائب وزير
خارجية روسيا الاتحادية

عمل فيكتور على مذكراته في خريف 1998 بعد ان تحسنت صحته عقب العملية الجراحية التي أجريت له للاستشفاء من مرض السرطان. والان أفهم انه وضع أمام نفسه مهمة الاسراع لتسجيل ما عايشه على الورق. ولكن المرض لم يمهله لينتهي من كتابة خواطره وتحريرها.

لقد بقيت المخطوطة فترة طويلة مُلقاة على المنضدة: ان ألم الخسارة بعد رحيل زوجي في الأول من أغسطس 1999 كان حادا للغاية. بل وحتى هو كان يشك هل بوسعه نشر ما كتبه. وعدت إلى المخطوطة عام 2008، وفك رموز النص المكتوب، واردت توقيت نشرها مع الذكرى العاشرة لرحيله. وفي الوقت الذي فهمت فيه ان التعليقات غير المشطة تتطلب عملا تحريريا جادا وتعليقات مهنية، فتوجهت إلى زملاء وأصدقاء فيكتور طالبة منهم الدعم. وحصلت مساعدة لا تقدر، ومشاركة أصيلة من فاسيلي ايفانوفتش كولوتوشا، رئيس إدارة الشرق الأوسط في وزارة خارجية الاتحاد السوفيتي في المرحلة الموصوفة

والمُطلع من الداخل على تلك الأحداث والمشاكل. وكان قد عمل بصورة حيوية ونظم بمباركة رئاسة وزارة الخارجية ومشاركتها المكثفة أمسية مُكرسة لذكرى فيكتور فيكتوروفيتش.

واعقد الأمل على أن مذكرات فيكتور عن الأحداث في بغداد 1990 - 91 وتأملاته عن أهل العراق ودكتاتوره ستكون مهمة سواء للخبراء، أو لدائرة واسعة من القراء الذين لا يتخذون موقفا مباليا من تاريخ بلادنا.

إن الجزء الأعظم من هذا الكتاب يتالف من المقالات وما نشرته وسائل الاعلام واحاديث فيكتورباسوفاليوك في مختلف الأعوام بعد 1992 التي تتضمن تحليل علاقات روسيا مع البلدان العربية والتي كما أعتقد لم تفقد أهميتها لحد اليوم.

استهلال

اعود مرة بعد أخرى إلى أحداث أعوام 1990 - 1991. وها اني أجلس أخيرا لاقوم بوصفها، لكني لا أعرف متى سأستطيع نشرها. ان قول الحقيقة بصورة سافرة دائما محفوف بالخطر، والأكثر خطورة ما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط...

وهناك فكرة تطرأ دائماً على ذهني. ان حياتي السابقة بأسرها أعدتني لخوض تلك التجربة: الدراسة في المعهد والمهام التي جرى تكليفي بها في البلدان العربية، وبخاصة في العراق إبان سنوات الستينيات - والسبعينيات، والعمل في وزارة الخارجية، وممارسة الرياضة والقيام بالترجمة للشخصيات رفيعة المستوى. كان مطلوبا. وكما يقال بأجمعه وفورا! ولحد الان أطرح سؤالا على نفسي: ما كان المطلوب أكثر في تلك الأيام المجنونة: هل التأهيل المهني أم الطبع الشخصي؟، معرفة اللغات أم التحمل الجسدي؟، امتلاك المعلومات الموضوعية أم المعرفة الدقيقة أم الحدس كشكل من أشكال الصوت الداخلي؟ وعلى الأرجح الأول والثاني والثالث، وفي آن واحد. ان دور الحدس هام للغاية: وكما يُقال بالروسية (شعرت بالكثير بظهري) و(جلدي) - من دون إعمال عقلي، وعلى نحو ما جاء القرار الذي ظهر انه ضروري.

هكذا كانت البداية

غادرتُ بغداد في اجازة بتاريخ 29 تموز/يوليو عشية غزو الكويت، وقبل سبعة أو ثمانية أيام من سفري كان وزير الصناعة الحربية السوفيتية بوريس ميخائيلوفتس بيلاؤوسوف يقوم بزيارة لبغداد. ورافق الوزير، الذي كان أحد أكبر شخصيات الصناعات العسكرية عشرات المصممين الرئيسين ومدراء المصانع، الذين مثلوا صفوة مؤسسات التصنيع والدفاع السوفيتي. وجرت المباحثات بصورة باهرة. وفي الوقت الذي لم نرتب به شيئاً، اتفقنا مع الجانب العراقي حول القضايا الدفاعية التي ارتقت بالتعاون الثنائي إلى ارفع المستويات، وتمحورت المسالة الرئيسية على تجهيز الجيش العراقي بتكنلوجيات بما في ذلك تكنلوجيات حديثة. وفي حقيقة الأمر بذلتُ محاولة للاعتراض، حينما شعرت ان علاقاتنا بدأت (تميل) نحو القضايا الصاروخية والفضاء الكوني. وبالدرجة الأولى سعت لذلك مؤسسة (انتيركوسموس). وكانت الردود على اسئلتي جاهزة لديهم، ومفادها انها ريادة الفضاء الكوني التي تتم لأغراض مدنية، بالرغم ان ذلك، كان على أقل تقدير، يشمل على معدات وتكنلوجيات ذات أغراض مزدوجة. وكنت مستعداً خلال إجازاتي بموسكو لإجراء استشارات والتحدث مع المعنيين بشؤون السلاح في بلدنا. ولم يبقَ حاليا لدي غير شعور الفرح، لأنه لم يُكتب لهذا الخطط

ان تتم وتدخل حيز التنفيذ، وبخلافه لكان الكلام مع بغداد أثناء احتلال الكويت أكثر صعوبة. وبالطبع وقفت وراء هذه الخطط أموال كبيرة بالنسبة للاتحاد السوفيتي، وطلبيات ضخمة لمصانعنا، وخلب كل هذا لبّ وزاراتنا. وبحقيقة الأمر فقد كان في هذا دائما يكمن سر علاقاتنا التحالفية مع الدول الأخرى و(ضمان) استقرارها.

ورافقت في 25 يوليو بوريس بيلاؤوسوف للقاء بالرئيس صدام حسين. وجرى اللقاء في أكثر قصوره بهاءً (عش الصقر) الكائن في الطريق المؤدي إلى المطار. وهو مدينة كاملة في داخل مدينة، محاطا بسور عالي. وهناك الكثير من المباني، بما في ذلك حرس الرئيس الذي يؤَمّن الحماية. وحينما خرجنا من القصر كان قد وصل عزت ابراهيم وطارق عزيز وبعض الشخصيات من هيئة القيادة العراقية العليا. وبعد ذلك أدركت ان ذلك كان الاجتماع الذي جرى خلاله تبني قرار باحتلال الكويت.

كنت أنظر لصدام طيلة سنوات تعرفي عليه أي منذ بداية 1969، بهدوء. وبدوره تعامل معي بمودة. وعلى كل الاحتمالات ابتسم لي، وخاطبني باسمي، ومن وقت إلى آخر ربت على كتفي. ولكني في هذه المرة في 25 يوليوم 1990 لم أشعر فقط - وبشكل مفاجئ - بعدم ارتياح شديد تجاهه، وانما شعرت بالخوف منه. كانت عيونه في هذه المرة مرعبة، ولاح فيها شر خارق للعادة. بعد ذلك أدركت انه في تلك الساعات بالذات تبنى أصعب قرار في حياته، وعانى من الشكوك، هل سينجو من العقاب على المغامرة الكبرى التي يخاطر بها.

جرت أول لقاءاتي بصدام في أعوام 1969 و1970 حينما رافقت فيدوتوف الذي كان قائما بأعمال السفارة السوفيتية بالعراق، حيث زار صدام حسين لمناقشه القضية الكردية التي كانت حينها ملحّة. كانت تلك الفترة بدايات ترقي صدام في المناصب، وما زال بوسعه حينها الاصغاء للآخرين. ولاح لنا ان صداماً مهتم فعلا باستماع الحقيقة من هذا الدبلوماسي الروسي الحازم الاشقر (علاوة على اننا كنا مستعدين جيدا للمحادثة). وخلال المحادثة اشتبك فيدوتوف في جدل مع صدام، لأنه كان يعتقد ان بوسعه توجيه تقييمات نقدية لسياسة البعثيين العراقيين الداخلية، وغالبا ما مشى بتقييماته على حد السكين الحاد. وفهمت بعد ذلك، اننا وعلى خلفية طبع صدام الحقود والانتقامي، خضنا في الواقع لعبة خطرة. وسرعان ما انقطت هذ اللقاءات.

وصفوة القول ان لقائي ذاك بالرئيس العراقي أثار قلقي. وقبل يوم من سفري في 27 أو 28 يوليو، طلبت الالتقاء بوزير الخارجية طارق عزيز، وخلال محادثاتي معه عبرت عن الرغبة القوية بأننا ننطلق من أن القيادة العراقية ستسويّ الخلافات مع الكويت. وبالطبع كنت متعطّشا لأسمع ردا واضحا ايجابيا، بيد ان طارق عزيز في الرد علي، وولوجي له من كافة الزاويا كرر مرة أخرى: « ولكن أحكم بنفسك يا فيكتور انهم... » وبعد ذلك تتابعت التهم والملامات على الكويت. وكان أحد الأدلة الرئيسية، أو الرئيسي هو ان مضاربات الكويتيين باحجام كبيرة بالدينار العراقي تقوّض اقتصاد العراق وعملته. وعموما كما لو ان الكويت تنتهج سياسة معادية للعراق، وتغازل بذلك الولايات المتحدة. وأعيدُ أنا ثانية: وردّوا عليهم أنتم بوسائل اقتصادية. والشيء الرئيسي هو هل يمكن ان اكون واثقاً

بانكم لن تقوموا بعملية عسكرية ضد الكويت؟ وهو يرد ثانية: (أحكم بنفسك يا فيكتور...) ومن ثَمَّ وخلال تحليل مناقشات الوزير العراقي، فكرت وما زلت أعتقد حتى الان، من الواضح ان طارق عزيز أراد ان يخدعني، ولذلك التجأ إلى هذا الاسلوب المراوغ.

هناك فرضية من أن صدام حسين لم يقرر احتلال الكويت دفعة واحدة، وانما أراد في البداية اثارة مخاوف أمير الكويت باحتلال مناطق البلاد الشمالية. ولا أنفي هذه الفرضية. على الرغم من أن استعادة الكويت ترسخت بثبات في عقول الكثير من العراقيين، ويمكن ان تكون المحطة الأولى قد شملت احتلال جزء منه فقط، ولكن بعد الاجتماع في مدينة (جدة) قرر صدام المغيظ والساخط معاقبة أمير الكويت جابر بالكامل. ومن المحتمل ان صدام فكر، بانه سيكفي برفع قبضته، حتى يخرّ الكويت أمامه على ركبتيه. ولم يخطر على باله ان خصمه في لعبة الشطرنج هذه ليس الكويت وحدها وانما المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة التي أخطأت في حساب تطور الوضع لعدة خطوات للامام، وقررت هذه المرة عدم ترك صدام. ولكنه لم يعرف ذلك تماما أو لم يدركه. بيد ان هذا أمر غريب، نظرا لأن أحد الأفكار المحورية في مناقشات العراقيين كانت وستبقى ثقتهم بان العراق هدف ثابت ومستديم لمؤمرات الولايات المتحدة والرجعية العربية. يا ترى هل كان من المستحيل الافتراض بان الكويت سيرد بقسوة على هجوم العراق، وانه لا يلفق، وانما حصل على تعهدات ذات صلة من حلفائه. أو ببساطة يدسون ما يشبه طُعما شهيا، عارفين دعاوى العراقيين التقليدية بالاراضي التي دخلت في زمن ماض في اطار ولاية البصرة. وبالمناسبة فقد سمعت مرارا من العراقيين ان

(قائدنا صدام حسين) تنبأ بعبقرية بان الحرب ستنشب وسوف يهاجموننا. ويستغرب العراقيون العاديون حينما أقول لهم انني أرى عبقرية اصيلة، نعم هناك عبقرية هي في ان ابسط وظائف زعيم البلد تكمن ليس في ان يتنبأ وحسب، وانما في ان يصدّ الضربة عن شعبه. أما مثل هذه (العبقرية) الشبيهة بتنبؤات (كاساندرا)، فلن تعود بالخير والنفع على الشعب.

وبالمناسبة فقد صرح طارق عزيز وصدام حسين أكثر من مرة، انهما كانا على ثقة، بان الولايات المتحدة ستضرب العراق. وهذا ما برأ ساحتهما جزئيا أمام العراقيين، ولكن يبدو لي أنهما رسما لنفسيهما تصرف واشنطن على نحو آخر تماما، لذلك فانهما مارسا الاحتيال. ولكن سياتي الحديث ادناه عن هذا بصورة خاصة.

وحينما كنت أقول خلال الجدل مع العراقيين من الرتب المتوسطة، ان العراق هو الذين قام بالهجوم ولم يجرِ الهجوم عليه، فيكون الجواب: (وبخلافه لهاجمونا) - من؟ (الأمريكييون وخدَمَهم). بالطبع ان هذه المناقشات تعكس الروح الدعائية لصحيفة (الثورة) التي كان طارق عزيز في يوم ما محررا لها. ومع ذلك، تشكل لدي قبل تعييني في بغداد ربيع 1990 انطباع أن ضجة صاخبة جديدة بدأت تدور حول العراق. وساورني نوع من القلق. بالرغم من أني أعترف من كوني كنت من أولئك الذين فكروا بأن صدام، الذي تعلم درسا مريرا من الحرب مع إيران، لن يتورط أكثر بمغامرة جديدة. وللأسف حتى أنا الذي عرفته سنوات طويلة، لم أقيمُ فيه روح المغامرة المنحرفة التي لا تُستأصل.

في اذار/مـــارس 1990 وقبل سفري إلى العراق تحدثت مع ليونيد فلاديميروفتش شيبارشين - الذي ترأس في ذلك الوقت جهاز التجسس الخارجي السوفيتي. وتطرق الحديث إلى أن لعبة سياسية كبرى تحاك حول العراق. وعلى الرغم من أن العراقيين كانوا سبب كافة الفضائح المُثارة، شعرنا بأن السبب الحقيقي للصخب المحتدم يكمن أعمق. واتفقنا على أن نبحث عن هذه الأسباب العميقة سوية، أي وزارة الخارجية وجهاز التجسس الخارجي. ومن المفهوم أن سبب تنامي هذا الاهتمام بالعراق هو خوف إسرائيل من نيّات بغداد في ضوء نهاية الحرب الإيرانية - العراقية. كان هذا راينا المشترك. واشير إلى أن شيبارين كان جاسوسا كبيرا يلم جيدا بخيوط السياسة العالمية. بالرغم من أن كافة الجواسيس يميلون إلى المبالغة بالأسباب الخفية ولا يقدرون دور العوامل الجلية، أو بمعنى آخر الموضوعية وبالدرجة الأولى الاقتصادية والاجتماعية.

تعرفت على ليونيد شيبارشين في وقت سابق، حينما أصبح بعد ترؤس نقطة التجسس في إيران، نائبا لرئيس إحدى إدارات جهاز التجسس الخارجي. وكنت نائبا لرئيس إدارة الشرق الأوسط في وزارة الخارجية، والتقينا على الغالب في وزارة الخارجية، لكتابة التقارير إلى المكتب السياسي (للحزب الشيوعي السوفيتي) بتواقيع الثلاثي: غروميكو وسوكولوف وتشيبريكوف (كروتشكوف) - بشأن قضايا الشرق الأوسط: ليبيا واليمن وغيرها. وكان التعاون معه متعة لا غير - فهو شخص رقيق وذكي وشخصية متعاونة وضليع بمشاكل الشرق الأوسط. وكانت التقارير الكبيرة تُمهر بثلاثة تواقيع، وقَبلَ المكتب السياسي تلك التقارير بسهولة، حيث كانت عقول هناك كسولة، إذ تم تنسيق القضية بين الاجهزة الثلاثة

التي كانت في زمن الاتحاد السوفيتي ترتبط بعلاقات شراكة، وفي الوقت نفسه متنافسة تقليديا في شؤون السياسة الخارجية. وبعد تبادل الآراء مع ليونيد شيبارين ترسخ لديّ الرأي بأن العراق ينزلق لا محالة، نحو مكيدة كبيرة.

وبدأتُ اجازتي في موسكو أن خرجت في 2 أغسطس من بيتي في الصباح الباكر، على أمل أن أقوم بجولة في شارع (آربات) القديم، وفي حدود الساعة التاسعة أذهب إلى وزارة الخارجية، إلى إدارة الشرق الأوسط العزيزة على قلبي، لتبادل الحديث مع زملائي. وحينما اقتربت من مبنى الوزارة، التقيت باندريه بولياكوف، وهو أحد مستعربينا، مسرعا لجهة ما، وبادرني مستغربا بالسؤال: «وماذا تعملون هنا، بعدما ما حدث؟» وانا: ما حدث؟! - (العراقيون احتلوا الكويت!) - ومن عبارة أندريه هذه بدأت في حياتي أكثر المراحل فضاعة وأكثرها مسؤولية.

وهرعت إلى الإدارة، إلى فلاديمير بولياكوف الذي ترأسها في ذلك الوقت، وروى لي باختصار أن القوات العراقية دخلت الكويت واحتلته. واعلنتُ فورا ينبغي علي العودة إلى بغداد حالا. ووافق فلاديمير بولياكوف من دون تردد، ولكنه قال بأن عليه أن يستشير الكسندر بيلونوغوف، نائب وزير الخارجية المشرف علينا، وهرع إلى الطابق السابع، حيث كان مكتب وزير الخارجية حينها ادوارد شيفرنادزه وأغلب نوابه. وكان بولياكوف يريد التخلص بأسرع وقت من هذه المشكلة غير المتوقعة، نظرا لأن عليه ان يسافر بعد أيام إلى القاهرة ليكون سفيرا للاتحاد السوفيتي لدى مصر، ويباشر محله فاسيلي ايفانوفتش كولوتوشا، الذي عاد من بيروت، حيث عمل سفيرا لأربع سنوات.

وقال لي بيلونوغوف بعد عودته: لا داعي للاستعجال لأن الكسندر ميخائيلوفوتش يعتقد أنه ليس من الضروري السفر الآن، وان بولياكوف يتفق معه. ودعم الموظفون، الذين تواجدوا في المكتب، هذا الرأي. بيد أني لم أتفق معهم، وساورني شعور حدسي دقيق بان الأمور اختلطت بحدة! وتحركت بسرعة في الإدارة وخمّنت ما يجب القيام به في المقام الأول. بالطبع ينبغي أن أتواجد في مكان عملي ببغداد، ولا سيِّما في ذلك اليوم كانت رحلة (الايروفلوت) إلى بغداد في الساعة 14:00 وأُعلن فجأة ان شيفرنادزه اتصل هاتفيا من مدينة اركوتيسك، حيث أجرى مباحثات مع وزير الخارجية الأمريكية جون بيكر، وأمر بان أتوجه حالا إلى بغداد. وبسرعة حُجزت لي تذكرة، وهرعت إلى بيتي لأخذ حقيبتي. وفي البيت استقبلتني زوجتي بنبأ، عن اتصالهم بي من وزارة الخارجية حيث أبلغوها عن قرار غلق أجواء العراق وإلغاء رحلة الايرفلوت.

من الواضح أن المسألة تعقدت. وذهبت مرة أخرى إلى وزارة الخارجية. وابلغوني ان شيفرنادزه يريد رؤيتي حالما يرجع من سيبيريا، وان طائرته في الجو. وكان الحديث مع الوزير قصيرا. وقال لي ان ابحث عن خيار للعودة إلى العراق نظرا لأنه أبلغ بيكر عشية ذلك اليوم بان السفير السوفيتي توجه بالطائرة إلى بغداد. وبالنسبة لي فان هذا المبرر في مثل هذا الوضع لاح غريبا بعض الشيء. كان من الواضح ان بيكر شحن شيفرنادزه، وتشكل موقف سلبي عند الوزير من ممارسات القيادة العراقية. وتحدث الوزير بالأساس، ومن الواضح أيضاً بايحاء من بيكر، عن ضرورة وقف التعاون العسكري باسرع وقت، وسحب خبرائنا من بغداد.

وفي نهاية المطاف حجزوا لي تذكرة إلى دمشق، ومن هناك أسافر إلى بغداد بالسيارة. وطلب مني شيفاردنازة خلال الحديث أن أشارك في كتابة بيان للعراق، أعداه بيلونوغوف والمساعد الأول للوزير تاراسينكو. وذهبت إلى الكسندر ميخائلوفيتش وادركتُ، كيف راحت العلاقات مع العراق تتدهور باندفاع: انهال تاراسينكو على العراق باللعنات الواحدة تلو الأخرى. ولوّن هذا بشكل طردي نبرة بياننا، وحينما حاولت المشاركة بإعداد نص الوثيقة، اقترحت بوجل ان نضع في النداء كلمة (الأصدقاء العراقيون) فقاطعني تاراسينكو بقسوة وسخر مني. وكان الكسندر ميخائيلوفتش أكثر توازنا، واعطاني عدة نصائح ووصايا عامة. وخرجت من لقاء العمل كدرا مع ارهاصة فهم كيف سيكون من الصعب علي العمل مع المركز، حيث إن شيفرنادزه وتاراسينكو جعلا الأمور تسير بمجرى معين بتاثير من لهجة التقييم الأمريكي. وفي اليوم التالي سافرت بالطائرة إلى دمشق، وتوجهت في نفس اليوم بالسيارة إلى عَمان وفي اليوم الثاني بنفس السيارة إلى بغداد.

في 4 أغسطس كنت في بغداد، وبدأت ملحمتي البغدادية. وتعيّن علي ان أحل ما لا يمكن تأجيله في ظل قلة النوم المستديمة والعَرَق الصابوني من حر بغداد الذي لا يُطاق، وفي حالة التشوش العصبي وسط مجاميع خبرائنا...

مشاكل السفير الصغيرة والكبيرة

أعتبر أن استحقاقي الرئيسي طيلة عملي في العراق كان نقل 8 آلاف مواطن سوفيتي ومقيم هناك في تلك الأثناء. لقد سار كل شيء في بلدنا حينها نحو الانهيار الشامل - سياسيا وعقائديا واجتماعيا. وبالتالي فان الغالبية المطلقة لم ترد العودة إلى الجوع والشتاء البارد. وادرك الكثيرون أن هذه ربما هي المأمورية الاخيرة لهم في الخارج، الفرصة الأخيرة للحصول على الحد الأدنى من العوائد المالية. لذلك تطلّب مني التحلّي بضبط النفس والإصرار والقدرة على الإقناع.

إن صعوبة وخصوصية هذه المهمة كانت في ان إجلاء المواطنين السوفيت من العراق جرى ليس في عام 1973 أو 1982 (جرت في تلك الأعوام أكبر عمليات اجلاء للمواطنين السوفيت من البلدان العربية)، وانما في عام 1990 مع انطلاقة البيريسترويكا وتفتح الوعي وتعددية الاراء، وظهور جماعات وزعامات غير خاضعة للدولة، وانهيار الشعور الوطني وسقوط دور اللجنة الحزبية بشكل مطرد. وأقولها بصراحة - وتصرف سكرتيرها المخزي.

وتجدر الإشارة إلى أننا أبقينا عددا كبيرا من الأشخاص في السفارة والملحقية التجارية. ولم يكن بالميسور معارضة رغبتهم بالبقاء الذي دعمته موسكو من

مختلف المؤسسات - الكي جي بي (لجنة مخابرات الدولة) ووزارة الدفاع ووزارة التجارة. وعلى الأرجح أن وزارة الخارجية (ممثلة بالكسندر بيسميرتنيخ والكسندر بيلونوغوف) دعمتني. وبالطبع لم يتصور أحد سعة نطاق الحرب المقبلة، على الرغم من أن عديد قوات التحالف المناهض لصدام، التي أعلنت أمريكا عنه، (في البداية 300 ومن ثَمَّ 500 ألف). وعلى العموم جعلت الجميع في نهاية المطاف يؤمنون بحتمية انعطاف الأحداث بشكل مأساوي. إن لجنة العمل الوزارية التي تشكلت في موسكو والخاصة بالعراق، وعلى الرغم من أنها ساعدت بشكل رصين، لكن الوزارات الفنية وحتى جهاز المخابرات الكي جي بي المهمينة عليها مع العسكريين، عارضت تدريجيا عملية إجلاء المواطنين التام وحاولت العثور على أدلة ما. واتخذوا من وزارة الخارجية وممثليها (ولا سيِّما فلاديمير كولوتوشا) في اللجنة موقفا عدائيا، على الرغم من أن الخارجية بالذات هي التي قامت بالاعمال الأكثر وضاعة. وهنا تكمن المفارقة في الوضع، فقبل أحداث أغسطس 1991 لم تترك ما يسمى (بالمؤسسات) اية فرصة لنقد وتجريح وزارة الخارجية الاتحادية (الحذرة أكثر من اللازم). ولكن وزارة الخارجية كانت في اللحظات الحرجة عمليا، وحدها المسؤولة عن تداعيات هذا أو ذاك من الانشطة، واُتهمت في أوضاع أخرى بعدم التحرك في الشؤون الدولية. وهذا ما كان مع سفاراتنا.

إن من يعرف آليات عمل السفارة يفهم عما يدور عليه الكلام. كان لدي الكثير من المستشارين والناصحين، وكل واحد منهم تكبر وساير ميول رؤسائه في موسكو، وسحب الأمور لجانبه وتحرك بجلبة والتجأ باستدامة إلى أفكار ما، أما المسؤولية فيتعين على السفير تحملها (وكان هذا واضحا بصورة تامة). لقد

كنت في حالة تأهب. كان الكسندر كوزمين الوحيد من موظفي السفارة الذي حذَرَ من الخطر الداهم، فضلا عن السفير وكولوتوشا باعتباره رئيس الدائرة، وكونه عايش الحرب الاهلية في لبنان شعر بالمسؤولية عن مصائر الناس. واود بشكل عابر الإشارة إلى دور المستشار - المبعوث كالوجين الذي شاطرني صعوبات الأماسي ومحن الليالي. وكان حضوره مهماً أيضاً من زاوية اتصالاته المثمرة وذات النتائج مع الغربيين، الذين منحوا (ساشا) الثقة، واطلعه الكثيرون منهم على تقاريرهم وتقييماتهم وشاطروه الانطباعات عن اتصالاتهم.

وعلى الإجمال ساورني على مدى أشهر طويلة الشعور بأنني أراهن على كل شي. وإذا ما أثقلني هذا في البداية وضغط علي، وتطلعت في البدء حولي، فإن الشعور بالمسؤولية الكبيرة بالذات حررني وجعلني أكثر جرأة من المعتاد. وبمعنى من المعاني كسر الصورة النمطية لسلوك منتسبي وزارة الخارجية الذي عادة ما يفرض الاختفاء وراء صيغ غامضة والاختباء وراء ظهر شخص ما (وانا بنفسي كنت مصابا بشدة بهذه العقدة). وكان واضحاً لي، اما ان اتحمل المسؤولية أو اخسر. ومن غير الجائز أن أمارس التظليل وأرسل إلى موسكو مقترحات وأفكار انسيابية غير محددة. إن الحياة نفسها تطرح المسالة على المكشوف: أبيض أو أسود وعليك أن تحدد رأيك وتتخذ قرارك. وينبغي القول بصراحة أن من غير الشائع بل والمؤلم للغاية، في حياة الدبلوماسي من نموذج عصر خروشوف - بريجنيف، ان يتبنى قراراً وهو في موقعه. ويمكن ان يُمضي السفير فترة انتدابه لعدة سنوات، من دون أن يتبنى ولو لمرة واحدة في موقعه قراره الهام، أو أنه لن يتشاور مع موسكو - فهذه كانت دائما مجازفة أو خارج الموضة. وتميز بهذا أكثر السفراء في الدول الاوروبية،

حيث تقليديا كان هناك حاذقون، من المستحيل التفوق عليهم، حذرون واصحاب صياغات ذات فكرة مزدوجة، ويلعبون على النتيجة. بالطبع ان سياسة وزارة الخارجية هذه والخضوع التام للمركز، علاوة على أن عيون الكي جي بي المرتابة أبداً شددت القيود المفروضة، وأرهقت الكثيرين.

لقد جاءت ترقيتي الوظيفية دائما وأنا أخدم في البلدان التي تشهد حروب: الحرب الاهلية في اليمن والحرب مع الكرد في العراق، ومواجهة الأخوان المسلمين في سوريا. ولكن في ظل تلك الظروف، تريد أو لا تريد، غالبا ما يضطر رؤساء السفارات السوفيتية في تلك البلدان تبنى القرارات من موقعهم، والتعبير عن الرأي بوضوح ودقة، أكثر ما يميل له الدبلوماسي بطبيعته، بالمعنى التقليدي لهذه الكلمة. وعلى العموم فانني لا أؤيد أن يلقي الدبلوماسي على عاتقه تبني القرارات. وعلى الرغم من ذلك فان العلاقات مع الدول الأخرى ربما هي أكثر المسائل حساسية: يمكنك أن تتخيل ماذا سيكون لو تصرف جميع السفراء وفقا لذوقهم وتقديرهم. فهم لحد كبير ليسوا أبرياء وليسوا من دون عيوب. وفي الوقت نفسه تنشأ لدى السفراء، مع مرور السنين، عقدة الغرور بالنفس، والإسراف بالثقة بصحة قراراتهم والمغالاة بتقديرهم بصوابها. ولكن في الوقت نفسه ينبغي أن يكون عند السفير حدا اقصى معقولية من حرية اتخاذ القرار. بيد أن هناك حقيقة موضوعية: ان هذه (الاستقلالية) في زمن الاتحاد السوفيتي كانت محدودة.

وفي مرحلة حياتي البغدادية، لم أقبل ابدا في تقاريري الصيغ الانسبابية والغامضة. وكان من المهم لموسكو ان تعرف تقييمات السفير الحقيقية، وبأسرع ما

يمكن. ومن بعد قالوا لي في وزارة الخارجية، بانهم لاحظوا الدقة ووضوح الظلالات في التقارير، وكان واضحا ما يرمي إليه السفير أو ما يقترحه. ان زيادة حجم الرسائل العملياتية المتبادلة مع المركز، وبخاصة تسريع العمل (كانت موسكو طيلة الوقت تستحث) ادت بالضرورة إلى تركيز العمل في مكاتب المستشارين والمبعوث والسفير. وكان ترفا القيام بهذا العمل تدريجيا وعلى مراحل.

وربما أُجدد القول، بأني لحد الآن أحمد الرب والقدر على النجاح بإجلاء حوالي 8 آلاف شخص من بين الطابور السوفيتي من العراق وحوالي 800 من الكويت، من دون فقدان اي شخص. على الرغم من أننا سرنا احيانا، بالمعنى الحرفي للكلمة، على حافة الخطر.

وكان الظرف الذي أحاط بالرحلة الأخيرة أكثر درامية من بين العديد من عمليات الإجلاء التي جرت على مدى اشهر. فمهلة الإنذار الذي مُنح من قبل الأمريكان لصدام حسين انتهت في 15 كانون ثاني/يناير، ونحن، على صعيد ترحيل مواطنينا، لم نتكيف مع هذا الجدول. لذلك تم طلب تسيير رحلة طائرة من موسكو في 16 كانون ثاني/يناير. وينبغي الاعتراف أن هناك القلة ممن كانوا على ثقة بان أمريكا ستباشر القصف فورا بعد انتهاء موعد الإنذار. مثلا ساد رأي مفاده أن واشنطن عقدت الآمال على أن اقتراب نهاية مهلة الإنذار، ستضغط بحد ذاتها على صدام وانه سيستسلم آجلا أم عاجلا. وفي كل الاحتمالات لم يكن لدينا خيار آخر، فطلبنا رحلة أخرى. وأَبلغَنا ممثل شركة الايروفلوت في بغداد كيريتشنكو فجأة، ان الجانب العراقي رفض منح الموافقة على تحليق

طائرتنا وهبوطها في بغداد. وخلق هذا لنا وضعا رهيبا، ففي هذه الأثناء بقي في بغداد حوالي 130 شخصا، اغلبهن من النساء اللواتي كان علينا بالطبع ترحيلهن للاتحاد السوفيتي. ولم يتبقَ سوى الحصول على موافقة موسكو لترحيلهم في حافلات نقل ركاب كبيرة إلى الأردن في 18 يناير. (وكما ظهر فإن هذا كان اختيارا مستحيلا). وفي غضون عدة ساعات افلحت موسكو مع سفارتنا بعَمان بالعمل على التفاصيل، وابلغتني بالموافقة. وبدأنا نُحضر قافلة الحافلات، على الرغم من أن هذا لم يرق لنا. وفجأة غيّر العراقيون قرارهم ومنحوننا الموافقة على استقبال الطائرة في 16 يناير. واشيرُ إلى انه كان يجب ان يسافر في هذه الرحلة الكثير من موظفي السفارة، بما في ذلك عدد من النساء المتبقيات. وبعد ان تواعدتُ مع الجميع في المطار، ذهبت إلى البيت، وفجأة في الساعة 17:30 اتصلت بي من المطار زوجة الملحق كريفوشييف، وابلغتني ان رجال الجمارك العراقيين اثاروا مشكلة جديدة وتوقف كل شيء، ولا يسمحوا للطائرة بالإقلاع. بالطبع لم أعرف ما سنواجهه في الساعات القليلة القادمة، ولكني رحت باندفاع اتصل بنائب وزير الخارجية، وبمساعدي طارق عزيز، ومن ثَمَّ أفلحت بالحديث مع النائب الأول لوزير التصنيع والإنتاج العسكري - وكان هذا عسكريا نافذا، ووعدني بانه سيقدم المساعدة على الفور. وأخيرا اقلعت الطائرة في حدود الساعة 8:30 مساء، قريبا من التاسعة. وبعد ذلك فقط فكرتُ برعب بانه حينما غادرت طائرتنا المجال الجوي العراقي وعلى متنها أكثر من مئة راكب، اتجهت نحو بغداد في هذا الوقت من كافة الاتجاهات طائرات دول التحالف المناهض لصدام. ولو انها لم تقلع،

وظلت في المطار، لقُتل جميع ركابها، لأن المطار تعرّض لضربة في أول غارة. ولم يهتم الأمريكيون ابدا بمثل هذه التفاصيل.

وبعد ان شعرت بشيء من الهدوء، ذهبت إلى البيت وقُبيل النوم جلست اقرأ. وفي حوالي الساعة 12 اتصل بي المناوب في السفارة وقال يطلبون مني الالتحاق فورا بالعمل. ومن دون ان ابدل ملابسي ذهبت بسرعة إلى السفارة. (وبقيت على هذه الحالة عدة أيام بملابسي المنزلية التي جئت بها للسفارة، وحتى إن تمكنت من اخذ بعض الملابس من البيت). أطلعني ممثل وزارة الدفاع تسوكور على برقية استلمها من رئاسته، يظهر منها ان الغارة الأولى على بغداد ستجري في الثانية ليلا. وحضر للسفارة العميل المقيم للكي جي بي. ولم تكن هناك معلومات بصدد الغارة المرتقبة بخطي ولا بالخطوط الأخرى ما عدا العسكري. ولحد الآن أستغرب لماذا لم ترسل وزارة الخارجية مثل هذا النبأ، ولو قبل ساعة ونصف. فكما يُستفاد من مذكرات المشاركين في الاجتماع الليلي عند ميخائيل غورباتشوف، انهم عرفوا قبل عدة ساعات عن إنزال الضربة ببغداد. (وليس من الصدفة اني اتحدث عن هذا. فلم اثق للنهاية بالمعلومات التي استلمتها من الجهاز العسكري، مُرجحاً أن موسكو ستبلغني بكل ما لديها من معلومات. ولم أشك في أن الولايات المتحدة الأمريكية ستقوم بابلاغنا عن بدء العملية). إني لا أتهم زملائي في وزارة الخارجية. فالمسألة تقررت من قِبَل أعلى مستوى، وتجلى هنا تأثير عدم كفاءة الرئيس السوفيتي السابق ميخائيل غورباتشوف ودائرته، إذ لكان بوسعنا جمع الناس وتكييفهم نفسيا، وتحذير الخبراء الباقين في بغداد. وربما لم يثقوا بموسكو بنا وبي شخصيا، واعتقدوا باني سأبلغ الجانب العراقي، لذلك لم يبلغوني. لا أستبعد هذه

الفرضية. نظرا لوقوع ما يشبه هذا - ففي ذروة الازمة في الخليج عزل شيفرنادزه رئيس الإدارة التي انشغلت بالازمة هذه فلاديمير كولوتوشا، من قراءة البرقيات الأكثر أهمية، مشككا في (ولاء) مرؤوسه.

عقدنا اجتماعا قصيرا وتأكدنا أن الجميع في اماكنهم، وقررنا أن لا نُقلق احدا، وأن نكون نحن على استعداد. وفي الساعة 2:00 بالضبط بدأ القصف. وتدفقنا كلنا إلى الفناء وشاهدت الصورة التي ادهشتني، ويا للمفارقة، بجمالها. غطت السماء نيران متعددة الألوان، لقد كانت اقوى العاب نارية اتيح لي رؤيتها. ويفسر سر الاعجاب هذا جزئيا بطرح أحد الحاضرين العسكريين فرضية مفادها ان العراقيين قرروا اجراء تدريبات عامة لمعرفة مدى استعداد السكان. ولكن سرعان ما حلَّ محل التأمل الشعور بالارتباك والخوف. بالرغم من ذلك ينبغي الاعتراف (ومن بعد، اكد هذا زملائي كافة) أن احدا لم يتوقع ان الغارات على العاصمة العراقية ستكون بهذا النطاق والمدى. واخيرا راح الناس يتجهون نحو (الأنبوب) - اي الملجأ، الذي قمنا باعداده بأنفسنا، والذي امضينا فيه من بعد ذلك ساعات وأياماً طويلة.

وجاء -كما يبدو - دور الحديث عن الحكاية الغريبة لهذا المبنى. ان فكرة الملجأ لم تكن جديدة في السفارة. وعلاوة على ذلك كنت غالبا ما اسأل قدماء السفارة، لماذا لم يبنِ السفراء الذين سبقوني خلال حرب العراق مع إيران التي استمرت 8 سنوات طويلة ملجأ مقبولا ولو صغيرا. ولم يقل أحد لي شيئا واضحا. ومنذ اغسطس، أي بداية مغامرة صدام الكويتية، عدت ذهنيا مرات عديدة لهذه

الفكرة، وعرضها علي مستشاري كوزمين. وقررت عدم الاستعجال بها، لأنه إذا عرف آلاف الخبراء الذين ما زالوا في العراق، عن بناء ملجأ في السفارة فستنهار معنوياتهم، بعد ان تمكّنا من وضعهم تحت سيطرتنا. ولكن في ديسمبر غالبا ما كنت امعن في فكرة الملجأ. واكد لي الكسندر كوزمين، أنه يمكن من الناحية الفنية تنفيذ هذا في غضون عدة أيام. وفي منتصف ديسمبر، ولأسباب شخصية سافر مساعدي كوزمين إلى الاتحاد السوفيتي وعاد إلى بغداد في 9 كانون ثاني / يناير فقط. (وكان بوسعه ان لا يعود ابدا لعدم وجود تذاكر للسفر على رحلات الطائرات الفارغة إلى بغداد. فكمبيوترات مكاتب بيع التذاكر العائدة للايروفلوت بُرمجت على الرفض التام، مما جعل محاولة العثور على التذكرة مسألة عبثية). والتجأ الكسندر ايفانوفتش إلى الأسلوب الشرقي المعتاد الذي يعمل بلا عطل (أسلوب الهدايا) كما أُتفق على تسميته، وحصل على تذكرة ووصل بغداد عشية الحرب. وكان هذا أيضاً من حسن حظي. فكان من الصعب عليّ التحرك من دون كوزمين. فإلى جانب اتصافه بالتشتت وعدم ضبط النفس، كان شخصا طيبا ومنحني راحة البال والهدوء.

وبحلول ذلك الوقت اضطررت للاستعجال، واتخذت القرار بشان قضية الملجأ. استدعيت سكرتير اللجنة الحزبية وطلبت منه ان يترأس على جناح السرعة اعمال بناء الملجأ. وانطلقت من أنه اقرب إلى الخبراء الذين ما زالوا في العراق في تلك الأثناء، ويتمكن على الاغلب الاتفاق معهم بصدد العمل، والحصول على المواد والتنكلوجيات. واخطأت بذلك. ففي العاشر من يناير اخذت معي كوزمين، وذهبت لاستلام العمل. وظهر مشهد عبثي أمامنا. فقد حُفر خندق من غير اعتناء

ولا اكتراث خلف فناء السفارة بـ 3/2 طول الإنسان، لذلك فعلى الشخص ان يقف منحنيا أثناء القصف. ونشأت في قاع هذا الخندق بركة ماء. (يهطل احيانا المطر في بغداد في كانون الثاني /يناير، وتنخفض درجات الحرارة ليلا إلى 2 و3 تحت الصفر). وقد كنت مستغربا ومبهوتا من الانجاز الجديد لقائدنا الحزبي، إلى درجة تمتمت بعبارات بذيئة، ومن ثَمَّ كلفت فورا كوزمين ان يأخذ على عاتقه إعادة بناء الملجأ. وغالبا ما استهزء الـ 13 شخصا في زمن الحرب بآخرما اجترحه الحزب الشيوعي السوفيتي من منجزات.

إن الكسندر ايفانوفيتش كوزمين شخصية متناقضة جدا، ويخلق لدى الناس مختلف المواقف منه، ولكن لكونه بنى في غضون أربعة أيام ملجأ، ينبغي إقامة تمثال له. تم جلبَ من مكان ما انابيب طولها 6 امتار (2,2 متر بالعرض) وحُفر خندق، وهناك وضعت الأنابيب وجرى توصيل بعضهما بالآخر وتغطيتها بالتراب، وجهزوا داخل الأنبوب بالمساطب، ووفروا الاتصالات الهاتفية مع مبنى السفارة. وبالطبع فان الملجأ لا ينفع في حال التعرض لضربة مباشرة. (وقد سخر الخبراء منا بعد ذلك)، ولكنه حمانا من الشظايا، والمسالة الرئيسية منح الناس الشعور بالأمن، لأن مبنى السفارة اهتز وتصدع عند القصف، وساورني مرات عديدة الشعور بعدم الارتياح، حينما اهتز المبنى من شدة الانفجارات بصورة محسوسة.

وبالمناسبة فان موقع مبنى سفارتنا ببغداد غيرموفّق من الناحية الجغرافية، فهو قرب مطار المثنى الحكومي، الذي يقصفه الأمريكيون يوميا، أو بالاحرى كل

ليلة. وبالذات طارت إلى هناك في المرحلة الثانية من الحرب قنابل كبيرة تزن حوالي ثمانية اطنان، وكان شعور خوف حيواني يساورنا عندما اهتزت الارض، وكنا نجلس على الارض: انه زلزال أرضي صغير ركبنا هلع داخلي منه، لأن الارض تجسد الاستقرار والثبات. وغير بعيد عن السفارة، قريبا جدا حيث كنت اقيم قبل الحرب، كان مبنى دائرة الأمن العامة، التي (أولاها الأمريكان اهتماما خاصا) كل يوم. ولم يتصرف (عناصر الامن العراقي) بشكل معقول، فهم على وفق البعض، كانوا يأتون كل صباح إلى هذا المبنى، ويسحبوا شيئا ما، وينقلوا موادا وهم في حالة هياج. لذلك فان التجسس والاستطلاع الأمريكي الجوي، الذي كان يقوم عدة مرات باليوم بالتقاط صورة لبغداد ويسجل مجددا هذا الموقع، فتقصف المقاتلات في المساء المبنى مجددا. وليس بعيدا عنا كان مركز اتصالات عسكري مهيب. تمت تصفيته بعدة صواريخ موجهة.

يتحدث الكثيرون بعد الحرب عن سقوط الصواريخ الأمريكية بدقة. وتعجز الكلمات عن وصف ذلك، لقد سارت الحرب باسلوب جديد، وعلى مستوى ارفع. وبصراحة ان الصواريخ مدهشة. وتسنى عدة مرات رؤيتها بالعين المجردة، نظرا لأن الصواريخ حلقت وهي تقترب من الهدف بسرعة 200 - 250 كم في الساعة. انها ذكرتني باسماك قرش البحر تمايلت بتوازن في الفضاء، مع انارة انفجارات القذائف من رماية الدفاعات المضادة للاهداف الجوية العراقية المسعورة. ان أكثر المشاعر غير السارة والشريرة التي بقيت معي، نشأت من إن الصواريخ لاحت وكانها كائن حي، إنها تحلق وكأنها تتطلع إلى الهدف المحدد وتتبعه.

ان جوهر المسالة يكمن في جهاز الكمبيوتر المبرمج المتطابق مع الصور - الواقعية، الذي حُمل في تصميم الصاروخ.

وصاحب طائرات التحالف والصواريخ المنطلقة اصوات مميزة. فحين تتطلع من النافذة وترى الطائرة فبوسعك تسجيل لحظة انفصال الصاروخ عن الطائرة وفحيح صوت تحلقيها اللاحق. ولكن حقائق الواقع لا تسمح للقول بدقة اصابة الصواريخ اهدافها مائة بالمائة. فكانت ضربات بالمباني السكنية. على الرغم من أنها غير كثيرة، وبدلا من الجسور جرى ضرب الصواريخ للمباني بساكينها، واسفرت الغارات على الفلوجة مثلا عن سقوط عدد كبير من الضحايا. واشير إلى الكثير من الفرضيات بشأن قصف الملجأ في حي العامرية في بغداد، حيث لقي 200 شخصا مصرعهم. ودعاني سفير فلسطين عزام أحمد إلى هناك. ولكن اعصابي كانت مشدودة لأقصى حد، وخشيت من الانهيار. فلم اذهب. خليط ممتد من اشلاء ممزقة من الا بدان البشرية، صورة مرعبة. واصابت الصواريخ ساحة السفارتين البلغارية والافغانية. ووقعت الصواريخ من دون ان تنفجر على مبنى أُستخدم قبل الحرب بمثابة فندق مؤقت لخبراء النفط السوفيت. وسمي (بورفيك). وبالمناسبة فقد تسنى لي ان اسمع في مكان ما، وكان لدى دول التحالف مدرجا غير مُعلن من زاوية مدى اصابة صواريخ كل دولة للهدف: شغلت الولايات المتحدة فيه المرتبة الأولى ومن ثم انجلترا وكانت الصواريخ الفرنسية تسقط بشكل عشوائي.

ولكن من السهل مناقشة دقة الصواريخ الآن، من على بعد، ومن قبل من لم يجلس في مبنى السفارة في بغداد - في شباط/فبراير عام 1991! وفيما تجادل الخبراء حول الاخطاء المؤسفة بل المأساوية في اختيار الصواريخ للهدف، راحوا يقولون ان الصواريخ المبرمجة التي تتجه نحو اهداف أخرى يمكن ان تستجيب لإشارة حرارية أو موجة راديو من الارض. ولحد الان لم افهم لماذا لم يخطرنا الخبراء من موسكو عن هذا. ففي نهاية المطاف هذا ليست بمعرفة فنية رفيعة. وتوصلنا تدريجيا إلى استنتاج مفاده ان سقوط الصواريخ على السفارة البلغارية كان بسبب الإشارات الحرارية المنطلقة من الارض، حيث اشتغل لديهم جهاز يعمل على الديزل أثناء القصف. وحقا كانت هناك حالات حينما تعيّن عليّ منح الموافقة لمواصلة العمل لنقل معلومات عاجلة وملحّة لموسكو حتى أثناء القصف الصاروخي.

في ليلة 16 على 17 كانون الثاني/يناير بقينا في بغداد حوالي 100 شخص، وطرحت حصرا بشدة قضية ترحيل الناس. وما إن تمكنت من تنفيذ تكليف المركز بصدد نقل رسالة إلى القيادة العراقية التقيت (بطارق عزيز)، ذهبت مع السائق إلى الملحقية التجارية، حيث كان يُقيم المواطنون السوفيت، ومررت بالمنازل، حيث بقي بعض الخبراء. وأود التوضيح أن الخبراء بقوا على وفق مذكرة خاصة وقعناها مع الجانب العراقي - مقابل سفر الجميع - كان يعني أن يبقى في العراق 150 شخصا لغلق وصيانة المنشآت. وأخذنا من كل شخص من المتبقين تعهدا خطيا بأنه يبقى بصورة طوعية.

واصبح جليا للجميع في صباح السابع عشر بانه ينبغي ترحيل الناس وبأسرع وقت ممكن. وعلى وجه الخصوص اثارت حالة الخبراء قلقي. ظهروا مرتبكين للغاية، لا سيِّما وقد كانت على جدران المباني السكنية والسيارات اثار سقوط الشظايا. وطالب الكثيرون بصوت عالٍ ترحيلهم على جناح السرعة إلى بلدهم. ولم تتشكل في ذلك الصباح خطة عملية لكيفية ترحيل الناس، ولكن كان هناك فهم واضح، بان هذه هي المهمة رقم واحد. وتم اتخاذ قرار آخر، ترحيل أول وجبة من المشمولين بالعودة للوطن إلى قرية خبراء البناء في اليوسيفية (48 كم عن بغداد) حيث اقام الخبراء السوفيت. فهناك لا توجد مواقع عسكرية، ولاح الوضع أكثر هدوءاً. وفيما جرت عملية تنظيم وثائق السفر (وتجدر الاشارة إلى ان العراقيين اتخذوا موقفا متعنتا من تنظيم وثائق السفر في كافة المراحل وحتى إلى نهاية الحرب)، واعداد الحافلات وتنسيق الطريق الذي ستسلكه مع موسكو، فقد استطعنا ترحيل هؤلاء الأشخاص إلى اليوسفية، ومن هناك، ومن دون المرور ببغداد، سافروا في قافلة طويلة إلى إيران. وكما اتضح فيما بعد فان سكرتير اللجنة الحزبية ومجموعة من المتفقين معه انشغلوا عند الوصول لليوسفية، باحتساء الخمر واخذ الحمام، واشتروا المواد الغذائية لنقلها للاتحاد السوفيتي، وبقدر ما ان العراقيين لم يسمحوا عند الحدود، بخروج المواد الغذائية، فقد تم رميها، بدل ان يرسلونها لنا في بغداد. بالطبع لم نفهم مطلقا هذا النمط من السلوك، فضلا عمّن قام به!

ولكن بعد مغادرة هذه المجموعة الكبيرة لم يبقَ أكثر من 60 شخصا. وفهمنا نحن وموسكو أن هذا عدد كبيرا، وأثرت على الوضع العديد من الاعتبارات مثل تنافس المؤسسات الناشطة تحت سقف السفارة، حيث إن كل واحدة منها

ارادت ان تحتفظ ببغداد بأكبر عدد من ممثليها. وجوبهت اقتراحات تقليص منتسبي جهاز الكي جي بي والدفاع بمقاومة شرسة. وكان هذا غريبا، لأنهم لم يقدروا خطورة التطورات والأحداث المقبلة. ومن جانبي لم اقم بترحيل قسم من منتسبي السفارة الفنيين، لإدراكي انهم سيكونون أكثر فائدة من الدبلوماسيين في المرحلة القادمة. فضلا عن ذلك نفذ وبسرعة لدينا الماء والمواد الغذائية ونفذ على وجه الخصوص البنزين. وحل محل المزاج المهتاج في الساعات والأيام الأولى وعدم رغبة (الرجال) اظهار مشاعرهم الطبيعية امام الآخرين، تدريجيا التعب وعدم فهم معنى استمرار البقاء ببغداد. وأعرب عدد متزايد من المتبقين عن قلقهم ومخاوفهم، وراح الخوف يتسلل إلى الجميع من دول متفرقة وبغض النظر عن أية نجوم يعلقها هذا الشخص على كتفه، أو على الاجمال كان يعلق النجوم على كتفه أم لا. ولن أقول أن الجيش أو ممثلي الكي جي بي كانوا أكثر جرأة وأكثر تماسكا وثباتا من المدنيين. لقد لاح ان كل شيء مُستعص وفردي. وسعى البعض بصراحة بالعودة إلى الوطن، وسعوا عمليا لعدم الخروج من الملجأ. وأدهشتني صلابة الروح المعنوية لبعض المدنيين. لا أود ان اجرح مشاعر العسكريين. ببساطة: إن المعطف على الكتف ليس مقياسا للشجاعة، فهنا تعمل اختبارات أخرى. وبما ان الظروف وضعتني على رأس هذا التجمع الصغير، كان من السهل علي نسبيا التغلب على المشاعر الشخصية، لأنني ادركت أن الكثير يعتمد على مزاجي وحتى على مظهري الخارجي. ولكني أقول بصراحة انني لم انسب نفسي للناس الشجعان. وأتذكر كيف في 17 كانون الثاني/يناير أول صباح لهذه الحرب القصيرة، دخلتُ الأنبوب حيث لبدَ الجميع أثناء القصف الجديد.

واخبرني المناوب الذي داوم في السفارة، ان سيارة عراقية جاءت من اجلي، وان طارق عزيز بانتظاري. استمر القصف، وبشدة لم اكن ارغب بالذهاب، ولكن تطلعت نحوي 120 عينا متعطشة. وتعين علي التوجه نحو الباب بهيئة مبتهجة، والتلاطف فِي الكَلاَم مع البعض. ومن ثَمَّ ادركت ان (السفير المفوض فوق العادة) تعني بالضبط ما يلي (ان مسؤوليته اكبر)!

وعلى هذا الشكل بقينا مجموعة صغيرة، وكان غير واضح، ما إذا كان ينبغي اعداد دفعة أخرى للسفر. وتدريجيا تنامت وجهة نظر أخرى مفادها ان يرحل الجميع فليس ما يمكن عمله هنا، والوضع خطر جدا، والفائدة قليلة. وتجدر الإشارة إلى ان اتصالاتنا في هذه الأيام مع الجانب العراقي بلغت الحد الأدنى. لقد خطفت الحرب كل شيء، ولا شأن للعراقيين بنا، وتشكل وضع جديد تماما لهم. وانا على ثقة بانهم أيضاً لم يتوقعوا مثل هذا النطاق للتطورات، وكانوا مصعوقين، بمحصلة غارات الأيام الأولى الساحقة، حينما أصبحوا من دون اتصالات، وبالكامل تحت غطاء قوات التحالف، ولم يكن بوسعهم ان (يبرزوا أنوفهم). وفي ظل هذه الظروف وبخاصة تحت ضغوط تكثيف الغارات، نشأ بالطبع الميل نحو الرحيل. وظهر في هذه الأثناء العامل الإسرائيلي في النزاع. ويمكنني التأكيد ان مواطنينا ادركوا بعد مضي عدة أيام ما ينبغي عليهم العمل كي لا يعرضوا أنفسهم للخطر، وتحرروا بعض الشيء من الخوف، وبكلمة واحدة حينما غدت الغارات يومية، فان الخشية من الانتقام الإسرائيلي على الصواريخ التي اطلقت على تل ابيب احتلت المكانة الأولى.

وتزايد الرعب لدينا أكثر من احتمال انتقال هذا الجانب من النزاع إلى مستوى (غريب وغير مأنوس) بسبب ما تناقلته وسائل الاعلام العالمية من توقع بان إسرائيل سترد بطريقة غير تقليدية، وانما بصورة غريبة وغير مأنوسة، وفهمنا من هذا التعبير (اللطيف) بان بوسع إسرائيل الرد بقصف نووي قوي، ولا سيِّما لو ان صدام يستعمل الأسلحة الكيماوية. وتوقعنا قيام العراق بهذه الخطوة، لورود معطيات عن ان الرئيس وباعتباره القائد العام للقوات المسلحة، منح صلاحيات لقيادات الفرق استعمال الأسلحة الكيماوية على وفق تقديراتها، في حال نشوب وضع حرج. ولم أعرف لحد الان الأسباب التي دفعت القيادات العسكرية العراقية الامتناع عن تنفيذ تلك الخطط. اعتقد بتحرك عامل الخوف من أن الأسلحة ستعود ضد العراقيين في ظل ظروف التنقلات السريعة للقوات العراقية. وأعتقد ان التحذير الأمريكي من أنه سيتم ملاحقة كل من سيسمح باستعمال الأسلحة الكيماوية باعتبارهم مجرمي حرب ويسلمون للمحكمة الدولية، عمل عمله في الوقت المناسب.

وحينها لم نتصور أن الكيماوي لن يستعمل، بينما أججت المعطيات التي استلمناها المخاوف. وبكلمة واحدة جاءني في المساء عميل الكي جي بي والمستشار - الموفد. وتحدثنا طويلا في ضوء الشموع. واعلنوا بقوة عن ضرورة طرح قضية رحيل الجميع فورا. وحاولت العثور على براهين لصالح ان إبقاء البعض منا - ليس بدافع الشجاعة، وانما للبحث عن رؤية موضوعية للقضية، فإلى جانب ذلك كانت لدي ثقة خفية بان حكومتنا تحتاجنا هنا. ولم يكن اي برهان قوي لدى محدثي - ورددوا فقط: حياة الناس، ولكني أعرف بنفسي المعيار الثقيل

لهذه الحجة. تجادلنا طويلا وبحثنا عن المدخل اللازم لكتابة برقية مشتركة. واخيرا استسلمت، بيد أني وضعت شرطا بان اضع في نهاية البرقية اضافة باسم السفير: اقتراح بإبقائي مع ادنى عدد من الموظفين، مع السماح بالذهاب إلى خانقين، المدينة التي تبعد 150 كيلومتراً عن بغداد إلى جهة الحدود العراقية - الإيرانية، والسفر المستمر لبغداد. وافق زملائي، وافترقنا ونحن على ثقة تامة بان علينا غدا الاستعداد للرحيل. وتجدر الاشارة إلى ان عشية ذلك وردت برقية من الكسندر بيلونوغوف، تتضمن طلبا بعرض كافة الخيارات المحتملة، من دون استثناء اجلاء السفارة.

وكما اخبروني بعد ذلك، فان وزارة الخارجية والكي جي بي كانوا على العموم إلى جانب ترحيل السفارة باسرها، خوفا على الناس. وفي هذه الأثناء تدخل وزير الدفاع يازوف، الذي راح بحماسة يبرهن لميخائيل غورباتشوف على أهمية ان يكون لدينا أشخاص في بغداد. وأمر غورباتشوف (بدراسة) هذا الخيار لإبقاء البعض منا. ولم يعترض عليه أحد، لذلك استلمنا في اليوم التالي أمرا بتحضير غالبية الأشخاص للرحيل وابقاء 11 شخصا فقط: اثنين من وزارة الخارجية واثنين من الكي جي بي وأربعة من وزارة الدفاع اضافة إلى ثلاثة من عمال الاتصالات (واحد من كل جهة).

واود الاشارة إلى ان من الجلي ان هذه العملية الحسابية الواضحة حددت مدى المسؤولية التي وقعت على عاتقنا كمؤسسة. وبحق كما في سفينة نوح (من كل زوجين اثنين) وفيما قرر رؤساؤنا في موسكو مسالة قوام المجموعة، فانهم حكموا علينا مقدما بالفشل، لأنهم لم يمعنوا التفكير بانهم يبقون في بغداد الموظفين وحسب. فتبقى الحاجة لشخص لصيانة المبنى ولو بصورة أولية وتعبئة المولد

الكهربائي بالوقود وتشغيله وتصليحه، ورعاية السيارات وحسم مئات القضايا الملحة المتعلقة بتجهيز السفارة المعقد والضخم.

وتعين علينا ان نطلب بقاء العامل المؤهل ايجور فيلين. وادركنا بعد ذلك في حال ان يقوم عمال التشفير بالمناوبة في مكاتبهم التي تعتبر بمثابة (مكان مقدس) للسفارة، فاننا لن نواصل العمل طويلا لأن الاتصالات لن تكون منتظمة. نظرا لأنهم كانوا يعملون على مدار الساعة تقريبا وانهاروا من شدة الارهاق. وطلبتُ ابقاء جيني بيستروف كمناوب. وتحدثت مع الجهتين بنفسي، وتفهما الوضع وافقا على الرغم من أنه لو كان آخرون في مكانهم لما أعطوا موافقتهم على ذلك. وبالمناسبة فحينما بقينا 13 شخصا، ادركنا بان هذين الشابين الروسيين. كانا تقريبا اعضاء رئيسيين في طاقمنا. وعلى كل حال فان بقائنا على قيد الحياة اعتمد عليهما. واظهر فيلين انه مَعَلِم ماهر بما في ذلك بالحصول على الماء ولو بكميات قليلة، حينما لم يكن عملياً ماءً في المدينة، وتصليح الماكنة، واعداد الطعام. ومن ثَمَّ قلت على سبيل المزاح انه يشبه: «فلاح الكاتب شيدرين الذي اطعم جنرالين».

وجرى تحديد المتبقين بسرعة فائقة. من وزارة الخارجية، بقى معي الكسندر كوزمين، الذي وافق على البقاء معي من دون مقدمات ولا تفكير. وبقى من بين عاملي الاتصال الأكثر شبابا مارات سيرجيفيتش كولومين، الذي أعتبره بطلاً حقيقيا في هذه الملحمة. نظرا لأن كافة الاتصالات تقريبا جرت ليلا ونهاراً من خلال وزارة الخارجية، ووقع عليه حجم كبير من العمل، بغض النظر عن وقت اليوم - نهار وليلا. انه شاب متفان وناكر للذات وموظف ذو كفاءة

مهنية. ولكن للاسف حينما حان وقت استلام الأوسمة منحوا مارات ميدالية وزارة الاحوال الطارئة وحسب، على الرغم من أن زملاءه من اجهزة القوة استلموا وسام النجمة الحمراء. واستلم المستشارون من اجهزة القوة أيضاً أوسمة ارفع من وسام الكسندر كوزمين، الذي كان قسطه في عمل السفارة ليس بأقل منهم، وكم من مرة جازف بحياته بكل معنى الكلمة! يبدو ان أشخاصا كانوا في قسم الأوسمة بالكرملين، يعرفون ويفهمون أكثر منا، نحن البسطاء من سواد الشعب!

الحرب هي تلك البوتقة التي جعلتنا نتقارب، وتصرف الجميع بشجاعة وبسالة، وساعدوا بعضهم البعض الآخر. باستثناء شخص واحد، لن اذكر كنيته - تحرك بمفرده، واهدر البنزين والمواد الغذائية، دون ان يعود بفائدة. حتى إن يفغيني بريماكوف اقترح علي في زيارته الثالثة ان ياخذه معه، ولكني لم ارد ان أفسد عليه حياته المهنية. لم اقرأ ما كتبه زملائي العسكريون، مثلما انهم لم يقرؤا تقاريري، بيد انني شعرت ان صيغة 2 - 2 - 4 لم تبرر نفسها. ويبدو ان موسكو اعتقدت ان الاتصالات الرئيسية الصعبة ستقع على كاهل الملحق العسكري. ولم يحصل بهذه الصورة، فقد وقع كل شيء على كاهلي، بالرغم من أن علي ان أقول أكثر كلمات المدح والثناء بحق الملحق العسكري فيكتور باتساليوك. ووقع في نهاية الحرب حادث حينما جرى تنسيق تفاصيل لقاء ممثلي الجانب العراقي والعسكريين الأمريكيين، اقترح العراقيون التوصل إلى نهاية الاتفاق من خلال الملحقية العسكرية، وقد دعمتُ ذلك. بيد ان موسكو لم ترد على هذا المقترح ولا على وجهة نظري، وواصلت ارسال تكليفاتها إلي بالذات، مقررة عدم انتهاك القواعد المتبعة.

نحن والعراقيون: اختبار المشاعر

من الصعوبة حصر حالة العراقيين وعلاقاتهم بنا في تلك الأيام المضطربة والمجنونة، في اطار مشترك عام. كانوا في غالبيتهم العظمى في حالة انقباض وخائفين على أنفسهم وعلى أطفالهم. ترك 70 - 80% من سكان منطقة المنصور الراقية وغيرها منازلهم. وتسكعت كلاب كثيرة، وكان سلوكها عدوانيا. لمعاناتها من الجوع، (ان الكلاب العراقية عادة لا تستجيب للتمر، ولكنها تعلمت اكله). وكانت منطقة مقر اقامتي خاوية تماما، وبقي اثنان أو ثلاثة من الجنود العراقيين في نقاطهم لحراسة المقر. وقد أمضهم الجوع، وامضوا غالبية الوقت في الشارع، ولاحوا منهكين وظهر في عيونهم الرعب. وذهبت عدة مرات من السفارة إلى مقر اقامتي لأرى كيف تسير الأمور هناك. وظهر لي ان هولاء رجال شجعان، ادوا الخدمة بصورة ممتازة، ولم يمسوا المقر، بالرغم من أن السرقة وقطع الطرق انتشرت في المدينة خلال الحرب. وسُرقت بعض الممثليات الدبلوماسية. واكد السفراء ان الحراس كان لهم ضلع بذلك.

ومن الأحداث غير المريحة التي تعود للذاكرة، تلك التي وقعت عند أول زيارة لي لوزارة الخارجية العراقية بعد بداية الحرب. ففي ليلة 16 على 17 يناير حين

جرت أول غارات شاملة على بغداد، وتم حتى الصباح إجلاء كافة الوزرات النافذة من مبانيها. وفي الصباح الباكر حينما كنا مصدومين ولم نستجمع انفسنا بعد الغارات، وانتابتنا مشاعر فظيعة، وفيما نحن نفكر ما العمل لاحقا، وصل أمر من موسكو بإجراء لقاء فوري مع أحد ما من كبار مسؤولي وزارة الخارجية ونقل تصوراتنا للجانب العراقي، بالدرجة الأولى نصيحة بالخروج حالا من الكويت. ورايت ان من غير الممكن ارسال شخص ما للاتفاق على اللقاء، فقد يحدث له شيء ما لا سامح الله، وقررت ان اذهب بنفسي واصطحبت معي الملحق فيكتور كريفوشييف والسائق بوريس يامولاتوف.

وألاحظ بشكل عابر، انني لا أود القول ان علاقتي لحد الان مع هذا السائق لم تترتب، ولكن لم تكتسب دفئا إنسانيا طبيعيا ضروريا بين أشخاص يمضون وقتا طويلا في صالون سيارة. ولاح لي انه شكس ويميل للخصام. وتجدر الاشارة إلى ان يابولاتوف ظهر في تلك الأيام الحرجة وحتى رحيله في 28 كانون الثاني/يناير، انه رجل شجاع وحتى مساعد يبدي كثير العناية والاهتمام. علما بأنه أدى كل شيء بصورة طبيعية لا مبالغة فيها، وغالبا بصمت. وأشعر له بالامتنان لحد اليوم. وحينما رجع بعد الحرب - وبطلب مني - نشأت بيننا ظاهريا علاقة شائكة. اما بسبب ان طبعي كان غير مناسب أو لأنه كان (قط مشاكس بطبعه). وفي حقيقة الأمر ان هذا لم يعقنا، فقد عرفنا وفهمنا بعضنا الآخر.

وصلت مع كريفوشييف إلى وزارة الخارجية وقمنا بجولة في جميع الطوابق، فلم نعثر على أحد في المبنى ذي الطوابق الكثيرة. وبعد فترة من الزمن عثرنا في نهاية المطاف في الممر المؤدي إلى مكتب طارق عزيز على جنديين شابين ناعسين

ومبهوتين مما يدور حولهما. وبالرد على جميع اسئلتي (وقفا صامدين) وامتنعا عن المساعدة بشي، ومن الواضح انهما كانا مدربين تدريبا صلبا على كيفية التواصل مع الاجانب. وارسلت فيكتور ليواصل البحث في المبنى، وبقيت انا مع الجنديين. وبغتة تناهى لي من نهاية الممر صوت كريفوشييف الخائف بشدة: (غاز غاز) ومباشرة تسرب تدريجيا من نافذ مفتوحة غاز سام اصفر، ذو لون وسخ. وفي نهاية المطاف هرع فيكتور في الغرفة وهو يصرخ على ما يبدو ان هجوما بالغاز بدء وينبغي اتخاذ التدابير. واستل الجنديان الحارسان فورا من تحت السرير اقنعة ووضعاها على وجهيهما. وفيما سحبت من أحدهما قناعا صرخت في أذنه باني سفير سوفيتي مع مساعدي ونحن بحاجة لقناع واطلب المساعدة. واعلن الجنديان بفضاضة خشنة بأن نغادر المبنى حالا، وان لا تكون لنا قدم هنا. وأعترف باني لم اتوقع هذا من العراقيين. وليس بوسعي لحد الان ان افهم كيف حصل ذلك، فليس هذا من طبع العراقيين. ولم يظل امامنا سوى ان نهرع نحو السلم المظلم، وقد غطينا وجهينا بقمصاننا كي لا نتنفس الغاز. وكانت الكهرباء منقطعة وساد الظلام فضلا عن ان ركبتي راحتا تؤلماني (في العشية اصيبت قدمي). وقصارى القول هبطنا من الطابق الخامس إلى الاسفل طويلا وبصعوبة، واخبرنا السائق ياموبولاتوف بانه من المستبعد ان يكون هجوما بالكيماوي وانما هذا دخان تصاعد من المبنى الذي تعرض للقصف. وكان هذا في واقع الأمر. بيد ان الانطباع حول هذا الحدث، تمثل بشعوري ان شيئا غير مالوف جرى للعراقيين، ولم يغادرني هذا الشعور، وانا اتطلع لهم بعد ذلك، وفهمت: ان الحرب ليست علاجا وانما جراحة، وبوسعها ان تؤثر في الطبع الوطني وتغيره خلال مهلة قصيرة.

وكشخص راقب العراق وقيادته وشعبه على مدى أكثر من عشرين عاما، فان استنتاجاتي على وجه العموم تنحصر بان الحروب والنزاعات والمشاكل المستدامة في الأعوام 1960 - 80 مسخت جوهريا طبع العراقيين، وشوهته، وغيرته بالاتجاه الأسوأ وعَرَت تلك الصفات والمزايا التي كان من الممكن ان لا تظهر في وضع آخر. وتمثلت بالأنانية، بما في ذلك الوطنية المتطرفة، التي وصلت إلى منتهى التمركز حول الذات (حينما تعيش في العراق ترى ان العراقيين يؤمنون بان الكوكب الارضي باسره يدور حول العراق، وان جميع الأحداث التي تقع اما لصالحه أو ضده). وتمثلت أيضاً بالغدر والتشكيك، دعك عن ان كل حرب تشدد المقدمات الاستبدادية للنظام، وتدفع إلى الصف الأول ناساً يميلون للعنف يختالون بتفوقهم، ناساً بدائيين وماكرين ومعربدين بفضاضة. ويصبح ذوي الميول الديمقراطية، شخصيات لا حاجة بها. وإذا ما استمرت هذه الحروب والنزاعات لفترة طويلة، فبوسعها ان تحول الطبع الوطني نحو الأسوأ.

ومن المفارقات ان هذه الحرب لم تضف للعراقيين لا الشجاعة ولا القدرة القتالية. أو بالاحرى هنا تظهر قضايا حساسة كثيرة: ظهر العراقيون خلال الحرب الإيرانية - العراقية بصورة غير سيئة، على الرغم من أن الإيرانيين بشكل عام كانوا شجعان على الصعيد الشخصي، وراهن العراقيون على تفوقهم بالأسلحة والمعدات، وبالدرجة القوة الجوية. وحينما نشبت حرب جديدة على وفق عبارات صدام المزوقة (أم المعارك) فان العراقي تحطم وانكسر، وخانته الروح الكفاحية المطبوع عليها. ويمكن امعان التفكير بهذا.

وما يتعلق بنا، فقد احتفظ غالبية العراقيين تجاهنا بحسن النية. واتسمت علاقتهم بنا بالازدواجية المعروفة، أو القياس بمعيارين. فكانت العلاقات بنا، نحن الذين بقينا خلال الحرب ببغداد أكثر من ودية، اما حيال البلاد، الاتحاد السوفيتي - فعلى الأغلب - كانت عدوانية. وغدت كُنية شفيارنازه (وزير الخارجية حينها) مكروهة من قبل العراقيين، بسبب نهج الشراكة مع الولايات المتحدة الأمريكية، ورحبت بغداد باستبداله بالكسندر بيسميرتنيخ، بالرغم من أنهم لم يعرفوا تماما وزير خارجيتنا الجديد.

رأيت صدام حسين أثناء الحرب مرة واحدة، خلال لقائه ببريماكوف. وتخوف العراقيون من الذهاب بنا إلى أحد المخابئ، ومن الواضح انهم خشوا من تسرب المعلومات بطريق ما، عن موقع الملجأ، على الرغم من أن لدى صدام حسين كان العديد منها. واستقبلونا في أحد دور الضيافة، التي جرى بناؤها في نهاية السبعينيات، على أمل انعقاد قمة رؤساء دول عدم الانحياز. ولكن القمة لم تنعقد، وظل القصر لوقت طويل خاويا. وحينما وصلنا هناك، كان العمال يجهزون المولدة الكهربائية، واعدوا الدار للنسق العراقي الاعلى. وكان واضحا ان الجهات المعنية ابلغت فريق العمل بهذا التكليف ليس أكثر من قبل ساعة، حتى لا يكون بوسع أحد ان ينبه القائد العام لقوات التحالف شفارتسكوب بالاجتماع. ومشينا لمدة 15 دقيقة في غرف المبنى المظلمة، تصاحبنا الشموع. ومن ثَمَّ وصل صدام، وبعد عبارات ترحيب دافئ (تعانق مع بريماكوف، وكان هذا ايفاءً لعلاقات الصداقة السابقة)، وجلس، وبدأ أولاً بتوجيه سؤال لي: « كيف حال السفير، هناك نقص في الوقود؟ فافضل هدية في بغداد الان - غالون بنزين ». واختطفت

انا نقطة انقاذي هذه. (فكان الوضع مع البنزين في السفارة فعلا سيء) وقلت، في هذه الحالة اطلب من الرئيس 100 هدية. وضحكنا معا، وابرز تلفزيون بغداد هذه اللحظة بالذات في التحقيق الإخباري عن اللقاء وبثه للخارج. ومن ثَمَّ سألني البعض بملامة غير مبطنة: على اي أمر ضحكت هناك مع صدام؟ وتجدر الإشاراة إلى انه ومع بداية المحادثات بدأت الغارات على المدينة، فضلا عن انها كانت كثيفة. وكلاهما - يفغيني برماكوف وصدام حسين - لم يهتما بذلك. كما لو ان كل شيء على ما يرام. وبالمناسبة حينما عدنا للسفارة بعد اللقاء ليلا، بدأت حملة جديدة من الغارات. وحينما سألت بريماكوف: «كيف؟» رد بريماكوف ان ليس ثمة داعي للخوف هنا، بعد صموده المادي والمعنوي في بيروت. وأتذكر انني زعلت بعض الشيء.

وادهشنا صدام خلال هذا اللقاء بشحوبه ونحافته، من الواضح انه فقد 15 كم. التمعت عيونه بضوء عليل، وكان فيها شيء - ما مأساوياً. لقد كانت تلك أصعب الأيام عليه. ويلوح كانت اصعب القرارات. وكان معه عزت الدوري وطارق عزيز وطه ياسين رمضان وسعدون حمادي فضلا عن المساعدين. وجلس أيضاً اخ صدام وطبان. وكان صدام قد عين شقيقه في البداية مديرا لديوانه. وجلس وطبان إلى جانبي، ومن الواضح انه شعر بالملل. وتظاهر بانه يكتب محضر المحادثات، ولكني رايت انه كان يرسم مونوغرامات، وعمليا لا يكتب شيئا، وفي وسط المحادثة خرج نهائيا. وبالتالي فقد تم تعيينه محافظا لصلاح الدين بمركزها تكريت (مسقط رأس صدام). وتشكل لدي انطباع بان من المهم بالنسبة لصدام كان ان يقدم لنا وطبان الذي كان يترقى في المناصب.

وخلال المحادثات التزمنا جميعنا بالصمت، بما في ذلك المساعدين رفيعي المستوى. واستغربت من رؤية ذلهم وخضوعهم لصدام، الذي اكتسب طابعا منحرفا. ربما كان هذا مع ستالين. ان المرؤوسية ممكنة وينبغي ان تكون وتوجد، ولكن ليس بهذه الجرعات من إهانة النفس بما ذلك التوجه له بعبارة (سيدي)، لا سيِّما وان الكلام يدور حول رفاق بدأ معهم النضال من اجل السلطة في العمل السري لعشرات السنوات. انتابتني مشاعر ثقيلة كادت تكون فسيولوجية، وتغيّر موقفي بصورة قطعية من الطاغية وأعوانه. وظهر ان حضورهم كل مرة في هذا العدد الكبير (على أي حال مثل ما لدينا)، (وكان هذا لقاء بريماكوف الثالث مع صدام بعد بداية الدراما الكويتية)، من دون معنى أو بمعنى مزدوج.

بعد الجانب الرسمي من المحادثات، الذي لم تتزحزح خلاله مواقف الطرفين المعروفة بعضها للآخر، اختلى صدام حسين وبريماكوف، وتحدثا كما ساد الاعتقاد بصراحة. وفي كل مرة أتساءل بداخلي على ماذا يتكتمان، لا سيِّما وانه وتماما بعد نصف ساعة عقب اختتام اللقاء فان هذا وذلك من المشاركين فيها سيعرض نتائجها على مرافقيه. ولكني لم أستبعد ان هذه الخلوة قد تساعد على الكلام بصراحة، وفي كل مرة كنت ادعم يفغيني بريماكووف في هذه الملهاة، التي كما تجدر الاشارة كان ينجذب لهاعن طيب خاطر. وكما أعتقد فانه عقد الامال على أن بريماكوف سيفيده خلال هذه المحادثة أو يحدثه عن أسرار ما، وبشيء من الأمريكيين ويقوم باقتراح جذاب ويلقي (بعظم ذو شحمة). ومن ناحيتي كنت موافقا، بالرغم من أن هذا كان يعني بان أنصرف انا أيضاً، مع ان هذا كان غير مريح بالنسبة لي كسفير. وفي حقيقة الأمر ان بريماكوف، كان بالطبع يسعى إلى

رفع مستوى السرية ليس بمقدار ما يطرحه من وثائق جديدة على الطاولة، وانما بقدرموقعه كاحد المعارف القدماء، سعى لإقناع صدام حسين بمدى المنفعة التي سيجنيها العراق من الخروج العاجل من الكويت.

العراقيون والسلك الدبلوماسي في أيام الحرب

تجدر الاشارة إلى ان علاقة العراقيين بالبعثات الدبلوماسية الأجنبية اعتبارا من الثاني من آب/اغسطس تغيرت بحدة، نظرا لأن الجهات الرسمية العراقية انطلقت (وهذا صحيح) من أن السفراء (الكلام يدور بالدرجة الأولى عن البلدان الغربية) المرغمين على ارسال تقارير يومية عن الوضع في العراق لحكوماتهم التي اصبحت تعادي العراق أكثر، يتحولون من دون إرادتهم إلى جواسيس. وتحول نفور العراقيين الفطري من الآخر، إلى خوف سافر خلقه وهم التجسس.

وزار بغداد في هذه المرحلة بكثافة ممثلو مختلف القوى والاحزاب المعارضة من أمريكا وبريطانيا وفرنسا واليابان وغيرها، أو من مختلف اصناف رؤساء الحكومات السابقين، مثل ناكوسوني وبراندت. وهذه الزيارات كانت ضارة. فلم يمثل أحد من زوار بغداد هؤلاء اية قوة فعلية، ولكنهم ضللوا صدام حسين باعطائهم اشارات ملفقة عن استعداد وهمي للغرب ليناقش معه حلولاً وسطية. وكانت تلك الزيارات من جانبهم الاعيب سياسية، حيث إنهم يتعطشون للاعلان عن أنفسهم، والحصول على نقاط في بلدانهم. وكقاعدة لم يتم التحضير لهذه الزيارات، ولم تبارك حكومات بلدانهم مثل هذه المبادرات. حقا ان فالدهاين

العملي زار بغداد واصطحب معه حين مغادرته العاصمة العراقية كافة الرهائن من مواطني النمسا.

وفضل السفراء الأجانب في هذا الوضع الحساس عدم الذهاب لمشاركة هذه الشخصيات بالالتقاء بصدام حسين نظرا لأنها جرت باجواء أكثر دفئا مما تحظى به اللقاءات الرسمية في تلك الأثناء. وبعد الاصطدام بهذه المقاطعة الخفية ومن ثَمَّ السافرة، أمر صدام بعدم دعوة السفراء. وقد كلفنا ذلك حادثا صغيراً. ففي زيارة بريماكوف الثانية لبغداد في خريف 1990 حدد المسؤولون عن المراسيم في قصر الرئيس فريق الشخصيات التي تذهب للالتقاء بصدام. دون ادراج اسم السفير ضمنها. واتخذت الخارجية العراقية هذه الخطوة بصورة واعية، ولم أعترض انا على ذلك، ولم اذهب للقاء. وشَممتَ ان وراء ذلك كما أعتقد كان عباس خلف قنفذ - موظف القسم الروسي والذي قام بالترجمة خلال اللقاء وبالتالي سفيرا للعراق بموسكو. وسأل بريماكوف حال وصوله للقصر الرئاسي عن سبب عدم دعوة السفير. وارتبك واضعو المراسيم ومن ثَمَّ انفجر الجميع بالضحك. واعلن بريماكوف، وهذا يُحسب له، بانه لن يذهب للرئيس من دون السفير، وسينتظر. وابلغوا الرئيس الذي طالب بان يبعثوا لي بحافلة لنقلي. وجاء ممثل مراسيم الرئيس وراح يعتذر. واعتذر الرئيس حينما كنا عنده، عن الموظفين الذين بالغوا بيقظتهم. بالرغم من أنني حينما افكر بأثر رجعي، لا أستبعد انهم قاموا بذلك حينها بوعي، بمثابة اشارة تحذير لي شخصيا.

تركنا صدام حسين وبريماكوف (أعتقد بقى هناك عزت ابراهيم) وانتظرناهما في الغرفة المجاورة. قام بالترجمة والكتابة سيرجي كيربيتشيكنا - أحد الضالعين بعمق وتألق باللغة العربية، وإلى ذلك الوقت كان مستعربا وخبيرا في الشؤون الدولية. وجرى تعيينه في ١٩٩١ سفيرا لدى المملكة العربية السعودية. حينما خرج بريماكوف، جلسنا في السيارة، وكان يفجيني بريماكوف متهيجا وردد اي اختراق كبير! لقد وافق على الخروج من الكويت، واقترح إيفاد طارق عزيز إلى موسكو للاتفاق على الخطة والتفاصيل. وقال صدام ان هذا اقصى حد يستطيع تقديمه. وتوجهنا إلى السفارة، من اجل نقل مضمون المحادثات لموسكو. وبين الساعة الواحدة والثانية ليلا جاء طارق عزيز للسفارة. واتضح انه وبعد الاجتماع مع صدام فان خطة موافقة العراقيين على سحب القوات العراقية من الكويت اصبحت أكثر تعقيدا وعسيرة على الهضم مما يجر خلفها عثرات وعوائق قاتلة وغير جائزة. ولا يجوز اتهام طارق عزيز بهذا. وعقب المحادثات الرسمية طلب طارق عزيز فودكا، وكان عزيز متوازنا ولكني شعرت ان التوتر يؤثر عليه. جلبنا له الفودكا، مع وجبة طعام متواضعة (في ذلك الوقت لم يكن لدينا طباخ) وجلس لدينا فترة طويلة.

... حينما وصلت ١٩٩٠ لبغداد بصفة سفير (قبل عدة اشهر على العدوان) لمح لي العراقيون، بان بوسعي الالتقاء بصدام حسين، بالرغم من أنه لا يستقبل سفراء الدول الأخرى. ووفقا للمراسيم العراقية فان أوراق الاعتماد لا تقدم لصدام حسين وانما لنائبة في مجلس قيادة الثورة عزت ابراهيم. واقتنعت بعد التفكير، ان مثل هذا اللقاء سيكون مفيدا. وحينها كانت امامي من بين قضايا

أخرى، مهمة الحصول من العراقيين على الدّين المترتب عليهم جراء القروض التي قُدمت لهم سابقا: وكان علينا ان نستلم حينها بمعدل 1،8 مليون دولار بالعملة الصعبة والنفط. وحضر تلك المحادثات طارق عزيز وغيره من شخصيات القيادة العراقية. وتحدثت كثيرا عن خططي وطلبتُ منهم الدعم. ولاح في مجال التعاون الاقتصادي ان الآفاق واعدة وتبعث على التفاؤل، وحصلنا على دفعة كبيرة من القرض واتفقنا على بناء منشآت كبيرة جديدة. وتذكرنا كثيرا الزمن الماضي. ولا سيِّما كوسيجين رئيس وزرائنا 1960 - 1980 الذي اجرى معه صدام أكثر اللقاءات. (وبالمناسبة فان كوسيجين زار بغداد في ابريل 1972 ووضع امضاءه على معاهدة الصداقة والتعاون السوفيتية العراقية).

وقالت جليبسي سفيرة الولايات المتحدة مباشرة بعد لقائي بالرئيس انها تأمل بان صدام حسين سيستقبل الآن السفراء الآخرين. وفعلا استقبلها الرئيس عشية العدوان بكل معنى الكلمة، ولكن نتائج هذه المحادثات انعكست ضد السفيرة الأمريكية، شخصيا. وأعتقد لحد الآن ان العراقيين اختاروا السيدة جليبسي بمثابة (كبش فداء). ان الاستعمال السيئ لمحادثاتها مع الرئيس لم تقرر اي شيء علاوة على أن جليسي عندما تناولت التطاحن بين العراق والكويت، تحدثت باسمها الشخصي، ولم تعتمد اي تفويض من واشنطن. وكان هذا واضحا لصدام حسين كسياسي مجرب. وبوسع كلماتها ان تنطوي على أهمية للعراقيين بصفتها رأي سفير، وليس باي حال من الاحوال فهمها على أنها تعهد رسمي بعدم التدخل في حال غزو الكويت. فضلا عن ذلك ان لدي شكوكا أيضاً بان تكون جليسي قد تحدثت بهذه الصورة القطعية شخصيا باسمها. أتذكر كيف رسم

وبالطبع فان الممثليات الدبلوماسية التي بقيت في بغداد تواصلت فيما بينها بكثافة وسعت لتقديم المساعدة. ووقعت على عاتق سفارتنا، التي حافظت على الاتصالات المنتظمة واليومية مع موسكو، بالتدريج مهمة ارسال واستقبال التقارير للسفارات الأخرى. وغالبا ما كانت تصل تقارير لأوليش ممثل الفاتيكان. وكثيرا ما كنا نلتقي وتصادقنا تدريجيا. وكان أوليش بولنديا، تلقى تعليمه في انجلترا وايطاليا، وهو دبلوماسي محترف من الفاتيكان. وترك لدي انطباعا بانه متمكن من كافة اللغات الاوربية.

وحف الخطر المبين بنقل المعلومات من الفاتيكان له من خلالنا. وتكمن القضية بان السفارة البابوية وقعت على الجانب الآخر من نهر دجلة، وان الأمريكان دمروا الجسور الرئيسية التي تربط بين جانبي بغداد. لذلك تعين الذهاب بعيدا للالتفاف، بينما تم قصف المدينة كل 2 - 3 ساعات. وتعرضت مع الكسندر كوزمين مرتين للقصف ونحن متوجهان إلى أوليش بالتحديد. ان موقع ممثليته كان غير موفق تماما - فعلى يسارها كان مركز اتصالات، وخلفها أحد المباني التي تعود إلى قيادة القوة الجوية. وإلى الامام، بالقرب من النهر، كانت منشأة عسكرية أخرى. وتعرضت المباني الثلاثة باسرها لقصف شديد، واقام بينها السفير البابوي صامدا متحملا كل هذه المصائب والنكبات. وكان لدي شعور بانه لوكانت هناك ممثلية أخرى، وليست السفارة البابوية، القائمة قريبة من الرب، لضربت الصواريخ حتما هذا المبنى. وأتذكر ان أوليش في إحدى مراحل العمليات القتالية ابلغ الفاتيكان من خلالنا ان بوسعه مغادرة بغداد أو حتى العراق حسب

هواه. وامتنع السفير البابوي عن السفر معلنا ان هنا يبقى كاثوليكيون، فضلا عن مؤمنين من الطوائف المسيحية الأخرى، وليس له الحق بتركهم.

وتعامل أوليش بود وطيبة مع المواطنين السوفيت الذين بقوا في بغداد. وجاء لي بعد الغارات الأولى، حينما اصبحت المدينة من دون ضوء كهربائي، بكارتون كامل من الشموع الكبيرة التي وزعتها على العاملين في السفارة. ولم يستعملها أحد تقريبا (فقد كانت لدينا شموع احتياط) وابقوها لديهم كذكرى طيبة. وتجدر الاشارة إلى ان الوش ادى عملا ضروريا، حيث دافع امام السلطات العراقية عن المسيحيين المحليين. وطلبت منه ايقونة، فقد كانت ايقونات معلقة في منزلي قبل الحرب، ولكن أثناء عملية إجلاء القسم الرئيسي من موظفي السفارة تم تقريبا نقل كل أغراضي إلى موسكو بما في ذلك الايقونة. وكانت الايقونة التي اهداها السفير البابوي معي طيلة فترة الحرب، وبعد ان انتهت استلمت من بابا روما صورته وعليها اهداء للإيقونة بخطه الشخصي. وهذه إحدى أغلى الذخائر في طريق حياتي، إذا ما لجأت للحديث بكلام بليغ.

وكان سفير كوبا خوان الداما شخصية في غاية الروعة. حفيد أحد الثوريين الكوبيين ورفيق كاستروا، جرى تعيينه سفيرا وهو ما زال في ريعان شبابه. وعمل سابقا مستشارا في موسكو وتزوج من إحدى مواطناتنا، كما كان يقال. وفي الوقت الذي كان فيه رجلا جذابا لطيف المعشر كان مفعما بدوغمائية العقيدة الرسمية الكوبينية وبما أنه ضايقنا في الاحوال العادية بالكليشهات الايديولوجية فخلال الحرب ازعجتنا معاداته الصارخة للأمريكان عبر المعاداة المتطرفة للغاية للامبرالية.

وفي المرحلة الأولى للحرب، حينما كما يبدو، كانت لدى هافانا أوهاما بصدد قدرة نظام صدام حسين على الصمود امام الضربات الأمريكية، فانه تحدث بنبرة استهزاء، وتصرف كمعلم بطرق ملتوية في الازمة. ولكن من ثَمَّ هدأ وقال لي بعد الحرب ان القيادة الكوبية كانت خائفة لأنها استشفت ان هزيمة العراق البعثي ستكون نموذجا لكيفية تركيع هافانا. وذهبت إلى انه ما كان على صدام حسن التورط بالحرب، ولكن ما دام قد بدا في المعركة فعلية ان يحارب حتى النهاية ويموت. وكان اعتراض الكوبيين من منطلق ان من يموت هم العراقيون البسطاء، وليس القادة.

وابقى خوان في السفارة سبع نساء بما في ذلك زوجته آللا ليونيدوفنا اضافة إلى 200 ممرضة كوبية، حيث قمن بمهمة ابداء التضامن الاممي مع العراق. ان هذه النساء المسكينات كن طيلة الحرب ضحايا لقرار فيدل بالتطوع. وعلاوة على أن العراقيين لم يمنحوهن اجرا نقديا وعشن شبه جائعات، وعانين من شحة المياه. ولم يكن لديهن حتى عمل ينشغلن به، نظرا لأنه وبأمر من صدام لم يُنقل الجرحى لبغداد بل تم ابقاؤهم في الجنوب. اما بعد الحرب فقد تصرف العراقيون بوقاحة، وحتى وقعت محاولات لاغتصابهن (السفير بنفسه تحدث بانه كان مضطرا للتدخل حينما كان صدفة في القسم الداخلي، حيث اقمن الممرضات). وفي نهاية المطاف انتهت الفعالية الاممية بصورة غير مشرفة. وزار نائب الصحة السفير واتفق الطرفان على اجلائهن.

وعموما فان الحرب شيء قذر ومروع، والحديث عنها لا يبعث على الارتياح لدي. مساكين هم العراقيون! بالنسبة لهم، للناس العاديين غدت الحرب ولفترة طويلة تعاسة كبرى.

وطيلة الحرب خضت جدلا، بصورة غير مباشرة مع السفير، عبر زوجته (لم نتطرق لهذا الموضوع بصورة مباشرة) حول ابقاء النساء. وتجدر الإشارة إلى ان هناك عملا قليلا كان لدى السفارة الكوبية، وانفق الدبلوماسيون الكوبيون بمساعدة نسائهم وقتا كبيرا على شؤون الحياة اليومية، كالحصول على الماء وغسل الملابس والكوي. وبدا خوان دائما طازجا ومستبشرا. وأقول بصراحة من الجلي اننا كنا من الخاسرين. فلم تكن لدينا القوة والوقت للشؤون اليومية: فتعين علينا العمل كل ليلة، دون استثناء، وفي النهار هناك انشغالات أخرى، كالاتصلات والمحادثات وزيارة وزارة الخارجية لطلب البنزين،... إلخ. والكوبي لم يفوت فرصة للسخرية منا. وكان محقا بعض الشيء، ولكنا لم نجد الوقت اللازم. وكنت خصما حازما لتواجد النساء في بغداد التي تشهد حربا، وحاولت ان ابرهن له على صحة موقفي، بيد ان واقع تواجد النساء هناك كان بمثابة اظهار التضامن الأممي. (بعد عام من الأحداث المذكورة انتحر خوان الدام باطلاق النار على نفسه).

وكان السفير الفلسطيني عزام أحمد الإنسان الأكثر اطلاعا ومعرفة في السلك الدبلوماسي. عاش في العراق 14 عاما، وبدأ من القيادة في منظمة الشباب التابعة لجبهة التحرير الفلسطينية في العراق، ومن ثَمَّ اصبح سفيرا. وكانت ميوله موالية تماما للعراق. ولكنه كان رجلا شجاعا وطيبا، ساعدنا كثيرا. وقد بقيت لي معه ومع عائلته روابط صداقة حقة.

وتمحور تاكتيك عرفات على أن يتماشى ممثليه في الدول الأخرى مع الخط السياسي المحلي، وإذ عرف السفير الفلسطيني هذا التوجه، لم يكتف بعدم الاعتراض عليه، بل شجعه. وحال ان اعلن صدام حسين في 12 اغسطس عن ربط المشكلة الكويتية بالفلسطينية، هرع عزام نحوي وراح بنبرة مشحونة بالود يتحدث عن مثل هذا الربط، وعن اني اعتبرتها سابقا وهما، ولكنها غدت الان واقعاً. ان هذا الربط المؤسف تفرمل في الموقف العراقي، ملحقا الضرر الكبير في العراق وفي فلسطين بما في ذلك بياسر عرفات الذي راهن عليه في هذه المرحلة. ولم تفعل اية براهين فعلها. وحاولت ان أوضح: لو ان شخصا ما شغل بالقوة شقة غريبة، فلا يجوز لك شغل أخرى والامتناع عن مغادرتها فقط لأن المغتصب الآخر الذي سبقك، لا يرغب الافتراق مع فريسته.

بقوا في الذاكرة للا بد موظفو لجنة الهلال الأحمر. كانوا شبابا بواسلا، لم يخشوا من الظهور في أكثر الاماكن خطورة وتنقلوا كثيرا في انحاء العراق وقدموا المساعدات الفعلية للسكان. وفي المرحلة الأولى مرت المعلومات عن عملهم وحاجاتهم من خلال سفاراتنا.

وغادرت اغلبية السفارات المعتمدة في بغداد المدينة عشية 15 يناير. وكان خروجها بمثابة انهيار ثلجي. وتشكل لدي وما زال شعور ان الأمريكيين أو حلف الناتو اخطروا عددا من البلدان بان هناك انعطافا شريرا وانهم لا يمزحون، وينبغي اجلاء الدبلوماسيين باسرع وقت. ورحل حتى من تعهد قبل اسبوعين بانه لن يغادر البلاد. فعلت معلومات ما فعلها. واتصل السفير البولندي من على

الحدود، وربما لم يقرر قبل ذلك التزاما بالشروط السرية مع الجانب الأمريكي. وقال لي: «فيكتور اتصل بك من على الحدود. ارحل باسرع وقت! نصيحتي لك!».

وأعرف ان الأمريكي ولسون القائم بالأعمال حذر أصدقاءه المقربين، بان يرحلوا باسرع وقت من بغداد. وفي الحقيقة كان لدي الشعور، انا الذي تعاطيت يوميا مع ولسون، بان واشنطن لم تطلعه على الكثير من الأمور. والان انا على ثقة من ذلك. لقد كان شابا وديا ولطيفا، ولا تقول عنه بشيء غير ذلك. كان وضعه صعبا، ولكنه تمالك نفسه بشجاعة حتى الأيام الاخيرة، بالرغم من أن الناس الذين يعرفونه قالوا انه اطفأ معاناته بتناول الخمر، وقد رصدت وزارة الخارجية ذلك. واشعر له بالامتنان على الاتصالات بنا في الوقت الذي كان الوضع محرجا على نحو خاص. وكانت تصله الكثير من المعلومات، وتقاسمها معنا بقدر ما يستطيع، مراعيا بالطبع الحدود. ومن ثَمَّ جرى تعيينه سفيرا للولايات المتحدة في الجابون.

بخلاف الراحلين فورا كالبولنيين والتشيك والهنغار، مكث اليوغسلافيون والبولنديون ببغداد في البداية. وجاءني السفير اليوغسلافي بعد بداية القصف قائلا انه استلم تعليمات من بلغراد، تطلب توفير ملجأ له في سفارتنا. ولكن حينما شاهد ملجأ سفارتنا المتكون من (الأنبوب) فانه رفض نهائيا ان يشاطرنا (المتعة) بالجلوس هناك، ويبدو ان هذا لعب دوره في مغادرته بغداد على جناح السرعة. ومكث البلغاريون فترة اطول، ولكن من الواضح انهم رغبوا بالسفر. وساعدهم على ذلك حادث مؤسف: حيث سقط أحد الصواريخ المجنحة على مبنى قسم الخدمات

في محيط السفارة، حيث كانت المولدة الكهربائية، فهشمته شر تهشيم، كما تكسرت زجاج نوافذ السفارة، وتشوهت الابواب. وعقد البلغاريون في ذلك المساء اجتماعا، وصوت الجميع لصالح الرحيل (امتنع الملحق العسكري عن التصويت). ووجهوا برقية إلى صوفيا، وحصلوا في اليوم التالي على موافقة السفر. وقبل السفر اعطونا اليوغسلاف والبلغار بكرم ما تبقى لديهم من مواد غذائية ووقود. واشرت بامتنان لذلك خلال الحديث الصحفي الذي ادليت به للتلفزيون السوفيتي بعد انتهاء الحرب، قائلا اني أود ان اميز اليوغسلاف والبلغار من بين نظرائي الدبلوماسيين الذين عملوا في بغداد. واضفت: ربما لدينا جميعا نزعة تضامن سلافية. واخبرني القائم بالاعمال البلغاري اميل مانولوف عند العودة إلى بغداد ان هذا الجزء من الحديث عُرض على شاشة التلفزيون البلغاري واثار تعليقات حيوية. وراق للبلغار في هذه المرة ان يساعدوا الروس، وليس على العكس. اضافة إلى ان العلاقات بالاتحاد السوفيتي كانت في ذلك الوقت في مقدمة قضايا الساعة.

ارسلت لنا موسكو طيلة فترة الحرب طلبات ومهمات بتكليف من الدول الأخرى التي لم يكن لدى البعض منها اتصالات بممثلياتها الدبلوماسية أو عدم وجود ممثلين لها. وشعرت ان اصداء تنفيذ هذه الطلبات، التي تنطوى اغلبها على طابع إنساني، ستكون نجاحا كبيرا وارتياحا منا. وعمليا نفذت والكسندر كوزمين كافة هذه المهام. ولكن إحدى هذه التكاليف كلفتنا معاناة، كما اتضح غير ضرورية. في البداية استلمنا برقية من سفير النمسا في موسكو (في اشارة إلى فينا) يطلب منا فيها زيارة سفارة النمسا واستيضاح اية معلومات عن مصير موظفي السفارة العراقيين المحليين. والقضية اني لم ارغب بانجاز التكليف فورا، فقد

كانت هناك مهام مستعجلة وملحة. وبعد يوم وصلت برقية تشير إلى انها بطلب من وزارة الخارجية النمساوية. والقضية تكمن في ان لدينا أنا والكسندر كوزمين تصورا غامضا عن موقع السفارة النمساوية. (لقد ادركت، كيف يضيع السفراء الوقت حينما يتنقلون في المدينة مع سائق وبالنتيجة تنقلت كثيرا بنفسي بالرغم من وجود حظر شديد على ذلك). قررنا التوجه إلى سفارة المانيا الغربية ومن هناك قد نعرف موقع السفارة النمساوية. واستقلبنا حرس السفارة الالمانية بصورة أكثر من غيرودية، وكنا مسررين بنجاحنا ان ذهبنا عنهم بخير وسلام.

وفي نهاية المطاف عثرنا على السفارة النمساوية، بيد ان الجنود الذين حرسوا السفارة تعاملوا معنا أيضاً بفظاظة (مرة أخرى بالاشتباه بالتجسس)، وبالطبع لم يكن احد في داخل السفارة. وما إن غادرنا حتى بدأ في هذه المنطقة (حيث كانت منشأة عسكرية) قصف جوي عنيف. وأقولها بصراحة ارتكبنا انا والكسندر كوزمين خطأً كبيراً، لا سيِّما واننا كنا في منطقة غير معروفة لنا. وأمرته ان يسير إلى اليمين بينما استدار إلى اليسار، وأمرته بالاختباء عند أحد المباني القريبة، بينما هو تخطاها. وجرى كل ذلك تحت وقع وابل انفجارات القنابل الوحشية التي تصم الآذان وهدير الطائرات المحلقة فوق رؤرسنا. وفي نهاية المطاف خرجنا من منطقة الخطر. وكنا في حالة هلع، ويمكن القول مذهولين تماما. وضع الكسندر راسه على المقود ولاذ بالصمت فترة طويلة، ومن ثَمَّ قال بصورة مقنعة ومؤثرة: « هل تعرف ايها السفير اذهب إلى... مع سياحتك السياسية ». التزمت الصمت، لم يكن لدي ما أعترض فيه عليه. وكانت هذه المرة الأولى التي انفلت فيها، فكان واضحا خطورة الرحلة العقيمة والخطيرة.

عن اتصالاتنا بالعراقيين

بعد هذا الوصف السريع لمشاعري من التعامل والاتصالات بالسلك الدبلوماسي، ربما من المنطق ان اتناول اتصالاتنا بوزارة الخارجية العراقية. وهنا لا يمكن أيضاً رسم صورة ذات مدلول واحد، لذلك سابدأ من وصف أكثر الشخصيات الأكثر أهمية.

طارق عزيز - ربما هو الشخصية الأكثر تناقضا وسط البعثيين فهو رجل مثقف، selfmade man، تدرج من طالب كلية في جامعة بغداد إلى وزير خارجية. وكمسيحي كانت له عقلية تختلف بحدة عن العقلية البعثية العادية الضيقة الأفق والدوغماتية. أو بالأحرى ان تفكيره وحججه للدفاع عن مواقف البعث ودغمائيته تختلف تماما عن المنطق السطحي والساذج لزملائه. وكان على غير العادة بالنسبة للبعثيين يخالط الأجانب، حاضر النكتة. وفي الوقت نفسه كان أكثر أو واحد من أكثر الساسة العراقيين صلابة وتشددا. وكان عراقيا وقوميا عربيا راسخ العقيدة. حقا ان بريماكوف قال لي انه يشكك في مصداقية هذه الصلابة والتشدد التي يتظاهر بها طارق عزيز. وان الأمريكيين يعقدون بخفية الآمال عليه، ولفت انتباه بريماكوف خلال زيارته لواشنطن ان بوش وبيكر راحوا يسألون بالحاح كما لو

بصورة عابرة بالذات عن طارق عزيز. وكنت أعتقد ان طارق عزيز كمسيحي لا يصلح بالأساس لمسرح السياسة العراقية. وبلغ منصب نائب رئيس الوزراء وكان هذا سقفه الاقصى. وافسر تصلبه بالذات لكونه مسيحيا، فضلا عن انه كمثقف كان منذ البداية عنصرا غريبا في الوسط البعثي. ولهذا وضع على وجهه قناع الراديكالي المتشدد، ومن ثَمَّ اعتاده، ونمى لديه واصبح وجهه الحقيقي. فضلا عن انه لسنوات طويلة كان مسؤولا عن مكتب فلسطين، وترك اختلاطه بالفلسطينيين المتشددين كذلك بصماته على وجهات نظره وخطابه. وكان هنا (ملكياً أكثر من الملك).

إن غلواءه غالباً ما تفوقت على مطالب الفلسطيني نفسه. وتحدد موقفه من الاتحاد السوفيتي بالدرجة الأولى وفقا للحالة السياسية، ولذلك وعلى العموم ساء متوازنا مع تعكر اجواء الشراكة السوفيتية/العراقية وضعف اتصالاتنا السياسية. ولكن على الصعيد الشخصي كان وديا، وحاول تقديم المساعدة، باقيا في الوقت نفسه متشددا للغاية في القضايا المطروحة للنقاش. ولم الجأ غالبا إلى طلب مساعدته، ولكني كنت ذات مرة مضطرا لذلك.

حدث هذا في نوفمبر. حينها شددت الجمارك العراقية مجددا الرقابة على حمل ونقل عفش الخبراء السوفيت، الذين تم اجلاؤهم من المواد الاستهلاكية والغذائية. وكان منطق العراقيين بسيط: ان الاتحاد السوفيتي - شارك في وضع قرار المقاطعة على العراق، وفي الوقت نفسه ينقل مواطنيكم من العراق المحاصر كميات كبيرة من الشاي والطحين والقهوة والملابس، فيما دعا صدام حسين

النساء للاقتصاد بالمواد الغذائية وعدم شراء الملابس في غضون عام. وبسبب اثارة الجمارك العراقية خصومة، تأخرت رحلة الطائرة، وامتنعت بعض نسائنا عن السفر من دون العفش. ويمكن فهمهن أيضاً - فقد تـردت، مع كل يوم، حالة المواد الغذائية في الاتحاد السوفيتي. وتمسك العراقيون بشدة بموقفهم. وتمكنت في ساعة متاخرة ليلا، في الثانية، من الالتقاء بطارق عزيز ورجوته على مدى ساعتين المساعدة، والتساهل. وظهر في اللقاء معاونوه ونائب الوزير فطلبت منهم ان يتركونا لوحدنا. وقلت انني اطلب منه ليس كطلب سفير لوزير، وانما كإنسان الذي بحضور بريماكوف (صديقه) كسر الخبز على الطريقة المسيحية في منزله في 1969 (حينها كان طارق عزيز رئيس تحرير صحيفة الثورة البعثية). وعند الصباح خففت الجمارك من موقفها، ومع ذلك صادرت الجهات الرسمية العراقية جزءاً من الاشياء. ومن الممكن ان طارق قدم المساعدة، على الرغم من أن المحادثة كانت فاشلة، وكان لدرجة كبيرة متشددا، ومزاجه انتقادي. وعلى العموم ان طارق اخطأ الحسابات أيضاً. مثلا حينما جرى الإعـداد لتبني قرار مجلس الامن الدولي بشأن الحصار، اتصل بي وقال: « وكيف مع المواد الغذائية بما في ذلك لمواطنيك؟ ». بعد فرض الحصار سألته: «كيف سيكون الحال بشان تزويد الطابور السوفيتي » وأجابني: « لا اضمن لك بالكثير، ولكن الطعام سيكون ». ولم اشعر بعد ذلك بالمساعدة، باستثناء 500 لتر بنزين، وحتى هذا تم بعد طلب من الكرملين. وعلى كل الأحوال شرحت له ان هؤلاء (الخبراء وزوجاتهم) ناس بسطاء لا يتحملون المسؤولية عن حكومتهم بقضية العفش، ومن المبتذل للغاية طرح المسألة على هذا النحو، علاوة على أنهم اقتنوا هذه البضاعة من المخازن

العراقية بصورة شرعية ومقابل النقود التي حصلوا عليها لقاء عملهم، حيث شيدوا هنا المصانع والسدود وحفروا الابار،... إلخ. وأتذكر ان عزيز استمع لي بانتباه، ولم يوافقني على شيء، واستمر بطرح حججه وتبريراته. وبهذا المعنى فان الوزير العراقي كان مهنيا في المعارك الدبلوماسية ومفاوضاً حاذقاً ويمتلك قوة ارادة واصرار ذي صمام بعثي قومي، ولكن حججه اكتسبت طابعا (جوزيتيا). ان نقطة الضعف بطارق عزيز ان مظهره يفضح ما في داخله. كنت في خريف 1987 في دورة الجمعية العمومية للامم المتحدة في نيويورك وشاركت في مباحثات وزير خارجية الاتحاد السوفيتي ادوارد شيفرنادزه مع وزير خارجية إيران ولايتي وطارق. الأول كان غامضا وابتسم ببرود وكان متانقا بذوق رفيع. اما طارق عزيز فقد كان شخصية منفتحة. وفي حقيقة الأمر فان الوضع لم يكن في صالحه. فنحن استدرنا من جديد نحو طهران واغضبنا العراقيين، ولم يخجل طارق عزيز بان يستعرض لنا تقيم بغداد لنهجنا. وفي نهاية المطاف تعامل مع شيفاردنادزة بعدوانية سافرة وحقد، ورد عليه وزيرنا بالمثل.

ونهَضت دائما أمامي مشكلة أوأمر موسكو بزيارة المسؤولين العراقيين رفيعي المستوى. وبشرف طارق عزيز انه استقبلني اغلب من الآخرين، بالرغم من أنه كان مشغولا بجنون. على الرغم من أنه في بعص الاحيان وجهني إلى مستوى نائبه سعد الفيصل أو وزير الدولة محمد الصحاف، مما كما شعرت، لم يعجب موسكو. ولكن هذه كانت نزعة الامبراطورية العظمى لدى وزارة الخارجية السوفيتية - فأي تكليف في تلك المرحلة كان معنوناً إلى مستوى وزير الخارجية وما أعلى.

واظهر طارق عزيز نفسه على المستوى الشخصي رجلا شجاعا وقادرا في كل الظروف على التصرف بلياقة. مسألة أخرى انه بطبيعته مُجادل، وقومي متصلب وماهر حاذق بتنفيذ مهام صدام حسين، ولكنه يضيف عليها شدةً. أتذكر حديثي الثقيل معه خلال تسليمي له نداء مجلس الامن الدولي (ونداءنا في الوقت نفسه) بصدد تبني العراق كافة قرارات مجلس الأمن كشرط لوقف اطلاق النار. وجرت في هذا الوقت بالجنوب معارك برية ادت إلى مصرع الناس في كل ساعة، ومن غير الجائز خسارة اية دقيقة. وشرع طارق عزيز بحديث لزج عن انه لا يمكن ان يدور عن الاعتراف بكافة قرارات مجلس الامن نظرا لأن بعض هذه القرارات التي اتخذت منذ 2 اب/اغسطس 1990 فات وقتها وشطب عليها مجرى التطورات،... إلخ. وانا اصررت على جميعها، مدركا ان ليس هناك في نيويورك من سيصغي لحجج العراقيين والتمعن بها، وبالتحديد عليهم الاعتراف بكافة القرارات وكفى. وفي هذا كانت تكمن الاشارة السياسية في تلك اللحظة. وفي الوقت الذي شعرَ بانه لم يقنعني طلب طارق حضور رئيس قسم العلاقات الدولية رياض القيسي، حقوقي - القانون الدولي من الدرجة الأولى في وزارته - ليشرح لي جوهر الموقف العراقي. وبعد ان استمعت لرياض القيسي كنت مضطرا لأعلن مرة أخرى ان لا أحد في نيويورك سيتبنى هذه الحجج، بالرغم من أن بوسعي شخصيا فهم منطق العراقيين، وسعيهم لتمييز تلك القرارات التي فقدت اهميتها. وجددت القول بان من العبث اضاعتنا الوقت الثمين. وقال لي طارق عزيز انه مكلف بالطلب مني نقل هذا الموقف بالذات الذي عرضه لي، إلى موسكو ومنها إلى نيويورك. وبدات بفقدان الصبر (كان هذا في ساعة متاخرة من الليل)،

واعلنت بسري اننا نضيع الوقت وان نقلي لرد سلبي وان العراقيين سيضطرون لاحقا على الموافقة ولكن الوقت سيفوت، وستضيع حيوات بشرية جديدة. وهذا ما حدث. ولم يود أحد في مجلس الامن حتى الحديث عن وجهة نظر العراق. وفي اليوم التالي استدعاني طارق عزيز ومد لي بجفاف صفحة ورقة صغيرة، انقلوا لهم ما أرادوا الحصول عليه، وبخط اليد كتب على الورقة: ان العراق يعترف بكافة قرارات مجلس الامن الدولي الصادرة منذ 2 اب/اغسطس. وكان واضحا ان طارق عزيز كان محرجا ومن جانبي لم اعلق على الرغم من أني واثق ان مظهري بحد ذاته كان بالنسبة لوماً صامتاً.

حظيت بالالتقاء بصدام حسين منذ 2 أغسطس على الأغلب خلال مرافقتي يفغيني بريماكوف وبيلاؤسوف والبرلمانيين (روسلان أوشاف وغيره) الذي وصلوا من موسكو. وذات مرة وصل أمر بان التقي بالرئيس العراقي شخصيا وأنقل له رؤية الحكومة الروسية. وكان ذلك بين تشرين أول/اكتوبر - تشرين ثاني/نوفمبر. وشعرت ان موسكو تتنظر مني بالذات الالتقاء بصدام. وقررت المجازفة والإصرار على مثل هذا اللقاء، بالرغم من أنهم سابقا في مثل هذه الحالات ارسلوني إلى طارق عزيز وغيره. ولكن في هذه المرة قررت ان اصمد حتى النهاية، على الرغم من أن هذه كانت لعبة خطرة للغاية، الأمر الذي خمنته منذ البداية. وتكمن القضية في انه كان بوسع صدام استقبالي فقط في حال، إذا كان معي تكليف بتسليمه رسالة شخصية من الرئيس السوفيتي السابق سيرجي غورباتشوف. لذلك ابلغت الخارجية ومكتب الرئيس بان لدي رسالة كهذه.

وأخيراً وصلتُ إلى صدام حسين واخرجت نص رؤية الحكومية السوفيانية مطبوعا على ورقة رسمية خاصة عليها شعار الاتحاد السوفيتي، ولكنها لم تتضمن عبارات تتوجه إلى رئيس العراق ومن دون مقدمة وجاء فيها تقريبا ما يلي: «ان موسكو تشعر بالقلق الشديد من الوضع المترتب جراء امتناع القيادة العراقية عن النظر بواقعية إلى حالة الأمور في ضوء دخول الجيش إلى الكويت ». وادرك صدام فورا، بانني احتلت، وان هذه ليست برسالة له من رئيسنا، وانما نداء جديد من القيادة السوفيتية إلى العراق، وبالنسبة له كشخص متغطرس بصورة غير طبيعية وحتى الانحراف، كان هذا ليس نفس الشيء. ورمى الورقة بغضب وامتنع عن قراءتها. ووجدت نفسي في وضع لا يُحسد عليه. واختطفت الورقة الساقطة على الارض ورحت باصرار ابرهن ان هذه رسالة شخصية، وربما ان شكلها فقط غير مناسب. وطيلة هذا الوقت تحدثت من دون انقطاع، مدركا ان علي إيصال هذه الوثيقة المهمة، وحاولت ارغامه اخذ ورقتي. وفي نهاية المطاف نجحت بذلك. وقرأ صدام حسين النداء، ورد عليه باختصار جاف. وكانت المحادثة غير موفقة وخشنة. وبعد ذلك فقط فكرت بانه، ومع الأخذ بالاعتبار عجرفة صدام، كان ينبغي علي ان اضيف في النص العربي (السيد الرئيس المحترم) أو ببساطة (السيد الرئيس). وكان معاوني قد اشاروا علي بذلك. هكذا كان يجب ان يكون، ولكن من ناحية أخرى من الواضح ان موسكو لم ترغب في ان تضفي على تبادلاتنا مع بغداد طابع مراسلة بين غورباتشوف وصدام، وكان لهذا سبب هام: فان الوضع حتى تلك الأثناء قد احتدم ونما التوتر في علاقاتنا. لهذا من الممكن ان كل شيء جرى كما ينبغي.

وتجدر الاشارة إلى ان محادثاتي مع صدام استذعت مني توترا بالغا، بالرغم من أني أعرفه عن قرب منذ اقامتي الأولى ببغداد في سنوات 1969 - 76. فعندما تتحدث معه تشعر بحضور وحش خطير، مستعد للقفز عليك في أية لحظة. اما مع طارق عزيز (وبالمثل مع نائب رئيس الجمهورية عبد الحليم خدام، عندما عملت في سوريا) كان شعور دقيق بالحلبة وتبادل البراهين مثل تبادل الضربات، على خلفية علاقة طيبة بي. وكان من المؤسف عند ذلك، ان صفة واحدة تجمع خدام وعزيز - انهما لم يتقبلا ولا يتفقا على الحجج الواضحة، ودائما واصلا الاستمرار بتأكيد طروحاتهما. أما نحن اصحاب الضمير الحي، حينما نشعر بضعف في حججنا، نضطر للإعتراف والقول لمحدثينا: نعم انتم هنا على حق.

واثار اهتمامي دائماعزت ابراهيم، وهو الشخصية الثانية في السلم الحزبي - الحكومي العراقي، وسر حيويته المدهشة. فعلى مدى اثنين وعشرين عاما تم تصفية جيل كامل من القيادات البعثية، رفاق صدام حسين (حتى إن بعضهم تفوق عليه بالخبرة والمكانة في الحزب) أو بافضل الأحوال ان بعضهم تلاشى من الذكر. وبدأ عزت ابراهيم من القطاع الزراعي. ان هذا (الاشقر)، كما اطلق عليه البعثيون أنفسهم، بقى في الظل، ولم يسرع بالإعلان عن نفسه، ولكني لاحظت ان كُنيته ترددت أكثر من كُنى الآخرين بين اعضاء المحاكم التي اصدرت الأحكام بالموت على رفاق الأمس في القيادة الحزبية. واللافت ان عزت ابراهيم ترأس عملية سحق التمرد وتحرك بحزم ومن دون رحمة خلال الاضطرابات التي عمت شمال وجنوب العراق عقب (عاصفة الصحراء).

وكان عزت ابراهيم في السنوات الاخيرة الشخصية الثانية، قابعا في الظل الذي اسقطته شخصية صدام حسين الضخمة. ولكن من اللافت انه لم يحاول تسليط الأضواء على نفسه. وبإعلان منه دار الحديث في العراق عن أمراضه وتوعكه اللامنتهي، على الرغم من أنه كما يبدو فعلا شخص غير معافى تماما. ان نهجه الخاص قام على إعطاء اشارات لصدام وحاشيته بان عزت ابراهيم لا يدعي بشيء.

وغدت المهمة الأولى لسفارتنا الباقية في بغداد هي نقل رسائل القيادة السوفيتية ودول اعضاء مجلس الأمن الدولي،... إلخ، الرسائل لصدام حسين والقيادة العراقية. وكان العراقيون مقطوعين عن العالم الخارجي. وكانت لهم اتصالات على نحو ما مع الاردن، وسافروا إلى هناك بالسيارات، على الرغم من أن هذه السفرات كانت محفوفة بخطر بالغ، فالطيارون الأمريكيون لاحقوا السيارات التي تظهر في طرقات غرب بغداد، مشتبهين بان لها علاقة ما بنقل صواريخ (سكود).

وبقى عند العراقيين قناتين مستقرتين وحسب - السفارتان السوفيتية والفلسطينية - ومن بعد اتضح ان العراقيين نادرا (أو ربما غالبا) ما استخدموا تلفون الاتصالات الدولية في مكتب فضائية (أس أن أن) ببغداد. ولكني آخذ على عاتقي التأكيد إن قناتنا كانت أكثر أماناً، على الرغم من أن نقل مثل تلك الرسائل من موسكو إلى واشنطن أو نيويورك تطلب احيانا وقتا أطول. وكما اتضح في سير

العمل خلال أيام الحرب، ان العراقيين كرروا نقل الرسائل التي بعثوها من خلالنا من عبر السفارة الفلسطينية، ولكن لم يطلعونا على ذلك.

ولم تترتب آلية الاتصال بالعراقيين ونقل هذه الرسائل (وبلغت احيانا في اليوم عدة رسائل من الطرفين) فورا وليس من دون صعوبات. واصطدمت في أول يوم للحرب بواقع إجلاء كافة الاجهزة الحكومية (الأرضية) إلى مخابئ ما تحت الارض. وتجدر الاشارة إلى ان التحضير لها تم برصانة. وفي أول يوم قصف بغداد ادركت ومرافقي (السائق يامبولاتوف والملحق كريفوشيف) عندما خرجنا من وزارة الخارجية حين تعرضنا لهجوم موهوم (بالغاز) ولم نعثر على أحد، ان تكليف موسكو الفوري لم ينفذ. وقد اقلقني ذلك، لأني ادركت ما كان وراءه. وبصراحة كان هناك أمل (تحول إلى وهم) معقد على أن صدام المكسور بالضربة الأولى الهائلة، سيقبل حالا بكافة الشروط ويخرج من الكويت. ومهما كان الأمر كان يجب تنفيذ التكليف، بينما اصبحت المدينة خاوية وموحشة. قمت بما كان ممكناً في تلك اللحظة. ونظرا لعدم السماح لنا دخول قصر الرئيس أو وزارة الدفاع التي تعرضت توا للقصف، أو حتى ربما اطلقوا النار علينا، طلبت ان يوصولني إلى قيادة ما يسمى الجيش الشعبي، الذي قاده طه ياسين رمضان. وعقدت الأمل على العثور عليه والالتقاء به. وبالطبع لم يكن رمضان هناك، ولكن دخلت في حديث مع حرس المبنى، وطرحت بشكل عام نيّاتنا. في البداية طلبوا منا الجلوس في السيارة، ومن ثَمَّ في الباحة الأمامية، ولكن بعد ذلك جاءت سيارة من اجلي، واقلوني إلى المخبأ حيث طارق عزيز ووزارة الخارجية العراقية بكاملها.

وكان ذلك صباح أول يوم الحرب. ورتب منتسبو الوزارة قبل قليل حالهم في المخبأ. وجرى تصفيف الطاولات في القاعة الكبيرة بانتظام، بحيث إن كل واحدة منها دل على قسم أو إدارة. وهنا تزاحم العراقيون زمرا. استقبلوني بترحاب خاص، ومن الواضح كان مجيء مهم ليس فقط كسفير للاتحاد السوفيتي، ولكن كإنسان، جاء من فوق، وهذا يعني إذن يمكن التنقل في المدينة. وكان هناك نواب طارق عزيز. وقادوني إلى مكتب الوزير الصغير، واستقبلني بدفء بالغ، واستلم الرسالة، وافترقنا بعد محادثة قصيرة. وأوصلوني إلى السفارة (قبل ذلك طلبت من طارق ان يُبَين سائقه لسائقي الطريق في المخبأ، وقام بذلك بكل سرور). وفي السفارة ابلغت حالا موسكو عن محادثتي مع الوزير، واضفت ان عزيز استقبلني في مخبأ. واردت من خلال هذه التفاصيل ان تفهم موسكو بإقامة اتصال مأمون بطارق عزيز، وان كل شيء على ما يرام. ولكن ما حصل ان رئيس إدارة الصحافة والإعلام في وزارتنا فيتالي تشوركين، اخبر في إيجاز للصحفيين الأجانب عن واقع لقائي بطارق عزيز، وافاد بانه جرى في ملجأ. واثار هذا غضب العراقيين. ولامني عزيز بزعل صريح على ذلك. وفي الحقيقة جرى نقل وزارة الخارجية العراقية من هناك، وليس بذنبي ولكن لأنه لم تعد هناك ضرورة للخارجية بكامل قوامها.

لم أتمكن من الوصول دائما لطارق عزيز، فهو كعضو لمجلس قيادة الثورة ووزير نافذ، غالبا ما يكون لدى الرئيس، ولذلك لا يمكن الوصول له. وتسنى لي الالتقاء غالبا بوزير الدولة محمد الصحاف. ولحد الان احتفظ بالامتنان لهذا الشخص. وهو، السفير السابق في ايطاليا، فهم صعوباتي ودائما حاول تقديم المساعدة. وجرت غالبية محادثاتنا على الطريقة التالية: أستل أنا النص الروسي،

وأملي عليه الترجمة بالعربية، ويقوم هو بتدوينها باعتناء. وكان خطه جميلا كانه خط آلة طابعة، وذهبت تقاريره مباشرة إلى الرئيس. وفي الحقيقة ليس هناك طريق آخر، نظرا لأنهم لم يسمحوا للطباعين للاطلاع على مثل هذه المراسلات، فضلا عن اني لم ارَ هناك موظفين عاديين. وتجدر الاشارة إلى ان كل العمل خلال الحرب في الاجهزة العراقية تركز في الاعلى - الوزير ونوابه ومكتبه ومدراء الإدارات النافذة وبعض الخبراء. وتم تسريح الملاك الآخر في عطلة باجازة. ففي وزارة الخارجية مثلا، كان على الموظفين العاديين الحضور مرة واحدة كل 10 أيام. وغادر غالبية موظفي الدولة بغداد وتفرقوا على القرى حيث المناطق الآمنة.

نقلوا وزارة الخارجية من المخبأ على ما يبدو على جناح السرعة، بعد ان قرروا ابقاء إدارتها على الرئاسة. وتم على جناح السرعة تنظيم ما يسمى بمكتب وزارة الخارجية العراقية في حي المنصور البغدادي، حيث اصبح بوسع الممثليات الأخرى التوجه من خلاله بأية قضية. وهناك جرت أول لقاءاتي بمحمد الصحاف ونائبي وزير الخارجية سعد الفيصل ونزار حمدون. وكان يناوب على مدى مدار الساعة (وبخاصة في الطابق الأول) موظفو قسم المراسم، اما الآخرون فيقومون بزيارات خاطفة للمكتب. في الأيام الأولى تسكع موظفو الخارجية على هيئة مجموعات عند الباب وفي الممرات، ومن ثَمَّ جرى العمل بنظام رحيم. وبقى في مكانه الحرس الذين أود ان أقول الان بحقهم كلمات طيبة. لقد انعقدت صداقات مع هؤلاء الأشخاص نظرا لأنه قد تعين طلب المساعدة منهم، حينما لم يكن احد في المكتب.

وبعد جولتي الفاشلة في المخبأ ترتبت طريقة غير مريحة لنقل الرسائل. في البداية يذهب المستشار كوزمين للتبليغ عن ان لدى السفير رسالة أو معلومات هامة. ويحددوا لي موعدا، واذهب إلى المكتب، حيث ينتظرني عادة محمد الصحاف أو واحد من نواب الوزير. (وعلى حد قول الصحاف انه امضى في وزارة الخارجية 40 يوما متتالية، من دون ان يزور عائلته ومنزله - وقد استغربت من سماعي ان لديه عائلة وأطفال). ومن ثَمَّ توصلنا مع العراقيين إلى استنتاج مفاده ان هذا الاسلوب ذو الدرجتين يشغل وقتا طويلا، ورحت أملي الاوراق مباشرة على المناوب في المكتب. وغالبا ما كان من موظفي قسم المراسم. وهذا ما احرجنا. حيث ظهر ان هناك قرار بعدم السماح لهذا الصنف من الموظفين التعامل مع المراسلات على هذا المستوى وبذلك المضمون، الذي دار الكلام عنه في تبادلاتنا. وانتهت القضية بان جاءت سيارة لتقلني، وقال لي موظف الخارجية بانه مكلف من قبل طارق عزيز ان يبين لي الطريق إلى مبنى تواجد وزارة الخارجية الذي سأذهب له حينما يطلبون مني المجيء. اجلسوني في سيارة وغادرنا المنصور بالسيارة باتجاه شمال بغداد - الكاظمية، حيث مبنى كلية الطب قرب الجامع الذهبي وهناك كما فهمت كان مجلس الوزراء ووزارة الخارجية والوزارات الأخرى. وعلى كل حال هناك أجريت مرات عديدة لقاءات بطارق عزيز وسعدون حمادي (كان حينها نائبا لرئيس الوزراء وبالتالي اصبح رئيسا للوزراء)، ووزراء التجارة والتخطيط وغيرهم. وكنت من ناحية مسرورا لتوفر الفرصة لي للالتقاء بالوزراء بما في ذلك طارق (وفي حقيقة الأمر ان لقاءاتنا غدت أكثر). ولكن من الناحية الثانية ان خطة العراقيين تكمن في اننا سنذهب لهم وليس هم لنا. وهذا يتعلق بقضية الشجاعة،

وكيف انهم قدروا حياتنا. فإذا كانوا محتاجين لنا لم ياتوا بأنفسهم للسفارة بل يرسلوا موظفا من مكتب الخارجية ويطلبوا منا الذهاب لهم. وبهذه الشاكلة استثنوا تنقل منتسبي الوزارة العراقية في المدينة وبخاصة ليلا (حين يكون التنقل في المدينة أكثر خطورة) وكلفوني وكوزمين القيام بهذه المهمة.

وكان التنقل بالحافلات مساءً وليلا غير مريح. حيث غرقت المدينة الضخمة بظلام دامس. فضلا عن ذلك انتشر الضباب الليلي بسبب الشتاء، وإلى جانب ذلك مُنع فتح الاضاءة وسُمح فقط للحظات بإضاءة الطريق على مسافة 30 - 40 ثم التحرك في الضباب. وأتذكر في إحدى الامسيات الأولى جاء حمادي مساعد الرئيس الذي عين فيما بعد وزير للثقافة ورافقه محمد الصحاف. استلمت انا الرسالة واقترحت عليهم شرب الشاي، وبعد ان احتسوا الشاي كان عليهم العودة. جلسا في السيارة، وكان حمادي خلف المقود، بينما بدأ القصف حولهم. وحينها رايت كيف ان الناس (يكشفون عن طبعهم) وكيف انهم يتغلبون على الخوف بمحاولة التنكيت، كما لو أنني رأيت نفسي في مرآة عاكسة.

تأملات حزينة عن العراق ودكتاتوره وعن العلاقات السوفيتية - العراقية

فيما كنت اراقب تطور الميول في العراق خلال الحرب، ولا سيِّما بعدها، بدأت اشعر بقلق من أن القضية لا تنحصر ببساطة بوجود صدام أوبرحيله، على الرغم من أن هذا بالطبع كان يمكن ان (يخرق السد) ويلغي (آلاف) المشاكل. بيد ان العراق تحول تدريجيا إلى خزان حقد هائل على العالم الخارجي، سحبه العراق على العرب وبخاصة على بلدان الخليج. واتفق لي ان سمعت شخصيا في بغداد من شباب تتراوح اعمارهم 22 - 24 عاما قولهم: «اعطونا 10 - 15 سنة، وسنعيد الكويت». وكتب سعد البزاز في شباط/فبراير 1992 في جريدة الجمهورية: «ينبغي اجراء دروس حقد خصوصية على من دمر البلاد، حتى يتشرب الأطفال مع حليب الأمهات الحقد المقدس». واتفق لي في 1992 - 93 ان سمعت من العرب الآخرين بان مصير الكويت بكل الاحوال محتوم، وانها لن تكون، وان العراق سيبتلعها عاجلاً أم آجلاً. إنّ للعراقيين موقفا له خصوصيته من العرب الآخرين، انه خليط من انعدام الثقة والاحتقار باعتبارهم مستلبي وضعيفي الإرادة ومستسلمين للغرب. وعززت الحرب في الخليج هذه المشاعر. وإني على يقين مطلق بان انبعاثات هذا الحقد تكشف عن وجودها. لقد حدث انقلاب

غير مألوف في وعي العراقيين، وحتى في وعي الكثير من العرب - فالعراق هو الذي احتل الكويت وابتلع ثرواته واعاد القليل منها، بينما يبقى العراقيون والكثير من العرب الذين يتعاطفون معهم، مستائين. وهنا تؤثر الكراهية العميقة على اثرياء الخليج - بشكل من أشكال الحس الطبقي. وحتى لو ان الثري كان على حق متين - فعلى الاغلب ان الفقير سيفهم الفقير، الذي سلب من الغني ثروته. وكان من المفترض ان يستاء العرب من العراق - فاية تداعايات وتركات خلفها احتلاله للكويت على العالم العربي بأسره، ولكن مع ذلك تعاطف العرب مع بغداد.

واتفق لي كذلك ان أخوض جدلا مع العرب، في أماكن أخرى. وحججهم - انكم أي الاتحاد السوفيتي غدرتم بحليفكم. ولكن أولاً - اننا لم نغدر بل صدام حسين هو الذي غدر بنا. فقد كانت بيننا معاهدة، وكان على صدام ان يُطلعنا على خططه بشأن الكويت. ففي نهاية المطاف انها مست مصالحنا بصورة مباشرة! وثانيا ان العراق البعثي لم يكن حليفا للاتحاد السوفيتي، إن ذلك كان استبدالا مخادعا للمفاهيم. وإلى حد معين كانت لدينا علاقات تقارب (ايديولوجيا) في أعوام 1972 - 1973 بالرغم من أنه وحتى 1968 كانت علاقات الحزب الشيوعي السوفيتي، باعتباره الحزب الحاكم بحزب البعث العربي الاشتراكي على الأرجح عدوانية. ومن ثَمَ تحت يافطة لعب البعثيين في اليمين واليسار (على الرغم من أن نبز (اليمنيين) دائما لحق بالعراقيين خلافا للسوريين) حاولنا في 1968 وحتى 1973 تعديل خطنا نحو اتجاه أكثر ودي. ولكن حقيقة العلاقات كانت متوترة - وشعرت بذلك في الميول في قسم الشؤون الدولية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. وتمثلت ذروة الصداقة بدعم موسكو لتأميم (شركة

نفط العراق) في 1971 والتوقيع في 1972 على معاهدة الصداقة والتعاون. ومن ثَمَّ تعاقبت الخطوات: غلق المركز الثقافي في بغداد، وملاحقة الشوعيين، وتقليص الاتصالات الحزبية. تفاصيل مميزة: في عام 1976 حضر حفل الاستقبال في سفارتنا بمناسبة أحد الاعياد الوطنية فقط نائب رئيس قسم المراسم في وزارة الخارجية العراقية.

إن الحرب مع إيران التي تورط بها العراقيون في 1980، لم تزد التقارب، بالرغم من أنها اضافت الاموال في خزينتنا. وإذا اكون حقا صادقا فعلاقات موسكو بالعراق، بما في ذلك مع البعث تشكلت بالكثير بتأثير ايرادات العملات الصعبة. وأتذكر كيف كان رئيس اللجنة الحكومية للعلاقات التجارية حينها سكاتشكوف يتغنج بالأرقام ويقول ان 42% من ايرادات العملات الصعبة في جهازه ترد من العراق - لقاء أسلحة ومكائن غير حديثة وبلاتين والدفع عن خدمات الخبراء وغيرها.

ولم تكن بيننا ابدا علاقات تحالفية. وأتذكر كيف وصلتنا في عام 1972 نشرة داخلية لحزب البعث العربي الاشتراكي اشير فيها إلى ان الغالبية المطلقة من البعثيين معادية للماركسية وللشيوعية، بما في ذلك السوفيتية وان النهج القائم على اقامة علاقات مع الاتحاد السوفيتي لا يعدو غير تاكتيك. ولكن يمكن ان يكون التاكتيك طويلاً ويمكن الولع به. وأتذكر كيف ان صدام حسين قال مرارا لليوند بريجنيف والكسندر كوسيجين ينبغي ان نجعل من العلاقات العراقية - السوفيتية نموذجا ليس للعرب فقط وانما لسائر العالم الثالث.

وبالمناسبة فان هذا الطرح لم يجد الدعم الدقيق من موسكو. بينما كان لدى صدام حساب واحد هو ان ينهال الاتحاد السوفيتي عليه بالوسائل والأسلحة ويجعل من العراق دولة جبارة في الشرق الأوسط.

واللافت ان تدهور العلاقات وتشديد التجسس والرصد علينا وملاحقة الشيوعيين، جرت على خلفية الاتصالات الكثيفة بين اجهزة مخابراتنا. لقد نمت أجهزة المخابرات العراق وتحولت إلى مارد وغول ووحش، بمساعدتنا وإسوة بنا. كانت كثيرة. وادارها سعدون شاكر الذي عزله صدام حسين فيما بعد بسبب تركز جهاز جبار بقبضته. وكان في بغداد ممثل (الكي جي بي) وقدم النصائح ونسق وصول المعلمين. وجرى تبادل المعلومات بينهما بما في ذلك خلال الحرب. ولم يرغب أحد بغلق هذه القناة. ربما للرهان على الاحتيال ومعرفة أكثر مما يقدمه من معلومات.

والان وبعد ان أوضحنا ان الاتحاد السوفيتي لم يرتبط بالعراق بعلاقات تحالفية، نعود إلى جوهر ما حدث. ان العراق قام بعمل لصوصي غير مسبوق، عمل على مستوى ارهاب دولة، حيث احتل بلدا وابتلعها وحتى استبدل اسمها واطلق عليها المحافظة - 19. حتى هتلر لم يسول لنفسه بذلك بالرغم من وجود اغراءات لديه بذلك. فكيف يمكن اعتبار هذه الدولة، حليفاً؟! ومن ثَمَّ لا يريد الناس ان يفهموا ان عراق ما بعد صدام سيكون عراق معادي لصدام. وإذا مات موتا طبيعيا فسيلحق به ذكرى الدكتاتور والخزي والعار مئة مرة. وستبقى طموحات العراق وسيبقى طبع العراقيين، ولكن صدام سيكون ملعونا.

تصدر تقييمات مختلفة لصدام حسين، بيد ان الكثيرين يعتبرونه شخصية فذة. ولن اتطرق إلى مقارنته بستالين نظرا لأن صدام لا يمكن ان يبلغ إلى هذا المستوى. اما بقدر الشيطنة والشر واحتياطات السادية فانه يقف إلى مستوى بيريا وجيملر، الذي كانوا إنسانيا تافهين وحقراء. ولا يجوز وضعه بمصاف ستالين وهتلر لأنهما كانا اثقل مضموناً: فهتلر بالرغم من نذالته كان يرسم جيدا وإلى حد ما هو قارئ جيد وموسوعي. وكتب ستالين الشعر في شبابه، ولاحقا استمر بالاهتمام بالادب والسينما والمسرح. ولكن ما يجمع بينهم، وبخاصة بين صدام وستالين هو القسوة الوحشية وبصورة منحرفة عدم الثقة بأقرب الأصدقاء الذين ابادهم الاثنان بصورة منهجية.

وانا لست من محبي عبقرية ستالين كقائد عسكري، فضلا عن هتلر. ولكن خلفهما انتصارات عسكرية، اما صدام فخلفه فقط الهزائم أو الانتصارات المشكوك بها، مثل النصر على إيران. وعلى العموم ان صدام كان (فذاً) بسطحيته. فهو لم يعرف اي شيء على مستوى مهني. درس القانون وقدم الامتحانات للأستاذة حينما كان الشخص الثاني في الدولة والحزب. واطلقتُ عليه في دخيلة نفسي في عام 1970 بالسفارة ليس الشخص (رقم واحد) وانما الشخص (واحد ونصف) نظرا لأنه كان يزاحم أحمد البكر الضعيف - رئيس العراق حينذاك. وأتذكر حينما كان صدام يدرس، نشرت الصحف المحلية مقالاته حول ما يسمى المشاكل (النظرية) لحزب البعث العربي الاشتراكي - دور الحزب وبناء الدولة والعلاقات الدولية. لقد كانت نقاشات مدهشة بتفاهتها وبسطحيتها وابتذالها، إذا حكمنا عليها كبحوث نظرية. كان هناك شعور بان دكتاتور العراق القادم

طفق يفهم شيئا ما عن العمليات السياسية التي تدور حوله، وقرر بكرم تقاسمها مع البلد. كانت اعمالا تافهة على الرغم من أنها مطروحة كثوابت لا اعتراض عليها، ووعظية وتعليمية. ونحن في السفارة كنا مضطرين لدراستها وان نميز في النقاشات الواسعة شيئا ما عقلاني منها يسلط الضوء على توجهات وعمليات الحزب الحاكم الداخلية. وينبغي الاعتراف بان سلسلة هذه المقالات كانت دليلا على درجة ما جديدة في تطور صدام الفكري السياسي: (الارهابي طفق يتفلسف) وهذا بحد ذاته مضحك. ولحد ما تعيد ربما للاذهان أعمال ستالين الأولى الخرقاء بشأن القضية القومية. وبالمناسبة فان صدام حسين تمرن كثيرا جدا على التنظير بالقضية الكردية. وانتهى هذا بشن هجوم جوي بالغاز وتسميم بالكيماوي قرية حلبجة الكردية في عام 1985. هذا هو (الحليف) والمُنَظِر.

أتذكر كيف أننا اخذناه، خلال إحدى زيارته إلى الاتحاد السوفيتي إلى مدينة لينينغراد (بطرسبورغ حاليا)، وقمنا بدعوته مساءً لمشاهدة مباراة الهوكي. وكلفوا وزير صناعة اللحوم والالبان انطونوف لمرافقته، وبشكل مفاجئ غادر الملعب منذ الشوط الأول. واعتبر صدام ان دعوته لمشاهدة مباراة الهوكي كإهانة له، ولم يتخاطب مع وزيرنا. ولم يكن لدية ولو ذرة من حب الاستطلاع للتعرف على الجديد وعلى حياة شعب آخر. ليس عنده اي ولع ما عدا صيد السمك، إذا ما اعتبرت كلمة (الأمن) التي ولع بها هي سبب كل الشؤم وغياب الأمن.

ومارس صدام هذا بنكران ذات، بيد انه لم يكن يبدي حتى في هذا المجال مهنية، ولم يكن خبيرا أو ماهرا ولا ضليعا به. وكان يعرف الكثير وترأس شخصيا

أنشطة أجهزة المخابرات كثيرة العدد واجهزة مكافحة التجسس، ولكن المخابرات العراقية بشكل عام تألفت من البعثيين البُلداء الذين يفكرون ببطء، والقُساة بكل معنى الكلمة، لم تحقق اية نجاحات. وبعبارة أخرى كيف يمكن على سبيل المثال تفسير أن أحداً لم يحذر صدام حسين عن القدرات الفعلية لدى إيران عشية الحرب الإيرانية - العراقية في عام 1980، وكيف اتاحوا المجال لشفارتسكوبف ان يخدعهم خلال (عاصفة الصحراء)؟ وبالمناسبة فان العراقيين بأنفسهم اعترفوا لي بفشلهم على مسار أحد جهود التجسس الخارجي، وكانت المقصود السعودية. وما يتعلق بمكافحة التجسس فأي كلام يمكن ان يدور عن اداء عمل مهني بشكل حسن إذا كانت الوسيلة الرئيسية - تمت بافضل تقاليد الستالينية - تعتمد على اغتيال الزملاء والرفاق.

وإذا ما تحدثنا عن أعمال صدام حسين الإيجابية وعن النجاحات التي تحققت بقيادته، فانها على الأرجح تعود إلى المرحلة الأولى من قيادته. حيث استطاع التغلب على النفور من الاتحاد السوفيتي والشيوعية ومن الشيوعيين العراقيين، وسحقه في نفسه، وبدء فصل جديد في العلاقات وقلب الصفحة الدموية لأعوام 1959 و1963 حينما جرت تصفية حسابات بين الحزب الشيوعي العراقي والبعثيين. وكان هو المبادر لعقد اتفاقية مع الاكراد في عام 1970 بالرغم من أنه اتضح من أن تلك كانت خطوة لصرف الأنظار عمّا حصل بعدها من الهجوم على معسكر الكرد الوطني وسحقه في عام 1975 بعد الاتفاق مع شاه إيران. وبالتالي تأميم (شركة النفط العراقية) في 1971، بالرغم من أننا ندرك اليوم إن صداماً كلاعب مجازف كان يخادع في تلك الأثناء، وراهن بكل شيء بما في

ذلك على انتعاش اقتصاد البلاد. وراهن على أن الاتحاد السوفيتي سيضطر بكل الاحوال إلى دعم العراق، ولم يكن في ذلك بعيداً عن الحقيقة.

وبالمناسبة، بصدد تأميم شركة النفط العراقية، فاني غالبا ما افكر بانه لو ان العراقيين وبالذات صدام قد هدأوا بعد هذه المغامرة السياسية الجريئة التي نجحت، وساروا على طريق التطور، ولم يرسلوا كل يوم إشارات تحدي ومواجهة للغرب، ولو لم يلقوا على عاتق الشعب نفقات عسكرية أكثر من طاقته، ولم يتورطوا في حربين عقيمتين مدمرتين، لكان العراق الآن ليس أفقر من السعودية. وربما ان تطوره مضى بمسار مثمر أكثر، إذا اخذنا بعين الاعتبار ان بلاد النهرين غنية بالماء، والأراضي الزراعية الواسعة، وهي دولة كبيرة من ناحية عدد السكان، ما يوفر لها عددا اكبر من الاختصاصيين والايدي العاملة.

وكانت الخطوات اللاحقة لصدام حسين في مجال قيادته للبلاد والحزب عبارة عن سلسلة من الحسابات الخاطئة، افرزت تبعات مأساوية واسعة المدى بالنسبة للشعب العراقي. وانه برز كشخصية فاشلة كبيرة ومتغطرسة بلا حدود. وبالطبع طُرحت الخسائر والفشل على أنها انتصارات، على الرغم من كونها انقلبت إلى مصائب هائلة على العراقيين. ويبقى فقط الشعور بالدهشة للصبر الذي تجرعه الشعب بنفسه لتحمل هذه الآلآم والمصائب. لقد كان صدام يعاني طيلة الوقت من عقدة حسد من الرئيس المصري جمال عبد الناصر، ليس لأنه اعتبره شخصية بارزة، وكان يتحدث علنا امام الناس باحترام عميق لعبد الناصر. لقد كانت عقدة صدام تنحصر في شيء آخر. ان ما غذى حسده هو ان ناصر كان

رئيسا لأكبر دولة عربية، واُعتبر قائداً للعرب باسرهم، اما هو ومهما اتعب نفسه (وقد اتعب نفسه بكل ما لديه من قوة) فقط للعراق. ولهذا جرى توظيف كافة الوسائل لرفع مكانة العراق بما في ذلك عدد نفوس سكانه. فإلى جانب التدابير للاستحثاث على الولادة كان هناك زيادة مزيفة للمعطيات الاحصائية. وكانت هناك مظاهر جانبية، مثل اضفاء الطابع الوطني على كرة القدم العراقية. أتذكر وصول عدنان القيسي لبغداد في عام 1973 مصارع - wrestling من اصل عراقي، واعلنه العراقيون الذين لم يميزوا الأمور بطلا للعالم، ونظموا له مصارعة استعراضية وتم استقباله على ارفع المستويات، بيد انه ظهر رياضياً عادياً ولكنه رجل عمل نصاب. ومن ثَمَّ تفاعل العراقيون بألم ممض مع التلميحات عن حقيقة عدنان القيسي.

بمعنى من المعاني ان العالم بنفسه صنع صدام بالهيئة التي ظهر بها خلال المغامرة الكويتية، وتساهل الغربيون معه في قضية تأميم شركة النفط العراقية، ولم يعاقبوه كما يجب، عاقدين الآمال على تدجينه. ان الرغبة الأزلية في التدجين لم تبرر نفسها، واستغل هو ذلك، ان صدام وحش لا يمكن تدجينه، شبيه بالذئب الذي دائما ينظر إلى الغابة. ونحن (الاتحاد السوفيتي) تساهلنا معه بغلقه مركزنا الثقافي في بغداد، (بالنسبة لصدام كان وضع الاتحاد السوفيتي على المحك، اختبار للقوى) ومن ثَمَّ الإبادة الجماعية للشيوعيين. وتساهل العالم بأسره معه بقضية التنكيل بالمعارضة المحلية والمخالفين لآرائه. ومن ثَمَّ كانت ردود فعل العالم المزدوجة، بما في ذلك الغرب على استفزازه الحرب مع إيران ومن بعدها قصف حلبجة بالأسلحة الكيماوية. وتشكل لدى الدكتاتور بالتدريج مركب الإفلات

من العقاب. وكان على قناعة تامة بان الساسة الغربيين - مخنثون ذو ايادي بيضاء، اعطبتهم الحضارة وانهم لن يجرؤا على معاقبة بغداد بالقوة.

تتحدث الحقائق عن ان الولايات المتحدة الأمريكية في الوقت الذي لم تتخلص فيه من العقدة الإيرانية (وهي لم تتخلص منها لحد الان) طيلة الحرب العراقية - الإيرانية التي استمرت ثمانية سنوات من 1980 - 1988 تغازلت سرا مع بغداد وساعدت سرا صدام حسين. وعندما دمر عن طريق الخطا في 17 مايو 1987 بصواريخ اكزوسيت الفرقاطة الأمريكية (ستارك) ابتلعوا مرة أخرى وانتقموا من إيران بضرب ايروبس إيراني بالخطأ من سفينة (فينيبيغ) في 3 تموز/يوليو 1988. ان القسوة التي تعاملت بها واشنطن مع العراق في مجرى حرب الخليج، كانت بمثابة تصفية حسابات على الخط الخاطئ الذي انتهجته لسنوات طويلة.

إن كافة الأعمال التي قام بها صدام حسين عشية المغامرة الكويتية وخلالها كانت حسابات خاطئة كبيرة. فهو لم يشك انهم سيوجهون الكويتين نحو تبني خطاب متشدد مع العراق، وعلى العكس وضع الحساب على أنهم سيعاندون ومن ثَمَّ ينكسرون نهائيا. كان هذا خطأ صدام الأول. وكان قد فكر بان الخط الأول للمجتمع البشري سيكون الاقناع، بينما اختار المجتمع سبيل الاعمال الحازمة. والخطأ الثاني: انه تخيل ان الأمريكيين الذين انهزموا في فيتنام والعقدة الإيرانية لا ولن يجرؤوا على القيام بعمل عسكري وسيلاطفونه، وتبدأ مقايضة طويله سيكون بها في موقع قوي لكونه متمسكاً باحتلال الكويت. وفي كل الاحوال

راهن صدام على المباحثات، والمبادلة التدريجية، اما الأمريكيون فقد طفقوا فورا بالتحضيرات العسكرية. وهذا خطأه الآخر.

وافترض صدام حسين ان الاتحاد السوفيتي ومهما كان الأمر سيضطر للوقوف إلى جانب العراق ويبرر اعماله ويخلصه، ومن جديد اخطأ الحسابات بشدة، ويبدو انه لم يشعر برياح التغير التي سادت في موسكو والحيوية الاجتماعية الجديدة والتغيرات في ميول الاتحاد السوفيتي وابتعاد القيادة السوفيتية (وكانت هذه مفاجئة لصدام حسين) عن علاقات الشراكة السابقة والتصورات عن كيف ينبغي التصرف في الشؤون الدولية. وكانت حسابات الأمريكيين هنا افضل. اضافة إلى انهم عملوا بشكل وثيق مع موسكو ومارسوا اقناعها واعطوا لها الوعود، وقصارى القول انهم مارسوا الضغوط. وكان صدام حسين قد زار موسكو في ديسمبر 1985 والتقى بميخائيل غورباتشوف، بيد انه خرج من اللقاء دون ان يفهم شيئا، وخأمره شعور خفيف بالخيبة. وعقب محادثته مع السكرتير العام التقى مع وزير خارجيتنا حينها اندريه غرميكو. وفيما تصافح مع السوفيت المشاركين في المحادثات لمحني وف ف جودييف (وكلانا عمل سابقا في بغداد) فقال صدام حسين: «كلا، مع ذلك لدينا أصدقاء في موسكو». وحينها لم المس تماما فكرة ما قاله، اما الان فهمت ان العبارة جاءت نتيجة خيبة الأمل في المحادثات مع ميخائيل غورباتشوف. وربما ان صدام فهم بعض الاشياء حينها، ولكن ليس للنهاية، والمسالة الرئيسية انه لم يخرج باستنتاجات.

وافترض دكتاتور العراق ان الحرب ستكون بصورة رئيسية برية وسيُمنى الطرفان بخسائر جسيمة، وهذا ما يرغم الأمريكيين والمجتمع الدولي على التحرك بكثافة لوقف المعارك. وبمعنى ما (ولتكن مفارقة) ان (فشل) صدام حسين كان بقلة خسائر العراقيين. وبوسعي التاكيد بانه تحسر وشعر بالاسى لذلك. كان بحاجة إلى التوابيت من كلا الجانبين، وان تكن كثيرة بينما حُسمت الحرب على الاغلب بالغارات الجوية. وتجلت بخطأ الحساب هذا طبيعة صدام حسين كعسكري - متعلم ذاتيا وكقائد غير مؤهل لا يرغب بأخذ راي المحترفين بعين الاعتبار وانما عَدلَ الخطط والتصورات لتتلائم مع رؤيته التي تشوبها العيوب. وتلذذت وسائل الاعلام العراقية، قبل بداية العملية البرية بتصريحات صدام حسين وحاشيته عن ان الأمريكيين سيغرقون بدمائهم عند وضع اقدامهم على الارض العراقية. وبالمناسبة ففي هذا أحد اختلافاته عن ستالين الذي لم يؤمن بخطاب ماكنته الدعائية، ووجهها بنفسه وراقبها بشدة. وكانت وسائل اعلام صدام فعلا اقل قيودا واوسع فنتازيا ووسمت الراي العام بايمان اعمى، أو بالاحرى بمديح الذات والفنتازيا التي لم تتعزز بالثقة بالنفس وعملت لصالح صدام نفسه. ان العراقي بوجه عام كائن انفعالي وسريع التصديق يشعر حينما يكون بالقرب من القائد بنشوة روحية ويشتعل ويؤمن، بيد انه يبرد بسرعة ويتحول إلى موقع يكاد يكون معاكساً.

اضافة لذلك اعتقد ان عموم العراقيين في عهد نظام البعث اصبحوا منافقين ذوي وجهين. الأول وجه ظاهري - المشاركة في الاجتماعات ومظاهرات الايمان الأعمى والدعم والاحترام لأجهزة المخابرات والأمن والحزب، (العراق

فوق كل شيء). والثاني - الكفاح من اجل البقاء في ظل الصعوبات الاقتصادية والحرمانات، والتخلق عميقا بعادة التزام الصمت. وحسد صامت للخليجيين، والتركيز على العائلة والشؤون الخاصة، وبالخلاف عن الحرب الإيرانية، انهم على العموم لم يحاربوا، وانما قلدوا المعارك القتالية، وعلينا ان نشعر جميعا ولا سيِّما الأمريكيين بالامتنان على هذا. فثمة شيء ما في هذا.

وينبغي ان نضيف على هذا، بان جيلا كاملا من العراقيين تعبَ من حكم البعثيين. وقال لي أحد معارفي العراقيين، ان البعثيين تلفوا حياته، كونها انحصرت في الشعارات والمؤامرات الداخلية والحروب والدعاية المعادية للامبريالية. والدعوة للخدمة العسكرية واعادة التدريب والمنع من السفر إلى الخارج، وغسيل الأدمغة المستدام. ومن وجهة نظري كان هذا أكثر الاعترافات، التي اتفق لي ان اسمعها، مأساوية، نظرا لأنه صحيح من أول إلى آخر كلمة. نحن نسدد بصدام فنصيب الشعب الذي يعاني منذ 1968 اي منذ وصول البعثيين للسلطة، وهو آخر من يستحق العقاب. وينبغي فقط التعاطف معه. ومن جهة أخرى فان امتناع المجتمع الدولي عن تدابير الإجبار على تنفيذ القرارات الاممية يعني منح جائزة لصدام حسين.

إذا ما صبر العراقيون على آخر نفس في 1980 أبان الحرب مع إيران، لأنهم حينها أحسوا بخطر مميت تشكل لديهم منذ زمن سحيق من جارهم الشرقي - ففي حرب الكويت لم تعد لديهم قوة ولا قناعة داخلية. انتابهم الخوف من التحالف الدولي، على الرغم من أنهم تظاهروا بالشجاعة. ان عدم تقدير

تعب الشعب هذا كان أحد اخطاء حسابات صدام حسين. وقد اخفى العراقيون التعب النفسي والبدني، ليس عن زعيمهم وحسب وانما حتى عن أنفسهم. ولم يعِ بعض العراقيين ذلك. واؤكد بمسؤولية ان صدام في تلك الأثناء لم يفهم شعبه ومزاجه وميوله الحقيقية ومستوى حيويته. وفي الحقيقة كان العراقيون البسطاء يمتلكون فرصا ضئيلة لإيصال اشارة له كي يعرف ميولهم تلك. ان هذه الفرص كانت بشكل عام معدومة عمليا. وخدعت شعب العراق ابتهاجات المرحلة الأولى مباشرة بعد احتلال الكويت، وفرح بانتصار الأسلحة العراقية، وفي نهاية المطاف احقاق العدالة بحق حديثي النعمة الوقحين المتخمين من الكويت، الذي كان في يوم ما قضاءً تابعا لولاية البصرة. وبالمناسبة فقد اتفق لي ان أسمع عشرات المرات هذه الحجج التي تفيد بان الكويت جزء من العراق. ومن ثَمَّ في الوقت الذي جرى فيه تغذية هذا الابتهاج والانشراح ماديا وبالحبور بالنصر، انطلقت عمليات نهب الخيرات من الكويت. وبهذا الشكل فان العراقيين لم يتمعنوا بالتفكير بميولهم الداخلية والوضع القائم وإلى حد التعب الذي بلغوه في ليلة 16 على 17 كانون الثاني/يناير.

وفي الوقت الذي لم يتمعن صدام حسين بميول شعبه (جلس صدام منذ زمن طويل في قصره كما في قلعة من البرج العاجي) فقد اخطأ في تقديره لموقف الشعوب العربية والمسلمة. وقد لاحظت بان الدعاية العراقية كانت متجهة نحو داخل البلاد - وكان من المهم له اقناع واستغباء شعبه. وبالطبع لم تجذب هذه الدعائية، التي اختلطت بالترويع والإرهاب، البلدان الأخرى. وتشكل لدى صدام حسين مركب ان رأيه هو الصحيح بصورة مطلقة، وكان من الأسهل عليه الامتناع

عن اقناع الآخرين، من الموافقة معهم على أنه غير محق. وعلى (صحة رأي) الدكتاتور العراقي قامت الدوغما البعثية، وسياسة العراق تجاه الدول العربية. ومن الغريب ان صداماً، وفي الوقت الذي تورط في المغامرة الكويتية، كان على قناعة ان العرب والمسلمين، وحال ان تبدأ الحرب، سيقفون إلى جانب العراق. ومن الطبيعي ان هذا لم يحصل وللعديد من الأسباب.

ومن الأسباب الموضوعية لذلك الموقف كان اغتصاب دولة مسلمة مستقلة وذات سيادة، إضافة إلى اصداء الرأي العام على مغادرة العراق طوابير كبيرة من العمالة الباكستانية والافغانية والمصرية وغيرها. فضلا عن ذلك كانت منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) كأداة للتضامن الاسلامي، بقبضة السعودية العدو اللدود لبغداد. وتصالحت سوريا مع مصر وانضمتا إلى التحالف المناهض للعراق، الأمر الذي لم يتوقعه صدام حسين بتاتا. وبالمحصلة فان المملكة العربية السعودية ومصر وباكستان وكافة دول الخليج وحتى إيران، أو بكلمة واحدة الدول التي تحدد ميول العالم الاسلامي، وقفت إلى جانب الكويت. واعتقد إن صدام أخطأ أيضاً بشأن إيران، وكان قد عقد الامال ان ينطوي رد فعل طهران على عاصفة الصحراء على موقف ينطوي علي ايجابية كبيرة له. اما إيران فقد ابتلعت إسقاط الأمريكان طائرة الركاب (البوينع) في اجواء مياه الخليج، ولم ترد بشيء على تنازلات العراق فيما يتعلق بشط العرب. ومن غير المفهوم لحد الآن هل ان صدام وضع الحساب على أن تقوم إيران بخطوة جوابية أم انه ببساطة قرر ان هذه هي اللحظة المناسبة للتقارب مع إيران. وبكل الأحوال كانت تلك سياسة خائبة من حيث الأهمية والمعنى. وخلال استقبالي لبريماكوف في خانقين رأيت بأم عيني

كيف ان الطائرات الأمريكية خلال تحليقها لضرب مواقع في شمال العراق، تدخل قليلا في الاجواء الإيرانية. وهذا يعني ان طهران اغمضت عيونها على ذلك.

وتجدر الاشارة إلى ان الدبلوماسيين الذين عملوا في بغداد اصيبوا بعدوى تنبؤات العراقيين، عن أن المسلمين والعرب سينهضون للدفاع عن العراق. وحتى في سفارتنا أيضاً شاطر بعض الموظفين الرأي، الذي افاد بان الأمريكيين لن يجرؤا على الدخول في حرب برية، نظرا لأنهم سيمنون بخسائر جسيمة في حرب الدبابات في الجنوب، حيث حشد العراقيون الجزء الاعظم من قواتهم. وأعترف بانني أيضاً كنت غالبا ما اميل إلى هذا الرأي. ان انهيار امال العراقيين المعقودة على حرب برية واسعة النطاق، لعبت دورا كبيرا بانهيار الروح المعنوية للجيش العراقي، والقيادة العليا للجيش. وإتفقَ لي ان اسمع الكثير من تذمر العراقيين المرير بشأن ان قوى التحالف المناهض للعراق تخوض حربا غير تقليدية. ولكن هذا لم يمنع العراقيين من وصف (المعركة في ضواحي الخفاجية) بانها اكبر معركة دبابات في تاريخنا.

على طول مرحلة التعاون العسكري السوفيتي - العراقي أي على مدى عشرات السنوات لم يتبن العراقيون صيغة تعاون تشمل على حضور المستشارين في قواتهم المسلحة. وكان السوفيت بصفة خبراء، لم يُسمح لهم هناك، حيث تبدأ الأفكار والخطط والتخطيط ورسم السياسة العسكرية. وحقا تلقى الكثير من العسكريين العراقيين تعليمهم في الاتحاد السوفيتي، ولكن عند المأساة الكويتية، كانت لديهم مؤسسات تعليمية. ولذلك فاني لن ادعم التلمحيات بانهيار العقيدة العسكرية السوفيتية أثناء (الحرب في الخليج). لقد كانت استراتيجية عسكرية

عراقية، انعكست عليها بشدة ظلال شخصية صدام، التي حكمت بالفشل على كافة جهود القوات المسلحة العراقية.

وهكذا لم يتحرك التضامن العربي مع العراق. إلى جانب ذلك دافع الكثير من العرب عن صدام، ولكنهم قاموا بذلك بصورة غريبة. حينما تقول لهم: ان صدام احتل الكويت،... إلخ،... إلخ. يردون: نعم موافقون ونحن لا نُبارك عمله. ويواصلون القول: بيد ان إسرائيل احتلت الاراضي العربية وان الولايات المتحدة الأمريكية تدعمها. بمعنى ان البراهين المطروحة ليس للدفاع عن صدام حسين، وانما لتعرية الآخرين: مثلا انظروا لهؤلاء الخليجيين إلى أي حد هم بخلاء وخونة ماكرين. وكان العراق في ذلك الوقت الدولة الوحيدة التي حظيت بموثوقية أكثر في معسكر اليسار المتطرف في العالم العربي، إذا لم نأخذ بالحسبان المغالي القذافي (في ذلك الوقت كانت جمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية قد اندمجت بشمال اليمن)، ولاح كما لو انهم ساروا مرغمين خلف بغداد. ان انعقاد مؤتمر الزعماء العرب في جدة مباشرة عشية العدوان العراقي على الكويت لعب دوره في صياغة رد فعل الحكام العرب، حيث واجهوا طريقة صدام المتغطرسة جدا ونيته بفرض زعامته عليهم ومحاولاته تعليمهم وكسر نظام الزعامة القائم في العالم العربي، واضعا العراق في المكان الأول. كما اثار انتباههم موقف بغداد العدائي تجاه أمريكا. أعتقدُ ان صدام بالغ في تعاطف المسلمين كعامل يصب لنجاحه في الحرب. فللمسلمين اثنين أو ثلاثة من المقدسات التي لا

يمكن تخطيها - مكة والقدس وقَم ومشهد. ان انغلاقهم على هذه المدارات الروحية، عرقل عمل آلية تضامنهم مع العراق.

كما حدث مع ستالين، نظر الخدم من حاشيته لما سيقوله صدام حسين ورددوه. وبالمناسبة فكلاهما ابقى المقربين من زملائه على مسافة محترمة منه وعدم ثقة عميقة بهم. أتذكر كيف فتشوا عزت ابراهيم الذي كان حينها عضوا سابقا مجلس قيادة الثورة والحزب، عند دخوله مكتب صدام حسين. وستالين حينما ينفرد بنفسه يكون واقعيا لحد التشكيك ويبوح لنفسه بالحقيقة، اما مشكلة صدام فقد كانت في انه ظل في دائرة المقربين ضحية غطرسته التي لا حدود لها. وطيلة الوقت برهن لهم بانه اذكى من الجميع وابعد نظرا منهم، اما بالنسبة لستالين فقد ردد اغنيته ولم تعد شكوك بذلك. لا سيِّما وان حرس ستالين كانوا من مؤسسة بيريا، ولم يعتبرهم بشرا، وعلى كل حال حينما تعامل معهم اخفى بصورة سيئة تفوق جبروته، وتخاطب معهم فقط بخصوص الشؤون اليومية ونظام الأمن. اما حرس صدام فقط كانوا من الاقارب القريبين والأصدقاء وابناء الأصدقاء وكان يتعاطى معهم ويتحدث معهم بالسياسية. وقد شعرت بالانزعاج من تسيسهم، كانوا محشوين بالسياسية، ولكنها العقائدية، وليست السياسة الواقعية. ينشأ احساس كانك تقرأ جريدة (الثورة). وكان بالنسبة لصدام ان الحفاظ بداخلهم على ميول المواجهة والتبجح والصمود كي يثقوا به. ولو حكمنا بالمقلوب فبدورهم اختبروه على اساس عقائدي صريح.

كان بين ستالين وحرسه فضاء واسع كالمحيط وهوة عميقة، ولم يمنح نفسه الفرصة للتفكير بحشوهم بالسياسة، إلى هذه الدرجة كان واثقا بولائهم. وفي الوقت نفسه كان يشكك بهم. وهذه الصفة كانت لدى كليهما. فعند اي شك يغيران حمايتهما. وكان غالبية حماية صدام من التكارتة وهم بمعنى ما ضرب من رابطة عشائرية ومافيا. وكان المسؤولون عن امن صدام في مختلف الاوقات مرة شقيقه وأخرى نجله وتارة قريبا له. ولفترة طويلة كان صباح ميرزا، ضخما ووقحا. واعتقد انه لم يحتفظ بمنصبه بسبب قلة حيائه ووقحاته ازاء الجميع. فينبغي ان يتحلى بمن يكون قرب صدام بتواضع من نوع فريد. واللافت ان الحارس الشخصي لصدام وقف خلفه خلال اجتماعات مجلس قيادة الثورة وحزب البعث، وكان مستعدا لإطلاق النار في إي شخص عند القيام بمحاولة اغتيال. وجرى تفتيش كافة العراقيين عند الدخول. وفتشوا أيضاً بانتباه الاجانب أيضاً. ومنعوا حمل الحقائب الكبيرة، وهذا على العموم اجراء طبيعي. وافاد الدبلوماسيون الذين عملوا ببغداد، بانه وعند طلب شخص ما الذهاب إلى المرافق الصحية يقوم حرس الرئيس بمرافقته إلى هناك، لكي لا يُدهن راحة يديه بزيت، يتمكن من خلاله تسميم صدام عند مصافحته بالايادي. وقلد صدام اعضاء حمايته الأوسمة على قدم المساواة مع الجنرالات. وثمة احساس بأنه تحدث عن شؤون الحياة حينما وجه الكلام لهم. هؤلاء كانوا ليس من دائرته، ولكن في ظل العزلة التامة عن السكان كان بحاجة إلى متحدثين يردون عليه بالموافقة والإيجاب. فلم يكن بحاجة إلى الآخرين.

اعود إلى فكرة عدم وجود جليس يومي، نزيه وصادق لدى صدام. أعرف هذا من خلال العمل في السفارة، حينما يكون السفير الذي لا يوجد اعلى منه، منعزلاً عن الحقيقة، منطوياً على نفسه. والآخرون اما صامتين أو يتزلفون. لذلك تلقى الآخرون كل ما يقوله صدام، ومن ثَمَّ هو شخصيا (راح يؤمن بنفسه) كآخر محطة للحقيقة. وجرى تلقي أكثر الاشياء تفاهة مما يقوله بحرارة وتمجيد. والقى الدكتاتور نظرة منتصر على الحاضرين الذين هزوا له رؤرسهم بخضوع، أو تلقوه بانشراح واستحسان، والتهبَ هو بإلهام جديد. واعتقد حتى الزعماء العرب خلال المحادثات مع صدام، قبل وبعد العدوان قالوا له الحقيقة. ولكن يتم اضفاء الكثير من البهارات على المحادثات التي تجري على مستوى رفيع - وهذا ربما اسلوب محتم - تسود المجاملة ويتم تجنب القضايا الحادة، والمشكلات المزعجة. ان إصابة الزعيم بنقطة ضعفه والاشارة إلى تصرفه الطائش غير مقبول بين الزعماء. لذلك لم أؤمن أبدا بكلام سفراء السودان واليمن وفلسطين، حينما قالوا لي ان رؤساءهم حاولوا فتح عيون صدام حسين على حقيقة الوضع. يمكن ان يكون قد تهيئ لهم بأنهم حاولوا، ولكنهم غلفوا اقوالهم بعناية واخفوها بغلاف سميك، مما كان من الاسهل على صدام تمرير ما قيل وتجاهله والتزام الصمت، والرد بحججه. لا سيِّما، ونقولها بصراحة، ان الكلام عن ان الخليجيين رديئين ضلل محدثي صدام العرب في فترة 2 أغسطس 1990،... إلخ. فهنا لديهم دائما ما يمكن الحديث عنه مع العراقيين.

لذلك فان البلد والشعب وماكنة الدعاية عاشت وفق الأفكار المثيرة للجدل التي تمخضت في راس صدام حسين، وبخلافه من أين ظهرت موضوعة ان الله

يقف إلى جانب العراق ومن المخزي على دول التحالف الاعتداء. وادخل صدام بجد في الوعي اليومي للمواطن العراقي انه (ابن عبد الله) وسليل مباشر للنبي محمد، كما لو ان هذا اضاف مصداقية على احتلال بلد بأكلمه، فضلا عن انها دولة مسلمة، وتغيير اسمها وجعلها المحافظة الـ 19! علاوة على ذلك كان صدام حسين قد استلم سنويا من دول الخليج حوالي 120 مليار دولار في الحرب مع إيران 40 منها من الكويت. ويذكر اننا ممثلو الجانب السوفيتي كنا شهود عيان على أن ميناء الكويت كان مفتوحا أمام العراق لاستلام التكنلوجيات العسكرية السوفيتية ومن ثَمَّ نقلها للعراق، وغالبا ما توجه ممثلونا إلى الكويت ليستلموا تلك المعدات العسكرية.

ولم يتخذ صدام حسين من النبي محمد وحده كشخصية تاريخية عظيمة لاستخدامها لأغراضه الشخصية. فكان معجبا أيضاً بشخصية صلاح الدين الايـوبي. ولذا فان المؤرخين المداهنين طرحوا فرضية مفادها ان صلاح الدين الايوبي لم يكن كرديا وانما عربيا منحدرا من إحدى قبائل تكريت! وبالتالي الايحاء بفكرة قرابته بصدام. واعتقد أنه جاء من هنا ولع صدام المرضي حتى العدوانية بالظهور على فرس ابيض خلال العروض. فضلا عن ان اكبر ساحة في بغداد خُصصت للاستعراضات ومنعوا المرور بها، بيد انها كانت على الدوام خاوية كرمز للغطرسة التي لا جدوى منها وكتمثال للعجرفة. في كل الدول ثمة ساحات، ولكن الناس هناك يتنزهون فيها، وفيها منشات أخرى، ولكن هنا ببغداد تتوافق تماما مع تطبيقات الاستعرضات الآشورية، حين انتظرت الساحة فارسا واحدا.

وسمعت في 1999 من قناة تلفزيون بغداد فكرة كان مضمونها بهذه السلسلة: الملك الاشوري - صلاح الدين الايوبي - صدام حسين.

ليس بوسعي ان لا اشير إلى الفن العراقي في عهد صدام، لأنني في تلك الفترة 1974 - 76 كنت مستشارا ثقافيا في سفارة الاتحاد السوفيتي في بغداد. وتجدر الاشارة إلى ان علاقاتنا الثقافية حينها تطورت بصورة عاصفة، وكان بالعراق في ختام فترة عملي هناك 48 من معلمي فن الرقص والموسيقي (الغربية والشرقية)، ودخل الموسيقيون في الفرقة الموسيقية الوطنية. وتم بمساعدتنا افتتاح مدارس للباليه والموسيقى. وطفق الشباب العراقيون بالالتحاق بالكانسيرفاتوريا (معهد الموسيقى) السوفيتية. وكان الشغف بالموسيقى الغربية غير التقليدية بالنسبة للفن العراقي، شديداً. وامتدح اساتذة الفن السوفيتي، الفتية العراقيين لمواهبهم وتمتعهم بحب الاستطلاع. وقطعت هذه العملية الواعدة، تصاعد الموجة القومية الشوفينية الجديدة (طبعا انها لم تترك الساحة الروحانية - السياسية، بعد ان جاء البعثيين للسلطة) التي تصاعدت كما اعتقد مع نشوب الحرب مع إيران، والتي وضعت بداية انحطاط الفن. ولاحت الفرقة السمفونية الوطنية في التسعينيات في حالة يرثي لها، وتعطلت المدارس الموسيقية وساد في معهد الفنون التشكيلية اسلوب وطني ضيق. وغادر العراق كافة رجال التربية السوفيت. وهذا شاهد اضافي على أن الفن الأصيل لا يلتقي مع الفن القومي ضيق النظر ولا مع التعجرف القومي. ان كافة أشكال الانعزال عن العالم تنطوي على خطر. واصبح الفن يذبل، وغدا على الهامش. بينما ازدهرت

وبلون باهر انواع التقريظ والمدح المبالغ فيه للزعيم الاوحد - الخان - الشاه أوصِفوه كما يحلو لكم.

حينما غادرت العراق في مايو/ايار 1992 أبلغت وزارة الخارجية العراقية باني مستعد للالتقاء بالرئيس. وردت علي الوزارة بان مثل هذا اللقاء لن يسفر عن نتائج تُذكر. فمن دون شك لم يعد ما يقوله أحدنا للآخر. لقد رسمت له قبل عامين صورة رائعة لعلاقاتنا، وحينها كان هذا واقعيا بالتمام، والان ظهر ان ذلك كان وهما، فالبلد مدمروالشعب مقموع. واصبح العراق بإرادة قائده بلدا منبوذا. معقدا للغاية. دعك عن ان احدا من العراقيين لم يقل بوضوح ودقة كلمات الامتنان لفريق السفارة السوفيتية الصغير، على أنهم واصلوا البقاء وكانوا قناة التواصل الرئيسية مع الاتحاد السوفيتي وغيره من اعضاء المجتمع الدولي، ولا سيِّما في المراحل الحاسمة.

والقضية لا تتعلق بي وحدي، ولكن بأولئك المواطنين السوفيت الذين قرروا البقاء سوية معي. وطيلة الوقت أمعن التفكير، لماذا حصل هذا، وأصل إلى فكرة مفادها انهم ليسوا أولئك العراقيين، الذين امضيت بينهم ست سنوات ونصف (1969 - 1976). لهذا ارفض توجيه البعض لي باني نكثت بالصداقة. ان نموذج صدام خلال أعوام 1969 - 72 وصعود نجوميته لفترة قصيرة (1972 - تأميم شركة نفط العراق والتوقيع على معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتي، فضلا عن محاولة تسوية القضية الكردية، وصفوة الكلام ذريعة صدام) لم يبق كما هو ذلك الشخص. بالرغم من أن جوهره المنحرف كدكتاتور متغطرس ظل دائما

من دون تغيير. ونحن تغيرنا أيضاً. اضافة على ذلك قدم صدام نفسه كمناضل ضد الامبريالية، وبالنسبة لنا ان مفهوم (النضال ضد الامبريالية) سلب عقولنا وجعلنا نشطب على الكثير من الاعتراضات عليه. ان عبد الناصر لاحق الشيوعيين أيضاً، بيد انه كان مناضلا ضد الامبريالية ونحن لم نكتف بالصبر عليه، وانما اعتبرناه شريكنا الرئيسي في الشرق الأوسط وربما في العالم اجمع.

وايضاحا آخر للعوامل التي صاغت علاقتي بالنظام. حدثني سفير الهند في بغداد، ان عائلة بسيطة كانت تسكن امام سفارته - تتكون من أم وثلاثة ابناء. اخذوا الابناء الثلاثة جميعا إلى حرب مع إيران. قتلوا الأول - تطبق بشدة على اسنانها، تلوذ بالصمت والثاني - تصمت، وعندما قتلوا الثالث - خرجت بثوب اسود إلى الشارع، تمزق رأسها من اليأس وصرخة كما لو انها توجهها إلى اللامكان، ولكن الجميع يعرفون قصدها: «متى ستكف ايها الطاغية تفترس أطفالنا؟ كيف نجد القصاص لك؟». بعد عشرين دقيقة بالضبط ظهرت سيارة إسعاف، وقام شبان ضخمين على الفور بحقنها بابرة، ورموا المرأة المتخشبة في السيارة كما يرموا جذع شجرة، وحينما استرجعت وعيها تحدثوا معها وسألوها: « هل ستلوذين بالصمت أم سنواصل حقنك بالابر» فاختارت الصمت. كل هذه الرواية على ذمة سفير الهند كمال (ومن اصبح سفيرا في فينا)، بيد اني اثق بأنه حقيقي. وحكما بما كان يدور حولنا فان الرواية تبدو تماما شبه المؤكدة.

مرت هزيمة الجيش العراقي الساحقة في البداية دون ان يلتفت لها أحد، ومن ثَمَّ وبدفع من بيانات الدعاية الرسمية تحولت إلى نصر. والقانون العراقي لا

يقضي بمعاقبة العراقيين في حال تسليم أنفسهم في الاسر، ومن هذه الزاوية يختلف صدام حسين ايجابا عن ستالين، الذي أرسل الأسرى الذين تم الافراج عنهم من الأسر، مباشرة إلى معسكرات الاعتقال. وحدثني العراقيون بأنفسهم بان الكشف عن الأسرار تحت التعذيب عندهم لا تُعتبر جريمة حزبية ولا يُتهم الشخص الذي يَكشف تحت التعذيب عن سر بشيء. وفي كل الاحوال فان الحرب، وبالرغم من أنها كانت لفترة قصيرة، أثرت بعمق على سايكولوجية العراقيين. وأتذكر حدثاً مهماً بالنسبة لي، حينما لثم الجنود العراقيون في فيلم Desert Strom احذية الأمريكيين. شعرت باستياء عميق: فإلى أي حد من اليأس تكون القيادة قد دفعت بجنودها ليقوموا بهذا العمل.

إن خسائر العراق في حرب الخليج الثانية لم تُعرف للنهاية. واشك بان العراقيين اجملوا هذه الحصيلة المحزنة. وحددوها على سبيل الدعاية عددا افتراضيا، بيد ان من الصعوبة الحكم على حقيقة الأمر. واشاروا إلى سقوط حوالي 30 الف قتيل و50000 جريح، برأيي إن هذه الارقام مبالغ بها. ومن الناحية المبدأية فان أمريكا لم تضع امامها هدف ابادة السكان المدنيين. لقد قصفت وحلفاؤها بشكل رئيسي المنشآت العسكرية والصناعية ومراكز الاتصالات. وكانت استثناءات مروعة وبالمقام الأول العامرية. لقد كانت الصورة فظيعة. ومن بعد اتضح ان هذا الملجأ تحدد في خرائط الأمريكان بمثابة موقع عسكري. ولكن في لحظة القصف كان هناك ملجأ. وأتذكر كيف انفجرت القنبلة في ساحة بغداد المركزية، قريبا من جدارية جواد سليم، وتشكلت حفرة ضخمة، وكان سوق

شعبي في المنطقة، جرى فيه أيضاً بيع الإشياء التي سرقت من الكويت. وهناك حادث آخر سقطت فيه القنابل على سوق.

وكما أتذكر كانت تلك اخطاء غير مقصودة. ولكن ليس بوسعي ان افسر تصرف الطياريين الأمريكيين الذين اقتنصوا الحافلات، وصفوة القول السيارات على طريق بغداد - عمان. وكما اتصور ان مهمتهم كانت قطع الطريق على تنقل الصواريخ العراقية التي اطلقت على إسرائيل والسعودية، وتدميرها. ولم يكن مثل هذا القنص على الطريق المؤدي إلى إيران، لأن العراقيين ارادوا سحب صواريخهم بعيدة المدى إلى القرب من الحدود الغربية حتى تبلغ إسرائيل.

لم يكن هناك اعتراض على أن القصف الأمريكي كان دقيقا. ورصد البعض بذلك وجود هدف إنساني، ويمكن القبول بذلك من دون اعتراض. ولكن عن أية إنسانية يدور الكلام اذاما لفتنا إلى ان المدينة بقيت منذ اليوم الأول للحرب من دون كهرباء ولا ماء، حينما تمت تصفية أو الحاق الضرر بكافة البنى التحتية لمدينة يقطنها الملايين، الأمر الذي ادى إلى انتشار الأمراض الجماعية وبخاصة بين الأطفال. ان الحرب هي حرب، وهي عمل غير إنساني بتاتا.

إن ما يجمع بين صدام حسين وستالين كان ولعهما المهوس بقتل اقرب الأصدقاء ورفاق الطريق، اننا نقترف خطأً منهجيا في تسميتنا لهم باقرب الأصدقاء. نعم انها حقيقة، كون ان عبد الخالق السامرائي كان قد كسب صدام ابن السابعة عشر للحزب. وكان عدنان الحمداني معاونه المخلص. كانا يقفان

اقرب من الآخرين منه، وشاهدا باوضح من الآخرين إلى أين يسير بالبلاد، وإلى من تحول هو نفسه. وربما انهما حاولا الكلام معه عن ذلك.

وحينما احلل سلسلة الكشف عن المؤمرات وتصفية الصف الأول لقيادي الحزب، دائما أتوصل إلى استنتاج مفاده إن هذا لم يكن ببساطة رغبة صدام حسين للتخلص من المنافسين مثل السامرائي (بالرغم من أن في حالة السامرائي كان هذا بالدرجة الأولى). على الاغلب تشكلت مجموعة من المستائين في قيادة حزب البعث الاشتراكي، وانهم كانوا من بين أولئك الذين عرفوا صدام الحقيقي أكثر من الآخرين. وبقى في دائرته الصامتون والخاضعون. ترأس عبد الخالق السامرائي النواة الأولى للبعثيين العراقيين الذين كانوا يؤمنون بالأفكار الاشتراكية وامكانية تحويل البلد إلى نمط خاص، بروح الوحدة العربية والقومية العربية. والتقيت به حينها مرات عديدة. كان هذا جيفارا العراق، نصير متحمس لفكر البعث الاشتراكي وتوحيد العرب، ودعانا بحرارة أن نستدير بوجوهنا نحو الفلسطينين، ومساعدتهم على تحقيق تطلعاتهم. وعندما اتضح وعلى من شاكلته من المثاليين، حقيقة ان صدام امتلك السلطة ليس من اجل هذا الهدف، وانما من اجل السلطة نفسها، ولكنهم حاولوا تغيير شيء ما، ربما في البداية دعوا صدام، بالرغم من هذه كانت عملية انتحارية. وليس من العبث ان يقول صدام في أحد اجتماعات نشطاء الحزب عام 1975: «لقد بدأت عمليات اعادة النظر ومن الافضل لنا ان نتزعمها، قبل ان تجرفنا القوى الجديدة».

حدث في 1973 خلال حفل استقبال في السفارة على شرف وفد حزبي زار بغداد، ان اصبحت من دون ارادتي شاهدا ومستمعا، لمحادثة محمد عايش رئيس اتحاد النقابات (بعد ذلك بقليل تم اعدامه) الذي اشتكى لمحدثه (اعتقد انه كان عزيز سيد جاسم) عن ابتعاد الحزب عن شعارات المرحلة الأولى وفرض سلطة المخابرات. وصاحب انهيار المُثل في الحزب تصفية الطوباويين الذين يحملونها. وحل محلهم على الرغم مما تبين محبو الارتقاء بالمناصب الحكومية والمستعدون لخدمة صدام باعتباره قائدا مطلقا، الذين لم يعرفوه بصفة أخرى ولم يختبروا الصداقة التي تشكلت في إتون العمل السري. لقد كان هذا مثلما كان عند ايفان الرهيب حينما اسس قوة عسكرية بشعة سميت بـ (أوبيَرتشنا) اي المجندين الجدد - الحرس الجديد المستعد بأمر القائد تدمير كافة (خصومه الكبار) بلا تمييز.

في بيانه الذي ربط فيه القضية الفلسطينية (1990/8/12) الذي دعمه ياسر عرفات، قدم صدام حسين خدمة غير خيرة لمنظمة التحرير الفلسطينية. ان وضع الحساب على أن الغرب وإسرائيل سيوافقون معه للمضاربة في شؤون الشرق الأوسط بسبب الكويت، كانت أيضاً غلطة سياسية وخطأ حساب. وثمة رأي مفاده ان دكتاتور العراق لم يعقد الامال على ذلك، وقام بذلك من اجل اهداف تاكتيكية، ووضع الحساب على الارتقاء بمنولتهى في عيون العرب والمسلمين. إذن هذا تاكتيك وقح ومستهتر يسلط الضوء على حقيقة علاقته بالمشكلة الفلسطينية. اعتقد ان صدام كان في يوم ما يتعاطف مع الفلسطينيين ونضالهم، بيد انه بعد ذلك بحذاقة ادخل هذا العنصر في تاكتيكه السياسي وعلى

الاغلب للمقامرة على قضية الفلسطينيين، علاوة على أن هذا كان سهلا إذا اخذنا بالاعتبار تعاطف العرب المرير مع الفلسطينيين. ولكن النتيجة الماساوية تكمن في ان نتيجة الحرب في الخليج جعلت الكثير من العرب ولا سيِّما الزعماء يفقدون الاهتمام والتعاطف مع الفلسطينيين، واتخذوا موقفا معاديا من منظمة التحرير الفلسطينية ومن ياسر عرفات شخصيا.

لقد انصعقت بلدان الخليج وهي الممول الرئيسي للقضية الفلسطينية من موقف عرفات الموالي لصدام واوقفت المساعدات لفلسطين. ولحد الان لا افهم الآلية الغامضة لقرار ياسر عرفات، المميت. فأولا كان هناك احتلال إحدى الدول العربية لدولة أخرى من دون مبرر، وثانيا كان يقيم في الكويت 150 الف فلسطيني أو ربما أكثر، وإذا ما عدد المقيمين في بلدان الخليج فسيكون مئات الآلاف. وثالثا ان منظمة التحرير الفلسطينية استمدت قدراتها المالية من دول الخليج. وبكلمة واحدة ان الاشارة في بيان 12 اغسطس سحرت ياسر عرفات لم تعدو غير طُعِم معدني مربوط بصنارات.

بالطبع لم يكن التعاطي مع البيان الذي صدر بتاريخ 2 اغسطس، والذي ربط فيه صدام تحرير الكويت بخروج إسرائيل من الاراضي العربية المحتلة، بهذه السهولة. فبدا للبعض بما في ذلك في وزارة خارجيتنا بانه حل مغري واعد لقضيتين فورا بضربة واحدة. علاوة على ذلك يمكن ان نتخيل بانه لو قدمت الولايات المتحدة حينها وعدا واسعاً بشان الشرق الأوسط، كما لوانها تلبي مطالب الفلسطينيين لقام صدام بخطوة جوابية، وقام مثلا بسحب فعلي جزئي لقواته

من الكويت. ولكن لا يمكن ان ننسى ان ذلك كان في 12 اغسطس، ولم تكن عملية سحب القوات جامدة أو لا رجعة عنها. وكان ثمة ثقة بان العراق وبتأثير الوضع المترتب ورد الفعل في العالم، يكاد يقف على اهبة الاستعداد لسحب قواته. ولكن في هذا يكمن الخطأ - فلا الولايات المتحدة الأمريكية ولا إسرائيل ولا حتى الخليجيين لم يسمحون بحدوث مثل هذا التبادل - المقايضة. مقايضة فلسطين بالكويت - وهذا يشهد على سطحية موقف صدام من الشؤون الدولية الذي تميز به دائما. واعتقد باشتغال ولعه الشخصي بفكرة المقايضة - ولاح له بانه عثر على الحلقة المطلوبة لسحب السلسلة بكاملها، أو ربما خُيل لنفسه بانه بطل العرب الذي حل في نهاية المطاف العُقدة الفلسطينية.

وكمراقب يومي ومشارك في الجهود المبذولة لانسحاب العراق من الكويت ودرء نشوب الحرب، كنت على قناعة، ان الازمة في الخليج تطورت عبر نقطتين هامتين من الناحية المبدأية. ففي لقاء القمة العربية في جدة، التي انعقدت عشية الغزو العراقي، كان من الممكن الاتفاق وتجنب احتلال الكويت، وفي المباحثات الأمريكية - العراقية في جنيف كان ممكناً تجنب الحرب. ولكن كان لا يجوز تفويض عزت ابراهيم وطارق عزيز لهذه المباحثات. فقد كان لدى عزت إبراهيم وطارق عزيز توجه نفسي داخلي هادف، بأن يكونا أكثر تشددا من توجيهات القائد (وعملت بهذا غريزة حب البقاء) وبخلافه فإن ابداء (التخاذل) يعود بعواقب وخيمة ضدهما. ولعبا طيلة الوقت على التشدد، فوق ما قال لهما صدام حسين، بالرغم من أنه أيضاً لعب على التشدد. وكان يمكن الاستفادة من هذه الفرص لتجنب الحرب فقط بمشاركة صدام حسين، ليس هناك ضمانة اكيدة، ولكن

احتمال النجاح كان أكثر حظاً. وبعبارة أخرى ان صدام حسين احتكر لنفسه تقديم التنازلات والموافقة على حلول وسطية. لست أعرف هل كان يدرك بانه ارسل عزت الدوري وطارق عزيز بمهمة تعجيزية. اعتقد نعم. لأن الخديعة كانت أسلوب صدام المحبب في المباحثات، وطرح موقفاً متشددا بصورة استعراضية (كما اعادت الكلمات الافتتاحية من صحيفة الثورة الاذهان إلى نقطة انطلاق هذه المواقف). فهو بنفسه يسير على الحافة، ويرغم الخصم على الإحساس بانه يمضي أيضاً على حافة التوازن وفق لعبة صدام الشريرة التي اجادها. ولكن هذا الاسلوب اشتغل في المراحل الأولى (وبررت الخدعة نفسها في المباحثات مع شركة النفط الوطنية العراقية في عام 1971) أو مع زعماء العرب المهذبين الذين لا يرغبون بتفاقم المشاكل. ولكن في حالة الكويت كان لصدام خصم آخر في المباحثات. فعمليا ان الأمريكيين شرعوا منذ الأيام الأولى بدفع قواتهم إلى الخليج، لذلك فان منطق الحرب واستعمال الاسلوب العسكري لطرد صدام حسين من الكويت تعزز على قدر تعزز تراكم القوة، وابقوا حيزا صغيرا للاصغاء إلى حجج صدام، والاستعداد للاتفاق معه على اساس الحل الوسط.

وعلى مدى ثمانية سنوات من عملي في العراق، كنت لفترة طويلة شاهدا على تنامي عبادة الناس البسطاء لشخصية صدام حسين. لم يكن لدى العراقيين والروس مرحلة ديمقراطية طويلة، لذلك فانهم يميلون إلى عبادة شخصية الحاكم وحتى الدكتاتور. واعتقد ان الموروث التاريخي يلعب دوره بهذا - الطغاة على النمط الاشوري والبابلي. اما حاشيته فلا تعبده، بل على الأرجح تنامى لديها الخوف منه. ولكن من جانبنا لاح هذا غير مفهوم - لأنه تحدث عادة بصوت

منخفض (وبعد فترة غير قصيرة اضاف لصوته نبرة عالية ورنين معدني) وابتسم للمحيطين به. ولكن كان هذا اسلوب النمر للإستمالة والاستعطاف. لأول مرة اصطدمت بهذا عند جمال عبد الناصر - فقد كان جذابا ولطيفا بالتعامل معنا، وتحدث بصوت خافت، وكان مجاملا مع الجميع، ولكن من الواضح ان حاشيته كانت تخافه.

ولا معنى للكلام عن الموقف الحقيقي من القائد خلال حياته، أو بالاحرى ما دام هو في السلطة. لن تعرف الحقيقة ابدا. ومن هذا المنطلق انا على ثقة بان الموقف من صدام سيكون متناقضا. من جهة سيلعنونه بسبب المصائب والتعاسة، ومن جهة أخرى سيتحدثون في مازوخية (تعذيب الذات) لا متناهية بانه رفع اسم العراق، وارغم العالم بالحديث عنه. هذا ما حصل عندنا بشأن ذكرى ستالين. ويمكن ان لا يأتي هذا الاعتراف مباشرة، في البداية سيتم اسقاطه من على المنصة بيد انه سيكون اسقاطاً عنيفاً وانتقامياً على حساب مصير جيل باكمله. ولكن الافتخار بصدام والاعتزاز به قد يستسيقظ لدى العراقيين ثانية كما لدى الكثير من الشعوب، المطبوعة على التمركز على الذات الوطنية. بيد ان هذه الصفة تنطوي لحد ما على ظلالات مأساوية ذات عناصر مازوخية (تعذيب الذات). وعلى العموم ينبع هذا من تاريخ العراق، من المعاناة القاسية التي تشكل فيها طبع العراقيين الوطني، اما عند الشيعة الذي يشكلون غالبية سكان العراق، فقد ظهر انجذاب من نوع خاص وفريد للمعاناة وعبادة (الشهداء) مثلا مراسيم (عاشوراء) و(والتشابيه).

واستغربت خلال فترة احتلال الكويت، عند محادثاتي مع العراقيين انهم يفتخرون من بأن 29 دولة انضمت إلى التحالف المناهض لصدام، ويشيرون إلى ان هذا يحدث لأول مرة في التاريخ. ومن ثَمَّ احصوا فكانت النتيجة 30 وصاروا يتباهون بالذات أكثر. وبهذا المعنى فان مغامرة صدام مرت بسهولة داخل العراق. وان مشاكسة العراقيين وغطرستهم كانت في صالح صدام. وشعر الدكتاتور بذلك، فغرس مُلازمة (سِندروم) ان العراق ضحية مؤامرة الامبريالية - الاطلسية. في الوقت نفسه هيمن على العراقيين السعي لعرض معاناتهم على الانظار، مثل عروض التشابيه. وعندنا نحن الروس على العكس، حيث نسعى إلى عدم افشاء المعاناة الحقيقية والصبر بصمت. ولكن العراقيين يتحلون بصورة خارقة، ولا تصدق بالصبر والقدرة على تحمل العوز وضربات القدر، وتقلب اطوار القائد.

وهناك تفصيل آخر. غالبا ما يُتهم العرب بعدم التسامح، بيد ان العراقيين سمحوا للصحافيين الغربيين بما في ذلك الأمريكيين والانجليز بزيارة بلدهم وتصوير اثار الدمار. وكان هذا طبيعي تماما. فهل يمكن ان نتصور وضعاً افتراضياً معاكساً - كيف كان الأمر لو ان العراقيين قصفوا لندن بالقنابل وذهب صحفيوهم لبريطانيا كي يصورا الدمار، كيف سيرد عليهم سكان لندن في هذه الحالة؟

لقد خلقت تدمير القوة الجوية للتحالف جسرين في المدينة - الجمهورية و14 تموز اجواء عدم راحة في المدينة. في الوقت نفسه اعتبر العراقيون، ان الانجليز هم من ضرب الجسرين، نظرا لأن (الجمهورية) و(14 تموز) ترمزان لسقوط الملكية، وتلمسوا في قصف الجسرين بهذين المُسَميين معنىً خاصاً. بعد الحرب

مباشرة، ولم تنشأ ميول واضحة معادية للأمريكيين، حيث إنها ظهرت بوقت متأخر، بما في ذلك بتاثير الدعاية الرسمية. وربما يعود الاستياء من الأمريكيين، إلى الموقف من أنهم لم يصلوا بالقضية التي بدأوها حتى النهاية، ووقفوا في منتصف الطريق. وتحدث العراقيون بأنفسهم عن ذلك مباشرة بعد الحرب. حينما كانت البلد باسرها مهزومة والناس مرتبكين، ومرة أخرى لم يعمل جهاز المراقبة والتصنت بكل طاقته. حينها اتفق لي ان اسمع مرارا اراء انتقادية لصدام حسين ونظامه. وتميزت بذلك خاصة النساء، اللواتي تحدثن بشجاعة أكثر. والملامة الرئيسية على الدكتاتور كانت انه أوصل الأمور إلى حد الحرب. ولكن لم يتفق ان اسمع ولا مرة (أقول بكلمة شرف) سواء قبل الحرب أو بعدها مؤاخذة على صدام حسين بانه أخطأ باحتلاله للكويت. وفي الحقيقة تجدر الاشارة إلى استثناء عبارة (الانسحاب من الكويت) من قاموس العراقيين. وامتنعوا بشدة تلفظ هذه العبارة. كان تلفظها يعني إذن التفكير بها. لقد حاولت مرات عديدة ان انتزع مِمَن اتحدث معهم في وزارة الخارجية وارغمهم على لفظ عبارة (الانسحاب من الكويت)، (سحب الجيش). بلا جدوى! وحقا ظهر لدى بعض العراقيين مع نمو التوتر، الخجل ومؤشرات الشعور بالذنب. والتعطش بصراحة لدفقات الاستراحة والتهوين على النفس. واستقبلوني دائما في وزارة الخارجية بأمل الاستراحة والتهوين: ربما هو يحمل من مطبخ الغرب السياسي شيئا جديدا؟ فجأة بدأ الغرب يغفر لنا؟

لقد رأى العراقيون ان سبب مصائبهم ومعاناتهم مرهون بالكثير من الظروف، ولكن ليس من الاستيلاء على الكويت، لأن القناعة بعائدية الكويت

للعراق استقرت عميقا فيهم. على الأرجح انهم اتهموا بمصائبهم الخليجيين ونفور الأمريكيين من العراق وعدم تبصر صدام حسين، ولكن ليس من اغتصاب الكويت. والمبرر الرئيسي كان في تصور ان هناك مؤامرة واسعة تحاك وستحاك ضد العراق. وظهرت دائما موضوعة ان العراق هدف مستديم للمؤامرات. أي أنهم يضعون العربة امام الحصان، بمعنى ان السبب ليس في ان زعماء العراق يرمون بتحديات للجيران والمجتمع الدولي، وانما بحقد العالم الخارجي على العراق! اضافة إلى مركب كراهية عرب الخليج - الذي اشتغل دائما. لاح ان من السهولة بعد الحرب ان يدركوا سبب ما حدث. ولكن للاسف - لا. وبالنسبة لي شخصيا، لم أسمع من أحد الاعراب عن الأسف لاغتصاب الكويت. ومن الممكن ان حيثيات هذا تكمن في ان الثروة المسروقة من الكويت زحفت وحصل عليها الكثيرون بهذا الشكل أو ذاك، بالرغم من أن الضئيل منها ذهب إلى العراقيين البسطاء، ولا يمكن ان تعوضهم عن نتائج الحصار الذي انهال عليهم، ولا عن القصف والحصار ثانية.

كان ذلك إسلوبا قاسيا بقمع العراق. وليس ثمة أساس لأن يأسف النسق الاعلى على ذلك. وعلى الأخص انتفع الجنرالات وسلك الضباط، فضلا عن رجال المخابرات الذين تم إرسالهم في ذلك الحين إلى الكويت. وبالنسبة لصدام الذي كان يعرف جيدا بذلك، كان هذا اسلوبا جيدا لضمان ولاء النسق الأعلى للجيش من دون ترقيتهم كالسابق. لقد كانوا مشاركين بإحدى الغارات اللصوصية. أتذكر كيف ظهرت فورا في حي المنصور الراقي عدة سيارات (المرسيدس) والبي أم دبل يو، امام ابواب فيلات الجنرالات هناك. وتغير في بغداد موديلات السيارات. فإذا ما

انتشرت في السابق (التايتو) المتواضعة، وتنقل في (الميرسيديس) كبار المسؤولين الحزبيين والاغنياء، فالان غدت بغداد تذكر بعاصمة إحدى دول الخليج من ناحية وفرة السيارات الأمريكية والاوروبية الغربية الفارهة. وكان هذا ملفت للنظر. واصبح جلوس مراهقين باعمار 16 إلى 18 عاما من ابناء الجنرالات، وراء مقود السيارات الراقية، ظاهرة اجتماعية.

وبالطبع امتنع العراقيون الحديث حول هذا الموضوع. وقال لي طارق عزيز في حديث شخصي: «ان نسبة التعويضات للكويت باهضة جدا. ما الذي حصل في ان يكون الجندي العراقي حينما خرج من الكويت اخذ معه كعك لأطفاله؟ ولهذا فعلى اي شيء دفع المليارات». وقال هذا شخص يعرف حقيقة حجم المسروقات الواسع من الكويت! وادهشني انه قال هذا لي بوقاحة، انا الذي عشت في بغداد ورايت كل شيء بأم عيني.

... عن القضايا الثانوية، ولكن لا تقل أهمية عن عواقب الحرب في الخليج. ان اغتصاب الكويت احدث انقساما في العالم العربي، وان تبعات هذا الانقسام ستنعكس لفترة طويلة. ان القضية في ان حكام بلدان الخليج رأوا لأول مرة في حقيقة الأمر مَن وكيف ويتعامل معهم، ومن اتخذ موقفا لا لبس فيه للدفاع عن الكويت، وهم لن يغفروا لفترة طويلة. وفي هذا يوجد منطق - يمكن ان تكون ثرياً أو فقيراً يعجبك اخوك الغني أم لا، ولكن ان لا تنهض للدفاع عن بلد صغير، فضلاً عن انه بلد اشقاء بالدم، حينما ظلمها الأكثر قوة، وليس ظلمها فقط وانما ابتلعها وشطب عليها!

علاوة على ذلك ان انقسام العالم العربي قد لا يمكن اصلاحه في المستقبل المنظور. وفي كل الاحوال ان عرب الخليج فقدوا الاهتمام بالتسوية الشرق أوسطية، أو بعبارة أخرى الاهتمام الحقيقي بها. والان يرون ان مصدر الخطر عليهم ليس إسرائيل (لأنه غير مرئي وشكلي نظرا لأن إسرائيل كانت أحد المشاركين في التحالف المناهض للعراق، ومن حيث الجوهر وقفت إلى جانب الكويت). وتصالحت مصر وسوريا وكانهما كانتا بانتظار هذه الحجة. وهذه نتيجة ثانوية غير ملائمة للعراق افرزتها حرب الخليج. والحقت الحرب الضرر بوضع الفلسطينيين، ولأول مرة خلقت وضعا غير مريح على نطاق إسرائيل باسرها (راى الاسرائيليون وجه الحرب، وكان الرأي العام هناك مستعد). وبهذا المعنى فان الحرب لعبت دورا بموافقة شامير على عقد مؤتمر دولي خاص بالشرق الأوسط في صيف 1992.

والنتيجة القاسية الأخرى للعرب في قبولهم واعتيادهم من الناحية النفسية، على قيام قوى أجنبية بضرب دولة عربية بمشاركة العرب الآخرين. وكان هذا أول حدث في تاريخ العرب. والقى هذا الضوء على عدم قدرة العرب منذ 2 اغسطس 1990 وحتى 16 يناير 1991 بالعثور على حل عربي محض. لقد عقدتُ عليه شخصيا اما لا كبيرة، ولحد الان أستغرب لماذا فشلت هذه المحاولات (وقد جرت). وكان لكل منها خصوصيتها وعوامل اخفاقها. وقام بتلك المحاولات في اغلب الحالات، ليس من وقف قريبا من الكويت (ربما ان الأمريكيين منعوهم) وانما أولئك الذين حافظوا على امكانية التعامل مع العراق. مثلا مبادرة

الرئيس السوداني عمر البشير. وربما كان ملك المغرب في وضع فريد، وبذل جهودا ذات صلة، ولكن الحظ لم يحالفها.

إن موضوع المواطنين الأجانب، الذين انتقلوا من أشخاص مجهولين إلى رهائن، يستحق حديثا خاصا. أولاً: ان اختطاف الرهائن بهذا الحجم بحد ذاته حدث غير مسبوق. فالعراق هو الذي قام باحتلال الكويت وهو بنفسه يختطف المواطنين الاجانب كرهائن. حتى هتلر، الذي اشعل الحرب العالمية لم يأخذ رهائن بل منح الأجانب امكانية مغادرة المانيا. ان ابقاء الاجانب كرهائن مؤشر على سايكولوجية صدام حسين الحقيقية، كان كل شيء بالنسبة له مسموح. واية مسرحيات قام بها! زار الرهائن ومسح برؤس الأطفال، لقد كانت صورة غير محتملة. وتجدر الاشارة إلى انه تصرف بوقار وجدارة. حسنا بانه تم السماح لهم مغادرة العراق، لأنه لا يجوز ان نستبعد ان يقوم العراقيون بعد بدء العمليات القتالية بالتنكيل بهم. ولم يصف أحد خبرائنا بالرهائن، ولكن الكفاح من اجل ترحيلهم كان متوترا للغاية. وطالبني أحدهم بأن يُدرجوا هم أيضاً في صنف الرهائن، حيث اشيع بان الامم المتحدة ستمنحهم مساعدة أو تعويض. وهذا بالطبع ليس هو السبب الرئيسي، ولكن تصرف المواطنين الاجانب بجدارة وعدم الرغبة بمغازلة المسرحيات المخزية لقائد العراق لعبت دورها في السماح لهم بالسفر والتخلص منهم. وقالوا لصدام مرات عديدة، بما ذلك الجانب السوفيتي بان التاثير من اختطاف الرهائن يلحق الضرر الفادح به، وان هذه التدابير تعمل ضده. واعتقد ان عملية الرهائن الفاشلة - هي بحق ارهاب دولة - جعلت صدام يدرك بعدم جواز استعمال آلية الارهاب على نطاق واسع، على الرغم من أن الكثير

توقعوا ان العراقيين سيعطون الضوء الاخضر للجماعات التي شكلوها للقيام بعمليات ارهابية في العالم لدعم العراق. ومن حسن الحظ ان هذا لم يحصل. ومن غير المفهوم لماذا لم يتحرك الارهابيون العرب.

في الأيام الأولى للحرب دوت بصورة مؤلمة موضوعة الطيارين الانجليز والأمريكيين الذين وقعوا بالاسر، بعد ان اسقطت طائراتهم الدفاعات الجوية العراقية. هذا كان في البداية، ومن ثَمَّ تم سحق الدفاعات العراقية تماما، وكفت عن اسقاط المقاتلات. في الامسيات الأولى بعد بدء القصف شغلنا المولد الكهربائي وشاهدنا في تلفزيون بغداد هؤلاء الشباب المنهكين. كانوا متخشبين وجامدين، اما انهم تعرضوا للضرب أو اصيبوا عند السقوط أو اعطوهم دواء مخدر. البعض تحدث طويلا عن وقوع خسائر كثيرة والبعض الآخر عارض الحرب وسياسة دولهم.

إن قلة المواد، ادت مع تحسر مصممي الدعاية العراقية، إلى توقف هذه المسرحيات التلفزيونية اليومية، وليس بوسعي ان لا أقول بان هذه التحقيات التي كانت الأولى من نوعها قد تركت لدي ولدى الزملاء الآخرين انطباعات شنيعة. وخطر على البال ان العالم ينزلق نحو فيتنام جديدة، بخطورة ولفترة طويلة وان حربا وحشية وبربرية كبيرة، ستنشب. وعقب ذلك ابتكار شرير آخر - توزيع الطيارين الأسرى على المنشات العسكرية، ولسان العراقيين يقول: دع التحالف يقتلهم بيده. وهذا نموذج آخر لتفكير صدام حسين ورفاقه. انها أفكار شريرة، ولكن لا اعتراض على أنها حاذقة.

التقى الدكتاتور في الذكرى السنوية الأولى للحرب ضد الكويت، بالأطفال ومسح على رؤوسهم. وهم مرة أخرى مثل اخوانهم الأكبر منهم وآبائهم الذين قتلوا في الحرب ضد إيران والكويت هتفوا: (بالروح بالدم نفديك ياصدام) - ودوى هذا بأكثر من صميمهم. وإذ أعرفُ تاريخ العراق، كان من المؤلم لي النظر إلى هذه المسرحيات. لقد استعرض الطاغية اللحم الفتي لتطحنه المدافع. وذكر هذا المشهد بهتلر حين مسح على رؤوس المجندين الجدد من شبيبة هتلر في ابريل 1945 وهو يشيعهم للموت.

في كانون ثاني/يناير 1992 بمناسبة مرور عام على بداية الحرب جرى تنظيم حملة دعائية واسعة النطاق (التظاهر بالعيد والهياج خلاله هو بحق - وليمة في زمن الطاعون) للاحتفاء بـ (الانتصار) في الحرب وببطولة الجيش والشعب الاسطورية، وعبقرية قائد الجيش التي لا مثيل لها، صدام حسين، واعلن القائد بهذه المناسبة ان العراق لم يطلب وقف اطلاق النار، بزعم، هم اي التحالف الدولي طلب ذلك. وشمل تقليد أوسمة الشجاعة ليس الجنرالات وانما الضباط بما في ذلك من المراتب الاصغر، وقلد صدام بنفسه الأوسمة للجميع. واظهر جميل العطف بالاخص على من شارك بقمع الانتفاضة التي اعقبت الحرب وبخاصة حرسه. واستلم صهر الرئيس حسين كامل في إحدى المراسم على الشجاعة وسامين وسيف. وعرض التلفزيون حديثا مطولا لصدام مع الجنرالات والضباط، الذين تبجحوا بالنجاحات. ولم اتوقع شخصيا من العسكريين العراقيين مثل هذه الرياء والنفاق.

(انقطعت المخطوطة عند هذا)

حول الدروس الرئيسية (من الإقامة في بغداد)

« موضوعات للكلمة امام هيئة وزراء خارجية الاتحاد السوفيتي في ايار/ مايو 1991 ».

بالنظر لأن موضوع التقرير الذي جرى تكليفي به حول: «عمل سفارة الاتحاد السوفيتي في بغداد في ظروف العمليات الحربية »، ساتيح لنفسي وبشكل واعي تجنب الجوانب السياسية الدبلوماسية والعسكرية للأحداث الأخيرة والتركيز على القضايا التطبيقية والعملية.

يبدو من الوهلة الأولى ان هذا (أمر ذو شأن) ولكن بالذات تتعلق بـ (نثر الحياة) هذا صحة وراحة، واحيانا حياة موظفي مؤسساتنا في الخارج - وعلى مدى ابعد معنى عملها لاحقا في دول الاقامة.

وباعتباري خبيراً بالشرق الاوسط يمكنني تاكيد ان تأزم الوضع ظاهرة عادية بالمنطقة. ففي غالبية بلدان الشرق الأوسط جرت اما انقلابات عسكرية أو نزاعات داخلية أو ان هذه الدول شاركت في حروب اقليمية واسعة النطاق.

وليس بوسعنا القول ان مثل هذه الاوضاع الاستثنائية مضت أو انها ستكون جزءاً من الماضي.

وبالتالي فثمة معنى للنظر في خبرة عمل سفارة الاتحاد السوفيتي في بغداد خلال أزمة الكويت من زاوية الاستفادة من الخبرة التي تم اكتسابها هناك مستقبلا، اي في حال ظهور حالات مشابهة في البلدان الأخرى وتطبيقها في سفارتنا.

وبعد المقدمة القصيرة هذه أَتيح لنفسي عرض الاستنتاجات والتصورات الرئيسية الناجمة عن خبرة عمل السفارة في بغداد في حالة استثنائية في كانون أول/يناير - شباط/فبراير من هذا العام.

1- ان الظروف المعقدة والاستثنائية التي احاطت عمل سفارتنا في بغداد في كانون أول/يناير - شباط/فبراير تشكلت بالدرجة الأولى من أن القصف الجوي ادى إلى ان يتعطل تماما الاتصال التلفوني والتلغرافي وبالتيلكس، ولم يعمل أيضاً الاتصال بالراديو نظرا لأن العراقيين لم يظهروا بالاثير تخوفا من التعرض لضربات صاروخية بنقاط اشعة الراديو.

وحرمت البلاد من المولدات الكهربائية في ضوء تدمير مولدات الطاقة خلال الحرب، وحتى مولدات الديزل استخدمت في الحالات القصوى. وبالطبع توقفت آليات المياه تزامنا مع عطب التزود بالكهرباء. وكان من الصعب أيضاً التزود بالوقود. واختلت الاتصالات وتنسيق عمل الهيئات الحكومية في البلاد، وعمليا انعدمت إدارة البلاد. ان واقع حرمان البلاد من

الكهرباء كان الأكثر إيلاما، نظرا لأن المجتمع الصناعي كما بينت الأحداث في العراق غير قادر على اداء وظائفه من دون الكهرباء. لذلك فان توفير امدادات كهربائية ذاتية في ظل ازمة طويلة الأجل تعتبر إحدى القضايا الرئيسية لأنشطة الحياة الطبيعية. في الوقت نفسه من الصعوبة في ظل الازمة توفير احتياطات الوقود في وقت مبكر. مثلا عندما يعمل قسم التشفير بوتائر عالية، واحتاجت السفارة يوميا إلى مائة لتر بنزين اضافة إلى مائة لتر ديزل من اجل ان تعمل قنوات الاتصال مع موسكو. اعني ان عمل المولدات المعطوبة، وفرت فقط عمل قسم التشفير والفريزر لحفظ المواد الغذائية وثلاثة لمبات وتلفزيون ويحتاج مد السفارة بطاقة كهربائية طبيعية على اكمل وجه إلى 2 طن ديزل في اليوم.

ومن المناسب انشاء خزان في ارض السفارة يسع لـ 100 طن. ويفسر هذا بالدرجة الأولى وجود خطر متزايد من نشوب حريق نظرا وكما بينت الخبرة إلى ان الشظايا وقسماً من الذخيرة تسقط حتما في ارض السفارة. فضلا عن ذلك ان عمل الديزل ذي القوة الكبيرة يخلق خطرا اضافيا على هيئة اشعة وقود ومغناطيس كهربائي التي ستسدعي انزال ضربة صاروخية. ان خبرة العمل في تلك الظروف يشير إلى ضرورة ان يقنن بشدة استخدام مصادر الطاقة واقتصاد الوقود إلى حد اقصى. ومن الغريب ان الشمعة في بغداد اصبحت مفيدة جدا واحيانا لا يمكن التعويض عنها واصبحت مصدرا للنور. وارتفعت اسعار المنتوجات كالشموع والبطاريات ومولدات الكهرباء بصورة فاحشة. وفي ضوء ان الشموع مادة يمكن خزنها لفترة طويلة فمن المناسب النظر في حفظ احتياط محدد من الشموع الزيتية للاستعمال في الحاجات اليومية فضلا عن العمل أيضاً، واستخدامها في حال عطب شبكة الكهرباء.

وتجدر الاشارة إلى ان وسائل حماية السفارة والاعتماد على الامدادات الكهربائية في ظل الخطر الفعلي اظهرت عدم جدواها التام وفي بعض الحالات خلقت صعوبات اضافية (الاقفال الكهربائية البوابة الحديدية الثقيلة والمواد التي يتم قطعها بمكائن كهربائية،... إلخ).

2- جرت العمليات الحربية في العراق في فترة كانت فيها درجة حرارة الجو في النهار زائدة اما في الليل ففي محيط الصفر. ومن الصعوبة تحمل انعدام الدفء بصورة مستمرة على مدى أيام عديدة، وخلق هذا الوضع عدم راحة كبيرة. واضطر العاملون النوم بملابسهم في قمصلات دافئة، ومع ذلك كان هناك شعور شديد بالبرد. ان حل قضية توفير الوقود في ظل ظروف الحرب، للمقيم في مدينة كبيرة، تبدو مسالة غير واقعية، إذا ما ستنخفض الحرارة أكثر.

ولكن من الممكن خلق ظروف تتيح العمل، ولو في حدود الامكانية البشرية. واتضح لنا هنا ان المسألة الرئيسية هو توفير المواد الغذائية. والخيار الافضل في ظل ظروف وجود فريق غير كبير من 20 شخصا ان تكون المائدة جماعية من دون تقنين محدد. ينبغي ان تكون الوجبات الغذائية في المقام الأول منظمة وغنية بالسعرات الحرارية. واعتقد انه ولحد ما بسبب ذلك، عمل المطبخ في سفارتنا بصورة ممتازة، ولم تقع حوادث مرض، بما في ذلك الرشح، الذي ربما كان ينشأ في ظروف أخرى.

3- من دون شك ان على فريق السفارة، العمل والاقامة في مكان واحد، وبدقة في ارض السفارة. ان الخيارات الأخرى غير مقبولة تماما. وعلى السفير كما يبدو الانتقال للاقامة في السفارة. ان هذا يخلق فرصا اضافية ويضع حدا

للتنقلات غير الضرورية، وفي الوقت نفسه يوفر الوقت الضروري للقيادة وتنسيق العمل.

وعلى العموم يبدو عامل مساواة الحقوق بين الجميع في ظل الظروف الاستثنائية وفي فضاء مغلق، مهما جدا. ومن دون ريب ان هذا يعزز روح الجماعة ويساعد على اقامة علاقات هادئة بين الأشخاص على الصعيد الإنساني. واظن ان المناخ المعنوي الصحي والرفاقي الذي من الضرورة خلقه، والذي يتغير طبيعيا بتأثير الظروف الاستثنائية يعتبر مقدمة هامة لتأدية المهام الماثلة امام الفريق بنجاح.

إن اية هيئة لا تساهم بقسط عادل من العمل في ظل ظروف الحرب، تظهر نفسها بشكل سلبي (الفريق المناوب أو ضباط الامن المحاسبة رئيس القسم الاقتصادي،... إلخ). وينبغي التخلص منها كما اظهرت التجربة، في وقت باكر، وسيعود هذا بالفائدة فقط. وينبغي ان يتألف الفريق الصغير الذي يعمل في ظروف الحرب والضربات المستدامة، من الحد الادنى من الأشخاص، من أولئك الذين من الضروري تماما تواجدهم، بحكم المهام الماثلة. مثلا السفير والمستشار، فضلا عن عامل ذي مهنية عالية غطوا مجالات عمل السواق ورئيس القسم الاقتصادي والمحاسب والناظر/ الفني والقومدانيين وغيرهم، في ظروف عمل على مدار الساعة. ان العمل الكثير يكون اخف في حال ان يقوم به كافة اعضاء الفريق. ان القوة كما يبدو تغدو اكبر.

4- من المهم في ظل الظروف الاستثنائية تقليص - ولأدنى حد - كافة الجوانب الشكلية لأنشطة وعمل السفارة. يعني اقامة علاقات رفاقية محضة وإلى

اقصى حد ودية وشفافة، ينعدم فيها التسلسل السُلَمي والوظيفي، لأن الجميع يدركون في دواخلهم بانهم معرضون لخطر متساوي. ومن المفهوم ان ارسال الجندي من الخط الأمامي إلى الخطوط الخلفية لا يمكن اعتباره اجراءً عقابياً. واتضح من هنا ان المنهج المقبول لتشكيل الفريق هو التطوع من دون ارغام مخفي. واصبح واضحا تماما ان الشخص الذي يبقى بشكل طوعي لا يحاول القاء مسؤولية ظروف الحياة الخطرة على اي من كان.

وعلى العموم ان الحياة المشتركة والمائدة المشتركة وتقسيم العمل بصورة متساوية إلى اقصى حد في ظل الظروف القريبة من الجبهات، تعتبر عناصر تضمن استمرارية عمل يقوم به عدد قليل من الأشخاص. واللافت في الظروف الخطرة وعندما يُتاح وقت فراغ، وهو حتمي في مثل حالات الاقامة هذه، يتلقى الناس بصورة غير عادية العروض الكوميدية (يعني افلام فيديو مسجلة). اضافة لذلك يجري بوضوح تفضيل الأعمال الوطنية.

5- واظن ان خبرة سفارتنا في العراق، حيث لم يكن لديها لا ملجأ ولا مخبأ، يُبَين بجلاء ان من الضروري التفكير في وقت مبكر بإقامة مخبأ أو ملجأ في وقت باكر، وبخاصة في البلدان التي يزداد بها خطر اندلاع اعمال عسكرية لأسباب سياسية داخلية أو خارجية. ومهما بدا غريبا ولكن يتعين الاعتراف بانه وحتى 10 يناير لم تُحل في سفارتنا قضية إنشاء أو بناء ملجأ أو مخبأ يكون من شأنه ان يضمن البقاء من الشظايا وسقوطها المباشر. وتم بوتائر عاصفة بناء المخبا الذي نال شهرة واسعة بمسمى (الأنبوب). وعند استمرار القصف الجوي لفترة طويلة من 5 إلى 6 ساعة أو أكثر، وحتى لواعترفنا من الناحية النظرية ان احتمالات سقوط القنابل غير كبيرة (نظرا لأن السفارة لم تكن

هدفا للصواريخ وغيرها من الضربات) فان الخبرة اظهرت ان المخبأ يؤثر نفسيا ويهدء وبخاصة في الأسابيع الثلاثة أو الأربعة الأولى. فعند القصف الصاروخي حينما يهتز المبنى بشدة مثل زلزال متوسط القوة فان المخبأ التحت ارضي، ولا سيِّما إذا كان متينا يُعد مكانا مريحا للأشخاص الذين يتواجدون في منطقة اطلاق النار والقصف.

إن هناك ضرورة قصوى في مثل ذلك القصف، ان تتوفر في الملجأ الاتصالات التلفونية مع المبنى الرئيسي وتغذية كهربائية واعداد المكان بشكل مناسب لحد ما، من اجل ان يكون بوسع الأشخاص النوم. وبالطبع فان وقوع الملجأ بالقرب من السفارة هو افضل الخيارات، نظرا وكما اظهرت خبرة الحرب العراقية، ان صفارة الانذار عن القصف غالبا ما تنطلق بعد الضربات والقصف. وفي أكثر الاحيان تتأخر لأكثر من 10 دقائق. لذلك تقليص مسافة الطريق من المبنى الرئيسي حيث يعمل الموظفون وإلى الملجأ إلى اقصى حد، يعتبر أحد افضلياته.

ومن الغريب فانه وحال ما تعطلت كافة التلفونات فان اداة التبليغ أثناء صفارة الانذار والتجمع لتناول الفطور والغداء والعشاء،... إلخ، اصبح الاسلوب المُجَرَب والفعال جدا - ارسال الإشارات والمطرقة المعدنية.

6- ان الضرورة المطلقة لبقاء فريق صغير على قيد الحياة في ظل ظروف الحرب العصرية، حينما تقوم الضربات الأولى بالدرجة الأولى بتعطيل الاتصالات ونظام التجهيز، تستدعي وجود احتياطات المواد الغذائية والمياه العذبة الطبيعية والمقصود النظيفة. ولعب في ظل ظروف العراق التعاون القائم وخبرة حرب الثمان سنوات مع إيران. لذلك فان الاحتياطات المخزونة

لسد الحاجة من المواد الغذائية الاساسية ومياه الشرب، قدمت خدمة جيدة بالعراق. ظهرت في المرحلة الأولى بعض التعقيدات بشان توفير المياه للاستعمال اليومي وغسل الصحون والملابس،... إلخ. وكما اظهرت الخبرة في هذه الحالة ضرورة تحجيم استعمال احتياطات المياه، إذا ما كانت موجودة، وينبغي حينها تحديد وقت معين لفتح صنابير المياه لفترة محددة.

7- ان كون سفارتنا كانت في مجرى الازمة الحربية، السفارة الوحيدة القادرة على تنفيذ وظائفه، وفر لنا علاقات طيبة مع غالبية السكان ومع السلطات. لقد ادرك العراقيون اننا بقينا بالنسبة لهم القناة الوحيدة للاتصال بالعالم الخارجي. وهذا كان واقع الأمر. وتزايدت في الظروف الاستثنائية بحدة مطالب تنفيذ المهام التي طرحتها القيادة والتطور الموضوعي للوضع. ان المبادرة والاستقلالية والاستعداد لتبني قرار يكون على مستوى الوضع المترتب أو ما تمليه الاوضاع الجديدة التي لم يتم النظر بها سابقا، تنطوي على أهمية كبيرة بالنسبة للرئاسة والفريق العامل. واظهرت التجربة ان ما يضمن نجاح تنفيذ المهمة المطروحة هو صياغتها التي تُعد لحظة فارقة، ومعرفة الموظفين حقهم بتبني القرار القابل للتنفيذ، وبالطبع في اطار العقل السليم. (وعلى سبيل المثال يمكن الاشارة إلى كيف تم نقل هذه أو تلك من الرسائل العاجلة الواردة من المركز للجانب العراقي وواقع تنفيذ المهام المادية/الفنية لضمان عمل السفارة).

8- من دون شك ان أهمية معرفة المدينة تزداد بشكل جوهري بالنسبة لموظفي السفارة واجادة قيادة السيارة ليلا حينما لا تعمل الاشارات الضوئية في المدينة في ظل الظرف الذي تكون فيه المدينة غارقة في ظلام دامس، ولا

يمكن رؤية اي شيء، بينما يتوجب في ذلك الوقت القيام باتصالات مع رئاسة وزارة الخارجية والبلد التي تغير مكانها بشكل مستمر. واظن ان ليس فقط على السواق المحترفين وسواق السفارة ولكن على الدبلوماسيين العاملين فيها ان يلتفتوا باهتمام اضافي إلى هذا الجانب. وقد تم الكشف عن نقص في اعداد العاملين، مثل المعرفة السيئة بالمدينة وبموقع السفارة وبالوزارات وعدم القدرة على التكلم بالعربية العامية. فمن غير المقبول الاختباء وراء ظهور الآخرين.

ربما كان من الاجدر ان تقوم السفارة بشكل أو آخر بالتعليم والأعداد، وينبغي ان تكون وسائط النقل التي تستعمل في ظل هذه الظروف بحالة مثالية. وعند القيام بسفرة ولا سيِّما إلى مسافات طويلة وفي وقت الليل أو في فترة القصف، جرت العادة ان يكون هناك شخصان في السيارة (تحسبا لاصابة أحدهما).

9- بصدد الاتصال بالهاتف المحمول. ان نظام الاتصال في الظروف الاستثنائية الذي تم نشر الدعاية عنه في حينها من نوع (توكي - أوكي) لا يمكن استعماله في ظروف الحرب. ويمكن بالدرجة الأولى ان يجذب خطرا استثنائيا وحتى مميتا لمن يستخدمه. وحتى العراقيين، كما تمت الاشارة، تخلوا عن استعمال اللاسلكي. علاوة على ذلك ان دعوة الناس في ظروف اندلاع العمليات القتالية إلى استخدام اللاسلكي مسألة غير واقعية. ومن الافضل: أولاً - في حال نشوء حالة استثنائية، على كافة العاملين في المؤسسة ان يكونوا في اماكن عملهم، وعلى الجميع ان يكونوا على علم بذلك سلفا. وثانيا - ينبغي سلفاً وضع خطة لقضايا اجلاء الدفعات الأولى من مواطنينا.

10- ان خبرة اجلاء اعداد كبيرة من الافراد من العراق برهنت على فعالية العمل سلفا على تشكيل لجنة مشتركة من المؤسسات الحكومية برئاسة شخصية رفيعة المستوى.

واظن ان التدابير التي تم اتخاذها في العراق، اظهرت ان اجلاء الافراد قبل بداية العمليات العسكرية ضمنت لنا عدم وقوع اية خسائر بالارواح البشرية. وهذا ممكن تماما في الوقت الراهن، وحتى عند ألية الدولة المنهارة. وفي الوقت نفسه اظهر العراق بأننا نتحرك ببطء في مسالة اجلاء الافراد حتى عند ظهور تهديد مباشر. وعلى سبيل المثال يمكن الاشارة إلى ان طائرة المجموعة الاخيرة التي غادرت العراق، أقلعت من بغداد في 16 يناير في 8 مساءً. حقا هذه كانت مجموعة من 100 شخص من اجمالي العاملين سابقا في العراق الذين بلغ تعدادهم 8 الآف شخص.

11- اظهرت الحياة ان الاتصال هو عنصر اساسي وحتى ممكن القول العنصر الفارق، سواء في بُنية الإدارة أو في تنفيذ المهام الماثلة. ويتعين الاقرار بمرارة اننا، كسفارة دولة كاملة، مجهزين بشكل اضعف بكثير من الشركات التلفزيونية: السي أن أن والسي بي أس،... إلخ. ان الاتصال عبر الاقمار الصناعية، وامكانية الحديث الفوري يصبح ضرورة ملحة. ان ممثلي اليونسيف وغيرها من المنظمات، الذين وصلوا لبغداد فيما بعد الحرب كانوا مجهزين بمثل هذه الاجهزة. والمعروف ان سعرها يتراوح من 50 إلى 70 ألف دولار. وبوسع خبرائنا في هذا المجال ان يفكروا في إنتاج أو اقتناء مثل هذا الجهاز على اساس اشتراك عام به من قبل مختلف المؤسسات، واسهُم مختلف الهيئات واعداد استعمال منتسبينا في الخارج لاستعمال تلك الاجهزة على أساس تجاري.

12- من المعروف ان كافة منشآتنا وبخاصة في الجنوب تعرضت للتدمير التام تقريبا وتكبدنا نحن الاضرار الفادحة بسبب ذلك. فينبغي اعداد نظام تأمين ولا سيِّما في البلدان غير المستقرة سياسيا حيث إن هناك احتمالاً كبيرا نسبيا للعمليات العسكرية.

وفي الوقت الذي لن اتعمق به بالنظر في امكانية التأمين في مجال التعاون الاقتصادي، اتصور ان في اطار وزارتنا من الممكن، وربما ينبغي اعداد آلية تلقائية للتأمين على الحياة لموظفي الوزراة الذين يقومون بمأمورية في الخارج. ان عدم وجود مثل هذا التامين على الحياة لحد الآن، في ظل مستوى عالٍ من الخطر على حياة الافراد اصبح غير مقبول. ومن الواضح لنا جميعا ان العاملين في دوائر الدولة بالخارج يتميزون بخصوصية انهم لا يمتلكون رابطة قوية بالحياة الاقتصادية والتجارية واليومية هنا، كما في الوطن. ان افراد العائلة ولا سيِّما الزوجات، بل وبعض الاقارب الآخرين، غير قادرين على مزاولة عمل كامل. لذلك فان فقدان المُعيل سيكون ضربة قاصمة لتلك الاسرة. ان دُرع التأمين وفي حال اعداد بالتفصيل قواعد انشاءه وعمله، سيقدم خدمة لا تعوض.

13- وتجدر الاشارة بصراحة إلى ان المنظمات الاجتماعية ومنظمة الشبيبة (الكمسمول) وحتى الحزبية لم تظهر قدراتها كما يجب في الظروف الاستثنائية التي ترتبت عشية الحرب وفي بدايتها. وفي المرتبة الأولى كانت مهنية الموظفين متدنية. وفي كافة المراحل كان واضحا بدقة تامة، ان الافراد الذين لم يتمتعوا بإعداد مهني ضروري، معرفة اللغة ومعرفة البلد،... إلخ، لم يأتوا بفائدة فعلية، حتى مع وجود رغبة كبيرة لديهم للقيام بفائدة ما.

14- اظن بانه ليس من الالزام الامتناع عن تنفيذ الاجراءات البرتوكولية حتى في الظروف الاستثنائية وبالذات في مرحلة القيام بعمليات عسكرية. اقصد مثلا تنظيمنا في 23 فبراير (عيد الجيش السوفيتي) حفل استقبال بمشاركة الفعاليات المحلية وممثلي السلك الدبلوماسي المتبقين، فضلا عن عدد غير كبير من ممثلي المنظمات الدولية والصحفيين الاجانب. وعلاوة على التاثير الدعائي السياسي، فان هذه الخطوة ادخلت الثقة لدى العاملين والزوار. وبشكل عام فان السفارة طيلة الحرب اجرت عملا برتوكوليا مثل ولائم الغداء وحفلات الاستقبال، وتعين تأجيل بعضها أثناء القصف. ان اجراء الفعاليات البروتوكولية جعل الافراد يشعرون بالاستقرار، كما خلق لديهم شعور ممارسة العمل اليومي العادي.

15- غدت السفارة مركزجذب لكافة المواطنين الروس المقيمين بصورة دائمة في العراق. وهنا اقدمنا على خطوات، مثل نقل المعلومات عن وضعهم بالشيفر، نظرا لعدم وجود قنوات أخرى في العراق على الاطلاق، واظن بانه وعلى الرغم من الحجم الصغير لمثل هذه المعلومات إلاّ أن هذا كان مبررا. وعلى الرغم من الثقل الاستثنائي، وجدنا فرصة لنقل كافة المعلومات التي تلقيناها، وكذلك الرسائل من خلال الوفود العائدة للوطن والصحفيين. على الرغم من أن هذا يعتبر من حيث الجوهر انحراف عن التعلميات القائمة، التي كما يبدو حان وقت إلغائها منذ زمن بعيد، لأن الرسائل الشخصية لا تمت بأية صلة، في الظروف المشار إليها، بالبريد الدبلوماسي، والبريد لا يمت بصلة بها.

16- ان الجانب المهم لعمل سفارتنا خلال الازمة، وحتى بعده كان تقديمنا المساعدة الملموسة تماما، لصحفيينا ورجال التلفزيون والراديو وعموما

لوسائل الاعلام الجماهيرية، وقد ساعدتهم السفارة بوسائط النقل والوقود وحتى توفير نقلهم إلى خارج العراق. ان اجمالي خبرة العمل مع وسائل الاعلام يشير إلى ان منتسبيها معدين بصورة سيئة من الناحية المادية - الفنية للعمل في الظروف الاستثنائية. وتحولت السفارة بيدهم في هذه الحالة إلى عصا سحرية حقيقية. نحن ندرك ان وسائل اعلامنا اليوم حرة، والكثير منها يتبنى القرارات بنفسه، ولكن ربما من الممكن عقد دورات قصيرة في وزارة الخارجية لإعداد العاملين في وسائل الاعلام وتقديم النصائح لهم عن كيفية ترتيب العمل في ظروف الازمات الحربية.

17- ان ابداء رئاسة إدارة السفارة الاهتمام بعمل الموظفين في ظل الظروف الاستثنائية، يعتبر عاملاً ضرورياً لرفع المعنويات وبعث شعور الفخر بعملهم، ويحفز الرغبة في جعله افضل. ان هذه المكافئة على الجهود الفائقة ستكون عادلة، وقد اختبر الفريق في العراق هذا بأكمل درجة. ان التقدير الذي قامت به رئاسة وزارة الخارجية والبلاد لعملنا ادخل علينا سرورا إنسانيا حقيقيا. وباسم كافة رفاقي اتعهد وبثقة صلبة ان الأشخاص الذين عملوا في العراق مستعدين لتقديم كل ما في وسعهم وملء طاقتهم وان تطلب الأمر حياتهم، وتنفيذ المهام التي تضمن تحقيق مصالح وطننا. ولدينا في الخدمة الدبلوماسية كثير من العاملين المستعدين لاظهار شجاعتهم، وكشفت خبرة العمل في بغداد عن ذلك بوضوح.

واظن ان علينا في المستقبل، عند القيام بمثل هذا العمل، ان نأخذ بنظر الاعتبار الضغوط البدنية والنفسية الكبيرة الذي يتعرض لها الموظفون، في ظل ظروف الحرب، وبعد اتمام المهام، من الاجدر التفكير بإعادة تأهيل

هؤلاء العاملين لمدة 3 - 4 اسابيع في دور الراحة والمصحات. وبالطبع ينبغي ان لا تقوم اعادة التأهيل على ارسالهم إلى هناك على هيئة مجموعة. فعلى الأشخاص الذين عاشوا معا، واختلطوا على مدى فترة طويلة في فضاء مغلق على مدار 24 ساعة متواصلة، الراحة بعيدا عن بعضهم الآخر.

ومن المهم للغاية في مثل هذه الظروف وجود اتصال مع الوطن واستلام الرسائل والاخبار من العائلة المتواجدة في الاتحاد السوفيتي. وعند انعدام البريد بصورة منتظمة،... إلخ من الاجدر ان يتبنى الفريق العامل في موسكو قرارات غير نمطية لإيصال الرسائل (مثلا بالنسبة للعراق من خلال الدول المجاورة: إيران أو الاردن) اضافة لذلك من الطبيعي ان يتم القيام بذلك بسرعة فائقة. وربما ليس هناك افضل من القسم المختص بالعراق القيام بتنظيم مثل هذا العمل، بشرط حصوله على المساعدة الكثيفة لهذا من كافة الهيئات والمؤسسات وتنسيق اي عمل وخطوات وتوجيه الأشخاص في نقطة الازمة. وعلى كل حال ينبغي التفكير بتنسيق مثل هذا العمل الإنساني المحض مع الأشخاص المتواجدين في النقاط الخطرة.

18- ومن المعروف ان سفارة الاتحاد السوفيتي قامت خلال فترة الحرب بتمثيل مصالح فرنسا، ومن الناحية العملية مثلت العديد من الدول. وقد نفذنا كافة المهام وحتى المعقدة جدا، مثل الافراج عن الصحفيين المختطفين. وتطلب تنفيذ هذه المهام الكثير من الوقت والجهود، وعموما إذا ما تحدثنا بصراحة تامة، فان الأمر يتطلب إقامة علاقات شخصية وثيقة مع قيادة البلد. اضافة إلى وجود عاملين يتحلون بموهبة رفيعة جدا وطبع ثاقب وفي نفس الوقت مرن، ليكونوا قادرين على جناح السرعة اقامة علاقة ثقة

على المستوى المطلوب، وعلى العموم يتمكنون من العمل حتى خارج حدود المطالب العادية والدقيقة.

إننا نعرف جيدا المردود الايجابي الكبير الدعائي من نجاح اعمال موظفينا في مجال السياسية الخارجية. وفي الوقت نفسه ينبغي الاشارة إلى وجوب ان تكون المهام المناطة بهم متوازنة إلى ارقى حد وتاخذ بالاعتبار الامكانات الفعلية التي لدى الفريق. وبعكسه ففي ظل ظروف ازمة أخرى يمكن ان تصبح بالنسبة للفريق العامل مهمة تعجيزية ثقيلة وبالمقام الأول عملاً مرهق معنويا. وإذا ما تحدثنا بصراحة ففي حالات كثيرة من الضروري لإنجاز هذه المهام توفر قسطاً كبيراً من الحظ. ومن المفهوم ان من غير الممكن اعداد وصفات في وقت مبكر لكافة حالات الحياة ويخيل لي ان على سفارتنا في ظل اقتراب الازمة ان تاخذ بالاعتبار سلفا حتمية وضع مثل تلك الوصفات، نظرا لأننا لا نستطيع رفض تقديم المساعدات الإنسانية. وفي وقت مبكر تصنيف القضايا التي يمكن ان تنشأ في هذه الحالات.

ومن الممكن تشكيل فريق عمل غير كبير مع دعوة ممثلي المؤسسات الأخرى والعاملين في مجال وسائل الاعلام والمنظمات الاجتماعية له، ويقوم مع الاخذ بالاعتبار كافة الجوانب والمشاكل والصعوبات وطرق ومناهج حلها، بتحليل مجمل خبرة السفارات في ظل ظروف الحرب ووضع توصيات ذات طابع عملي تتيح تسهيل عمل الفرق التي تجد نفسها في ظروف استثنائية. اننا مسرورون جدا ان هيئة وزارتنا نظرت لنشاط السفارة من زاوية طازجة غير نمطية - ليس كتقرير عن عمل محدد معروف جيدا لرئاستنا أو نواقصه وانما من زاوية البحث عن خبرة مفيدة وسبل ضمان نجاح عمل بعثاتنا في ظل الظروف الاستثنائية.

19- بصدد قضية مكافئة الافراد في ظروف الحرب حيث يكون كافة العاملين في جماعة صغيرة في ظروف متساوية، سواء منهم العادي أو الرئيس. الجميع يتقاسمون صعوبة الحياة اليومية والعمل وبالتساوي، وبالطبع يمكن ان يتعرض أحدهم بحكم الظروف الناشئة، إلى خطر اكبر، واظن ان المكافئة لمن عمل في ظروف استثنائية يجب ان تكون متساوية. وهذا باي حال من الاحوال لا يمت بصلة بعبارة: (لكل اخت بقرط). انا اشير إلى ان الأشخاص الذين يستحقون المكافئة لعملهم في ظروف متساوية، ينبغي ان يستلموا مكافئات متساوية. ان هذا لن يزعج باي حال من الاحوال الرؤساء، بل على العكس سيرص صفوف الأشخاص، ويظهر أهمية جهود كل إنسان في جماعة صغيرة، تعيش في ظروف الحرب. ان هذه العلاقة في حقيقة الأمر ستظهر قيمة كل موظف وتقنعه بان جهود كل فرد قيمة بطريقتها، ومتكافئة القيمة بالنسبة للجماعة. بالطبع لا نريد القول ان يكون الجميع على الاطلاق متساوين بالتميز. ان أشكال التشجيع يمكن ان تكون متنوعة: يمكن ان تضاف مكافئة إلى الأوسمة الحكومية للأشخاص العاملين في مختلف المؤسسات.

20- لم يكن بودي ان أتناول هذه القضية، ومع ذلك سأتحدث عنها. اننا نولي اهتماما خاصا إلى عدم السماح بتناول المشروبات الكحولية في ظل الظروف الحياتية والمناخية الصعبة، ولا سيِّما إذا صاحبتها اعمال عسكرية، ولكن يمكن ان يكون هناك بعض الأشخاص الذين يميلون إلى ازالة التوتر والضغط العصبي عن طريق تناول المشروبات الكحولية. واتفقنا نحن على عدم اللجوء إلى المشروبات الكحولية لأنه بحلول مفعول الخمار يضعف جسم الإنسان. اننا لم نفرض منع تناول المشروبات الروحية منعا باتا، وحتى احتفالنا بمشاركة الجماعة باسرها، باعياد ميلاد كافة الأشخاص، ولكننا

تناولنا الواين بكمية رمزية. وبقناعتي الشخصية، والتي يشاطرني بها الكثير من رفاقي، ان تجنب تناول الخمور بصورة دورية، اتاح لنا عبور هذه الازمة من دون خسائر ملموسة بالصحة والأمراض ما شابه ذلك، مما لا يحدث دائما حتى في الحياة العادية والطبيعية.

21- هناك أيضاً جانب اخلاقي/نفسي. ان عدم وجود نساء يؤثر على عمل جماعة إذا كانت مجموعة رجالية محضة، عاشت خلال فترة طويلة. ان موضوعة الأنثى، في ظل ظروف الحرب حتى من البعد الجسدي، تهيمن في فترات الراحة على كافة الاحاديث. وعن اي شيء بدات الاحاديث، فانها تنتهي كما في الاحاديث المعروفة (بخراب البصرة). من المفهوم ان القضية لا تتعدى الاحاديث المحضة، ولكني اظن ان من الضروروي التفكير بوضع توصيات بها لتخفيف تأثير العامل، وربما على اطباء الأمراض الجنسية (SEXOL-OGY) ان يقولوا كلمتهم في الموضوع.

21- ومن المفيد والمناسب ان يجري تبني قرار تشكيلة الجماعة العاملين الباقية قبل نشوء الوضع أو فورا وتحديد الحجم المقبول للجماعة الباقية وليس عن طريق التقليص التدريجي للعاملين في بلد الجماعة. ان توديع اعضاء الفريق على هيئة جماعات في ظل الحرب يهدر الكثير من الجهد البدني والنفسي.

23- وعلى خلفية ان الكثير من مواطنينا يسافرون إلى الخارج للعمل بصورة دائمة ويقيمون في مختلف نقاط الكرة الارضية، التي لا يستبعد ان تنشب بها أوضاع استثنائية، من المهم ان تعمل وحتى رمزيا ممثلية دبلوماسية لبلدنا. ان خبرة العراق يؤكد هذا بجلاء. ان واقع بقاء السفارة في بغداد اكتسب في العراق أهمية معنوية/نفسية من زاوية سياستنا الخارجية، وكعامل إنساني

بسيط، ولا سيِّما لجميع المواطنين السوفيت الذين اقاموا في العراق بتلك الفترة. لقد لاحظوا ان لديهم أملاً بالمساعدة من سفارة بلدهم، التي وبغض النظر عن الظروف الصعبة، واصلت العمل ودافعت بالطبع عن مصالحهم. ولحد ما بفضل جهودنا، لم يصب أحد باذى من المواطنين السوفيت. لذلك على سفاراتنا العمل على الرغم من الظروف التي تنشا في بلد الاقامة. وتوصلت جماعتنا باسرها لهذا الاستنتاج، وهم الذين شعروا وبإخلاص بالفخر كونهم تمكنوا من اسداء المساعدة لابناء وطنهم. وعلينا، حتى من المنطلق الإنساني، ان نقوم بذلك في المستقبل.

24- ان عامل التشجيع ماديا يعد هاما بالنسبة للجماعة ولا سيِّما للفنيين. وبفضل عمل المركز فقد سويت هذه القضايا فورا وفقط على حساب راتب مدير الشؤون الاقتصادية التي جرى توزيعها ما أدى إلى رتفاع اجور الآخرين بعض الشيء. لذلك فان الموظفين لم يبدوا اي احتجاج على وضعهم بالرغم من أن العمل كان يجري على مدار الساعة تقريبا، واتضح لهم بانه يجب العمل بهذا الشكل، ولو بسبب ارتفاع الرواتب. واظن ان مثل هذا القرار سيكون مفيداً في الحالات الأخرى.

25- هناك ملاحظة أخرى. يخيل لي انه وحينما تعمل سفارتنا في ظل هذه الظروف، من الضروري على كافة ممثليات دولتنا الرسمية، مراعاة الحذر في اية بيانات أوتصريحات علنية، بشان قيادة بلد الاقامة والبلد بشكل عام. ان تصريحا غير متوازن لا يعود علينا بنفع، يمكن ان يلعب دورا استفزازيا ويؤدي إلى تداعيات خطيرة على حياة مواطنينا أو قيام السلطات المحلية ببعض الممارسات كما اظهرت الأحداث في العراق، حيث إن تصفية إنسان عملية ابدا غير معقدة.

بصدد ازمة شباط - فبراير حول العراق

مختزل كلمة فيكتور بوسافاليوك امام مجلس قدماء وزراء الخارجية الروسية 3 ابريل 1998:

إن لقائنا يجري في اليوم الذي يمكن ان يمد خط النهاية على الملحمة المتعلقة بـ (منشات الرئيس)، فقد تم امس، وليس من دون صعوبة، الانتهاء من التصوير الجوي لآخر منشأة حاسمة - قصر صدام حسين الرئيسي. واليوم سيقومون بتصوير قصر الرئيس في الموصل، وجرى تاجيل التصوير فقط لأن الجو قبل ثلاثة أيام حينما وصلت اللجنة الخاصة، كان سيئا (بالمناسبة يعمل في قوام الفريق الخاص ممثلونا من بينهم كالوجين، نائب إدارة في الخارجية)، ولم تتمكن الطائرة المروحية ان تقوم بالتصوير التمهيدي لساحة القصر. وعلى العموم تمت ازالة المشكلة والبلبلة التي نشأت خلال زيارة الفريق الخاص وتسويتها، بما في ذلك بمساعدة تدخلنا اليومي. وهذا يوم مشهود. وجميعكم كدبلوماسيين مجربين تدركون، ان العالم كان في شهر فبراير على حافة نشوب نزاع دولي، ومن اجل ماذا؟ لم يتم العثور على اي شيء في هذه المنشات. وتم اخذ عينات من الورق والماء والحصى، وجرت تنقيبات ونبشوا في جميع ارشيفات هذه القصور، وقاسوا

نسبة التلوث بالمواد المشعة حتى في المراحيض. وعلى الاجمال تم بصورة دقيقة معاينة 1500 مبنى وقاعات وغرف في كافة المدن. ولم يعثر على شيء.

بوسعنا ان نتصور، لو لم يتم النجاح بالحيلولة دون نشوب نزاع مسلح لنفذ السيناريو الحربي، ولأجل اي شيء؟ فمن الزاوية العملية لا لشيء. اليوم بالذات بوسعنا ان نُعلق بثقة تامة وبارتياح. ونحن نفكر كيف لنا ان نكسب دعائيا ونرسخ في وعي، ليس فقط الذين يتفقون معنا بالراي، الذين ساعدوا طيلة الوقت بالكفاح من اجل التسوية السياسية، بل في المقام الأول في وعي أولئك الذين دعوا خلال هذه الاسابيع إلى استعمال القوة ضد العراق.

وفورا أود الملاحظة (ونحن قمنا بذلك خلال النزاع)، باننا قمنا بخطوات مكثفة ليس لأننا محامون بوله عن بغداد. لا ابدا. اننا بالمناسبة، وخلال المحادثات مع طارق عزيز عدنا عدة مرات لهذه المسألة، وحتى إنه قال في أحد بياناته الرسمية، ان روسيا لا تعتبر محامي لبغداد، وقصارى القول انها تنتهج خطأ موضوعيا على صعيد السياسة الخارجية.

إن فلاديمير جيرينوفسكي كان محامي الدفاع. فهو أيضاً زار العراق ومن دون التمعن في جوهر القضية، دافع من دون تمييزعن اي موقف لبغداد. ومن جانبنا ابتعدنا عن مثل هذا الموقف، وبالمناسبة ان هذا الموقف غير رابح، لأنه لن يفتح اي فضاء للحديث مع الجانب الآخر. حينما كان وفد مجلس الدوما في بغداد، جرت محادثة على حدة مع جيرينوفسكي، ومن ثَمَّ جاء الوفد باجمعه للسفارة ونحن مع السفير نيكولاي فاسيليفتش كارتوزوف استقبلنا هذا الوفد. وتساءلت انا: لماذا

جئتم إلى هنا؟ هنا كل شيء مفهوم، هنا سهل لكم، وبالطبع ان الجميع يحملونكم على الاكتاف ويبجلونكم على العمل الذي لا يُصنع بايادیكم، عليكم الذهاب إلى الكونجرس الأمريكي، عليكم الذهاب إلى البرلمان الانجليزي، وهناك برهنوا على صحة رأيكم، فما بوسعكم ان تعملوا هنا تحت عاصفة التصفيق؟ ليس هذا هو ما ينبغي عليكم القيام به. وبالمناسبة، انهم اصغوا للكلام، وان البرلماني فلاديمير لوكين توجه فعلا إلى واشنطن واجرى محادثات في الكونجرس.

لماذا نؤكد على موقفنا الذي يفيد باننا لا نعتبر انفسنا محاموا دفاع عن بغداد؟ لأن لهذا النزاع بالنسبة لروسيا ابعادا تذهب بعيدا عن اطار العراق. وبهذا الصدد ثمة الكثير من الامثلة، واخرها يتعلق بالمحاولة التي قام بها الانجلو ساكسوني الرامية لإدخال تعديل على نص القرار الذي يصادق على المذكرة التي وقعها كوفي عنان وطارق عزيز في بغداد. ان التعديل المطلوب يقضي بمنح الولايات المتحدة وتلك الدول القليلة التي انضمت في تحالف، الحق بانزال ضربة تلقائية ببغداد، من دون ترخيص مجلس الأمن، ولكن انطلاقا من القرارات السابقة، كأنهم ارادوا ان تبدو افعالهم مكرسة لدعم هيبة الامم المتحدة ومجلس الامن الدولي باعتباره جهازة الرئيسي. ان هذا تعديل خطر للغاية، يخرج بعيدا خارج اطار الموضوع العراقي. وكان سيكون سابقة خطيرة في التطبيق الدولي. ولَظَلَ على المجتمع الدولي فقط ان يحزر، من سيكون المرشح التالي؟ من (وليس بالضرورة الأمم المتحدة) سيستعمل مثل هذا الوضع (الذي ما زال سابقة)، حينما لا يتوجه إلى مجلس الامن ويفسر بنفسه بشكل متعسف قرار مجلس الأمن الدولي، ويقوم بانتحال حق انزال ضربة ببلد ما أو بمجموعة من الدول؟ ولكن بوسع مجموعة دول ان تُفسر لصالحها قرار

مجلس الامن وتقوم بانزال ضربة. وهذا واحد من الامثلة الذي يبين إلى اي حد كان ذلك خطرا. أو إذا كنتم قد اصغيتم بانتباه لبيان الولايات المتحدة فيمكن ان يكون قد تشنفت اسماعكم ببيان ريتشاردسون – ممثل الولايات المتحدة في الامم المتحدة. فحينما ذهب كوفي عنان إلى بغداد كان واضحا، ان القضية تتجه ايجابا بهدوء نحو الانفراج السلمي، اعلن ريتشاردسون حرفيا بالتالي: « إذا سنرى الاتفاق الذي يتم التوصل الية، في بغداد يناقض مصالح الولايات المتحدة فاننا في كل الاحوال سننزل ضربة بالعراق ». وتصوروا لو ان طرفا آخر على الكوكب الارضي سول لنفسه بمثل هذا النوع من البيانات! وبالمناسبة ان هذا البيان مر من دون ان يلاحظه أحد، ولم يجر الرد عليه بالشكل المناسب، بينما تكمن خلف هذا محاولة إنشاء سابقة خطره.

وفي الوقت الذي اتحدث فيه عن ذلك أود الاشارة فورا، ان تحركاتنا، وعلى العكس مما يحاولون اتهامنا به، لم تنطوِ على طابع معادي لأمريكا. لقد شاهدتم، بما في ذلك في وسائل اعلامنا، القيام بمحاولة لصق بنا معاداة الولايات المتحدة. وفي حقيقة الأمر وكخبير عمل في الشرق الأوسط بوسعي التاكيد بموثوقية مطلقة باننا وبتحركنا على العكس من ذلك، جنبنا الأمريكيين التعقيدات الشديدة، إذا لم نقل الدموية، لتركات (السيناريو العسكري)، الذي وضعوا الرهان عليه في المرحلة الأولى. انظروا كيف كان رد فعل الفلسطينيين. وإلي أي حد احتدم الوضع في الاراضي الفلسطينية قبل ان يحدث أي شيء. انظروا إلى انفجار الميول في الاردن، في مدينة عَمان، واية أحداث ضخمة جرت! فضلا عن ذلك فان هذه الأحداث اخفت وراءها اشياء اكبر – ليس العراق ببساطة، وانما استياء من سياسة الملك،

ومحاولة لتحديه. لقد كانت تلك إشارات قوية للغاية، في وقت لم يحدث به اي شيء. للنظر كيف تصرفت مصر والرئيس مبارك، الذي لم يرغب ابدا بالتخاصم مع الأمريكيين، وسنتحدث بصراحة، انه كان محاطاً بعقود ذات صفة مادية جعلته مضطرا ليعلن عن موقفه ويشير إلى كيف سيكون رد غالبية المصريين. وبكلمة أخرى كان من السهل التنبؤ ليس فقط بانفجار الميول المعادية لأمريكا وانما اندلاعات التطرف والارهاب والاغتيالات الأكثر خطورة. ونحن نعرف مدى حساسية ذلك بالنسبة لأمريكا.

هناك من يحاول ان يتهمنا بمعاداة أمريكا. ونحن نقول نعم ان موضوع العراق اندرج في تلك الأيام بتوتر في جدول أعمال العلاقات الروسية - الأمريكية وانه كهرب الجو. ولكن بوسعنا ان نتصور ان هذا التوتر كان سيكون أكثر شدة لو وقعت الضربة العسكرية. وباستطاعتنا ان نتصور كيف ان غالبية سكان روسيا سيستاؤون، وأي شكل سيتخذه امتعاض سكان روسيا وأية تهديدات فعلية كانت ستتعرض لها العلاقات الروسية - الأمريكية. لذلك من السهل الرد على موضوعة معادة أمريكا، ولو أن من يستعملها لا يعجبة موقف الرئيس ولا وزارة الخارجية من الأحداث المتعلقة بالعراق.

وتجدر الاشارة إلى انه لو ان روسيا وقيادتنا، وشخصيا الرئيس كانوا يميلون بحزم نحو التسوية السياسية وبهذا ليس فقط بقناعتهم الخاصة، وانما احتراما لميول البلد باسرها، ففي أمريكا كان الوضع معكوسا - اكتسبت الميول المعادية لصدام والعراق هناك طابعا شموليا، وتعرضت الإدارة الأمريكية إلى ضغوط

ملموسة. وبالرغم من أن الكثيرين دفعوا بها لتوجيه الضربة. ولكن ينبغي القول لو جرى تنفيذ المغامرة العراقية لعادت بتداعيات خطرة على ادراة بيل كلينتون. وان الجمهوريين إذ طالبوا كلينتون بشكل مستدام بالتشدد، فانهم دفعوه نحو الحافة التي كان من الممكن ان ينحدر منها.

وعند الحديث عن وسائل الاعلام الروسية، التي كما هو معروف، لم تحظ بالاهتمام، ولكن هذه المرة كان الوضع مناسبا أكثر. وهذا أيضاً انعكاس لعموم ميول روسيا ضد السيناريو العسكري. ان (لغز الروح الروسية) يتحول سلبا بالنسبة لنا. فيشككون دائما بوضعنا خططاً ما لم يتم حتى الان الكشف عنها، شيطانية خارج ادراك الإنسان.

بماذا يختلف وضع عام 1991 عن 1998. إذا كان العراق قد تلقى عقابا يستحقه على احتلاله للكويت وحتى غير اسم هذه البلد في 1991، فان الان لوحة أخرى. فأين يكمن جوهر الحدث، الذي يعيد بسعة نطاقه 1991، إذا ما نظرنا إلى الحشود العسكرية في الخليج والاستعداد لاستعمال الانواع الجديدة من الأسلحة؟ ان الفرق عن تلك الأحداث يكمن في ان الذي من يُدعى باتلر رئيس اللجنة الدولية للتفتيش في العراق، لم يتمكن من الاتفاق على اسلوب زيارة (المنشآت الرئاسية)، بالرغم من أن هذا الموضوع من ابتداع الجانب الأمريكي. فرئيس اللجنة السابقة ايكروس حتى لم يحلم بالدخول إلى هناك. وبغتة جاءت هذه الفكرة. فما دام ان القرار سجل كافة المنشآت فهيا بنا نلقي نظرة في المنشآت الرئاسية وفي الوقت نفسه نفجر الوضع ونعود به إلى نقطة الصفر.

على هذه الشاكلة، ان الوضع يختلف جوهريا. في حالة الكويت كان اغتصاب دولة وعقاب مستحق، وهنا حكاية تافهة. وقرروا ان لا يتفقوا ودفعوا بالجيوش في الخليج بكلفة 5 مليار دولار. ان البنتاغون شطب على كافة أوراق تصفية أسلحة الدمار. ويُطرح سؤال مشروع لم يرد عليه أحد. إذا كانت لدى البنتاغون معطيات عن المواقع السرية لأسلحة الدمار الشامل في العراق، فلماذا لم يأت ويبلغ باتلر مباشرة بذلك، ويدله عنها؟ وبدلا عن ذلك يتم اخفاء المعلومات. ان هذا الموقف لا يصمد امام اي نقد.

بشان البيلوجيا والكيمياء. ان الولايات المتحدة الأمريكية على ثقة بان لديهم أسلحة يمكن ان تصفي مخزون أسلحة الدمار من دون (تسريب). ولكن لنتذكر الهلع الذي اصاب إسرائيل والاردن. التقيت عقب اللقاء في مدرريد مع ولي العهد الاردني وقال لي ان بانه تم شراء كافة المضادات الحيوية واقنعة الحماية من الغاز. فحاولوا ان توضحوا!

وفي بغداد نحن اجرينا الاستعدادات للاجلاء. ونحن كنا رواد التسوية السلمية. وكلفنا وزير الخارجية بفجيني بريماكوف بالتحضير لاقصى حد ولكن علينا الانتظار، نظرا لأنه يمكن تفسير اي تحرك من جانبنا كما لو (نخفي شيئا). في يوم وصول كوفي عنان طفق موظفو الامم المتحدة بالسفر. وقال لي أحد سفراء دول أوروبا الشرقية ان هذه كانت اشارة، ولكن منطق الأحداث لم يمنحنا الأساس للشعور بالنفرزة والعصبية.

كيف جرى تنظيم العمل؟ لقد كنت طيلة الفترة هناك. وجاء لبغداد فرنسي ومبعوث فلسطيني ووزير خارجية تركيا، وجاء إلى هناك في وقت متأخر امين عام جامعة الدول العربية، حيث اعلن عن رفضه الضربة العسكرية. بيد انهم جاؤوا وعادوا فورا. وكان لديهم كلهم جدول اعمال مكتظ. وأتذكر ان وزير خارجية قطر وصل لبغداد وقال لي بانه يتلقى اتصالا هاتفيا من أمريكا كل ساعة، ويطالبونه بمغادرة بغداد (حالا).

استقبلوني في بغداد بصفة ممثل خاص للرئيس، وانزلوني في فيلا خاصة. وهذا أمر جيد نظرا لأن كافة الفنادق كانت غاصة بالصحفيين. وأتذكر ان إحدى الصحفيات، قالت لي وهي تودعني (انكم احبطتم) العرض (فنحن جئنا لنرى الدم).

التقيت بالرئيس أربع مرات، ومن الصعوبة حصر عدد لقاءاتي بطارق عزيز. وجرى كل ذلك للبحث عن الانفراج، ولم يثق احداً، بان من الممكن العثور عليه ببذل بعض الجهد. وقال لنا العراقيون، ان الكلام يدور عن الأماكن التي يعيش بها الرئيس. وحتى حينما عثرنا على اسلوب، نشأت فجأة فكرة زيارات مجددة. وقال لي طارق عزيز بصراحة، ان الرئيس محبط، لأنهم سيقومون بزيارة غرف نومه من دون انقطاع. كانت هناك الكثير من العوائق امام الانفراج، التي بسببها رفضوا في نيويورك في المراحل الأولى مقترحاتنا تماما. لذلك اخذ العمل وقتا طويلا. واستغرق الاتفاق على شكل نص الاتفاقية مدة طويلة.

أين كانت تكمن قوة الموقف الروسي؟ أولاً لأننا تدربنا جيدا في نوفمبر، حينما ابعد العراقيون المفتشين الأمريكيين وجرى وقف كل انشطة التفتيش في العراق. حينها التقى يفجيني بريماكوف في جنيف مع أولبرايت وكويين وفريدون وزار جمهورية الصين الشعبية. وهنا ادركنا وجود امكانية للكفاح ضد السيناريو العسكري، ولكنه يستدعي عملا دقيقا، وتقديم البراهين سواء للجانب العراقي (اجرينا مع طارق عزيز في نوفمبر بموسكو لقاءً مفيدا) أو في العمل مع الانجلو ساكسوني. لقد كانت تمرينا اخيرا. وفي نهاية كانون ثاني/يناير وحينما اكتسبت التطورات طابعا مهددا، كانت لدينا تحضيرات جاهزة عن كيفية التحرك واية براهين ينبغي طرحها.

وتجدر الاشارة إلى ان الجانب الأمريكي كاد يتأخر عن اعداد موقفه السياسي، لأنهم اعتقدوا بفشل الجميع. لذلك بينما كانوا واثقين (بالسيناريو العسكري)، فانهم لم يعكفوا بعمق على صياغة براهينهم السياسية. وانطلقوا من أن العراقيين لن يوافقوا على زيارة (المنشآت الرئاسية)، وباشروا بزيادة القوة العسكرية في الخليج. وبالطبع فان الوضع العسكري ضغط على اعصابنا. وفي الوقت نفسه هدد الأمريكان. أتذكر ان لقاءً انعقد في جامعة في أوياهو بمشاركة أولبرايت وبيرجير وكويين وهناك هم اخفقوا وفورا طفقوا بغلق الخلل. وينبغي القول بانهم قاموا بالكثير. لقد ادركوا اننا قمنا بعمل كبير مع الراي العام وعملنا بنشاط مع حركة عدم الانحياز. وعموما من تذكر المنظمة؟ نحن تذكرناها ورحنا نطرق باب حركة عدم الانحياز ومنظمة المؤتمر الاسلامي. ورحنا إلى جامعة الدول

العربية. وبكلمة واحدة اننا عملنا بكثافة مع المنظمات الاقليمية. ووقفت غالبية البلدان إلى جانب التسوية السياسية.

وحينها بدأ الجانب الأمريكي مع (الشعور بالمرارة) بالعمل. وبعد انتهاء الأحداث كنت في الامارات، التي عجلت برمي بالكثير. ان الخليجيين راحوا يعارضون براهيننا بصدد خطورة التداعيات بينما انها حتما كانت ستكون كارثية.

وعموما لقد كان من الاهم بالنسبة لنا وضع البراهين مع العراقيين. ان البراهين المجربة في عام 1991 لم تعد تعمل. وتحدثت غالبية الدول التي تعاملت مع العراق عن كارثة الحرب والضحايا البشرية. ولكن العراقيين لم يستوعبوا هذه الكلمات. ولم يكن في بغداد خوف من الضربات، لقد كان وضعا أخرا. ان ما يروع العراقيين أكثر هو استمرار الحصار الذي يصفونة بالموت البطيء. وفي هذا كانت تكمن براهيننا. وقلت لهم: «نعم اننا نفهم انكم شجعان، ولكن دعونا ننظر بواقعية. إذا نشبت الحرب فسوف يجري تدمير مركز المراقبة الفريد من نوعه في بغداد، وسيترسخ لدى المجتمع الدولي رأيا مفاده انكم ساسة بُلداء، وينبغي التفكير بذلك». دخلنا في جدل طويل، ومرة أخرى كان صدام بسره يعتقد ان العالم باسره حتما سيدعمه. وقلت له ردا على ذلك: ان الجميع وحتى ياسر عرفات إذ يدعمون العراق فانهم يناشدون بغداد لتنفيذ قرارات مجلس الامن. وإذا تم تدمير مركز المراقبة في بغداد فانكم لن تنفذوا القرارات، وبهذا تفقدون الدعم البسيط. وتجدر الاشارة إلى ان النجاح كان حليفنا. وعلى العموم، ربما ان ما جرى هو الحركة الأولى على طريق عالم متعدد الاقطاب.

بغداد بعد الحرب والوضع في وزارة الخارجية الروسية

اعداد: سفتلانا نيكولايفنا
عقيلة الراحل بوسافاليوك

انتهت الاعمال القتالية للتحالف المضاد لصدام الحربية ضد العراق بعد الانسحاب من الكويت، في بداية ابريل. واقام فيكتور بوسافاليوك في بغداد سنة أخرى. وبمرسوم من رئيس الاتحاد السوفيتي ميخائيل غورباتشوف جرى منح فيكتور بوسوفالوك وسام الراية الحمراء للمقاتلين على (الصمود والجرأة والشجاعة)، ومن النادر تقليد مثل هذا الوسام لشخصية مدنية من وزارة الخارجية. وحينما جاء إلى موسكو لتمضية فترة اجازة قصيرة، وبطلب من وزير الخارجية حينذاك الكسندر بيسميرتنيخ، القى فيكتور تقريرا امام هيئة وزارة الخارجية السوفيتية، عرض فيه الظروف التي عملت بظلها السفارة في بغداد خلال الاعمال الحربية والدروس التي يمكن استخلاصها.

ومن ثَمَّ عاد إلى بغداد ومرة أخرى اجرى الاتصالات الصعبة والمؤلمة مع العراقيين الذين كانوا مستائين بصورة مميتة من موسكو على موقفها من ازمة الكويت.

من رسالة فيكتور. كانون ثاني/يناير 1992... استلمت امس رسالتك شكرا على المعلومات. انها تساعدني. ولي رجاء عندك. لقد شغلتني مناقشات فاسيلي ايفانوفيتش بصدد رغبتي في تغيير المكان. كنت اتمنى هذا سابقا. والان لدي ميول أخرى وادراك وجوب التماسك وعدم الظهور. لهذا لدي رجاء كبير بان تتصلي هاتفيا بفاسيلي ايفاوفيتش وتخبرينه باني استلمت نصائحه، وانا ممتن له. وسآخذها بنظر الاعتبار، وليست لدي رغبة في تغيير المكان وحتى على العكس من ذلك. واني ارجوه ان يأخذ هذا بالحسبان، مع تحياتي الأخوية له.

في اغسطس 1991 انهار في موسكو مجللا بالخزي تمرد اللجنة الحكومية لحالة الطوارئ ومن ثَمَّ تم التوقيع على اتفاقية بيلافيجسكية. ولم يعد وجود للاتحاد السوفيتي، الدولة العظمى.

وسافرنا في 1992 مع الحفيدة بولينا التي كان لها 3 سنوات إلى بغداد. ولم يفتتح مطار بغداد حتى بعد مرور عام على الحرب، وتوجهت الطائرة التي اقلتنا إلى عَمان ومنها بالسيارة إلى العاصمة العراقية التي تبعد بحوالي 1000 كم.

وحكما بالرسالة التي ارسلها سيرغي ايفانوف، الذي كان حينها السكرتير الأول ومنذ عام 2005 سفيرا لروسيا الاتحادية في سلطنة عمان لفيكتور، فان الاجواء التي سادت وزارة الخارجية الروسية كادت تكون كارثية، وفي ظل هذا الوضع اراد فيكتور العمل في بغداد وحتى إن تخفت كل الانفعالات. ولكن في موسكو وفي اطار خطط احياء جهاز وزارة الخارجية السوفيتية التي تحولت إلى وزارة خارجية روسيا الاتحادية تقرر مصيره اللاحق بشكل آخر، وتم الاختيار على

تعيينه رئيسا لإدارة الشرق الأوسط وشمال افريقيا بدلا عن فاسيلس كولوتوشا. لذلك لم يبق امامنا غير وقت قصير.

وكانت في إحدى غرف مقر السفير دراجة ثابتة وكان فيكتور يجلس عليها بانتظام ويقوم بتدوير الدواسة حتى آخر نفس. وأثناء وقت الفراغ النادر كان يعزف على البيانو أو القيثارة ويكتب اغاني جديدة. واحيانا كان فيكتور يصطحبنا مع حفيدتنا بولينا للنزهة بالسيارة حيث شاهدت صور الزعيم العراقي في كل مكان، وعرفت الصغيرة ان اسمه صدام حسين. ولكن حينما رات تمثاله الضخم المنصوب في إحدى الساحات وقد مد يديه محييا، قالت بولينا: ((من هذا. شرطي؟)). واستمر نمط الحياة هذا حوالي شهر، ومن ثَمَّ تم استدعاء فيكتور للعمل في جهاز وزارة الخارجية. وفي آخر سفرة وصلنا موسكو عبر عَمان. وحينما شاهدت بولينا في الشوارع العاصمة صور الملك الاردني، اعلنت ان هذا صدام حسين!

بعد عاصفة الصحراء كانت الكثير من المباني المدمرة في بغداد، وتم تصفية كافة الجسور تقريبا. ولكن العراقيين الذين يمتلكون قدرات مالية كافية استطاعوا بسرعة اعادة بناء الكثير، الكل تقريبا. ويساورنا الألم على الشعب البريء الذي عانى الكثير والذي تحمل في 2003 حربا جديدة وتدميراً واسع النطاق، والمسالة الرئيسية الخسائر بالارواح البشرية التي لا حصر ولا عد لها.

التسعينيات. وزارة الخارجية

إن الأحداث المأساوية التي جرت في حياة فيكتور تزامنت مع انهيار الاتحاد السوفيتي، حين ساد الهياج والاضطراب العام. ولم يذهب في أحداث اغسطس 1991 إلى المتاريس التي نصبت عند: (البيت الابيض)، ولكنه ترك الحزب الشيوعي السوفيتي بعد اجتماع رؤساء روسيا وبيلاروسيا واوكرانيا (بيلافيجسكيا بوشا) وانهيار الاتحاد السوفيتي - الدولة التي خدمها بنزاهة. لقد كان في داخله يقف إلى جانب (الديمقراطيين)، ولكن لم تكن قريبة منه الأفكار الليبرالية/الديمقراطية باسرها، ولا سيِّما اساليبها. وبالطبع لم يكن فيكتور في يوم من الأيام، منشقا. وحبذ القول: (انا - رجل دولة). وكان بقدر الإمكان أرفع من اللعب السياسية و، على الاغلب انه كان (محافظا متنورا).

رجعنا في صيف 1992 إلى موسكو، وراح فيكتور من جديد يذهب للعمل في (ساحة سمولينسكي) حيث يقع مبنى وزارة الخارجية، وعند ذلك الوقت تم استبدال اللوحة عند مدخل المبنى الشاهق - وتحولت وزارة الاتحاد السوفيتي إلى وزارة خارجية روسيا الاتحادية.

لقد كانت التغيرات اعمق وأكثر مأساوية من تغير اللوحة على المبنى. وكما تحدث فيكتور فقد اندهش من انهيار المعنويات والعزيمة التي سادت وسط موظفي الوزارة. وفي ذلك الوقت استلم بوريس يلتسين السلطة، وهو ولسبب ما لم يحب وزارة الخارجية السوفيتية منذ الثمانينيات حينما جرى تكليفه بترؤس لجنة مدينة موسكو للحزب الشيوعي السوفيتي وطالب باجراء تقليصات جذرية بوظائفها وبعدد موظفيها. ان اندريه كوزيريف الذي جاء إلى سمولنيا (حيث مبنى الوزارة) وزيرا جديدا، غير بشكل حاد توجه سياسة روسيا الخارجية من دون تمعن لجعلها تسير بركب الولايات المتحدة، وكان الزعماء العرب بنظره (من دون وزن سياسي) وينبغي الابتعاد عنهم، واختارت اللجنة الخاصة، التي أرسلت للخارجية الأشخاص على اساس ولاء الموظفين للنظام الجديد في البلد. وتم عزل يولي كفينيتسكي الدبلوماسي اللامع في وزارة الخارجية السوفيتية (جرى عزله من منصب نائب وزير الخارجية). وتم تسريح عدد آخر من الدبلوماسيين العباقرة من اصحاب (الأسماء)... وكما اشتكى فيكتور ان الشباب الذين يتمتعون بحيوية تركوا وزارة الخارجية وراحوا يبحثون عن عمل في مؤسسات أخرى، لا سيِّما في الخاصة اما الدبلوماسيون الذين خدموا لسنوات طويلة فقد عملوا من دون حماس كما لو إن عملهم اداء فريضة.

على الرغم من ذلك ينبغي الاعتراف بان اندريه كوزيريف سعى قدر ما في وسعة تخفيف صرامة مرسوم يلتسين ودائرته المقربة بشان تطهير الكوادر القيادية لوزارة الخارجية السوفيتية. وكما اعلن كوزيريف نفسه بين جدران وزارة الخارجية بانه اخذ بالحسبان ضرورة الحفاظ في الوزارة ولما فيه مصلحة

روسيا نفسها، على المهنيين الذين تشكلوا خلال عشرات السنوات وانهم (جزء من رأسمالها البشري). واتصالا بذلك استلم المدراء في المناصب العليا والمتوسطة السابقون تعيينات في الخارج وحل مكانهم كادر (جديد) شكليا، بما في ذلك فيكتور.

اعيدت هيكلة الوزارة كما جرى تأسيس إدارات، وعُين فيكتور رئيسا لإحداها. واتفق له ان ينشغل بالعلاقات مع البلدان العربية وافريقيا، اي بالنسبة لرئاسة الوزارة الجديدة قطاعات غير مرغوبة. وكما قال فيكتور، تعين عليه الاشتباك في نزاعات كثيرة مع رؤسائه مبرهنا لهم على أن لا تخرج روسيا من منطقة الشرق الأوسط، وان العرب بحاجة لها، وهي بحاجة لهم. وقد أوضح فيكتور أفكاره بهذا الشأن ليس فقط في التقارير الرسمية التي رفعها لرؤسائه وانما في المقالات التي نشرها في 1993 - 98 في صحيفة (الحياة) التي تصدر بلندن، من خلال صديقه الصحفي العراقي جلال الماشطة الذي تعرف عليه منذ الستينيات.

وكان ينبغي حينها التفكير بأمور كثيرة. فلم يعد وجود للاتحاد السوفيتي. وذهبت معه الاوهام التبشيرية، وسياسته الخارجية المتغطرسة. وهنا نهض سؤال بشان اية سياسة خارجية جديدة ينبغي ان تكون لروسيا بعد الاتحاد السوفيتي؟ ليس بالشعارات وليس في البيانات العامة ولكن في التطبيقات العملية. ولكن مع الأخذ بالاعتبار ذلك الوضع الذي كانت فيه البلاد، وقدراتها الاقتصادية الضئيلة. ومن جهة أخرى كان واضحا ان على سياسة روسيا الخارجية ان لا تعيش لليوم الحالي فقط، بل ينبغي ان تكون واعية، ولها آفاق موزونة.

وشاطر فيكتور ثقل ذلك الزمن الصعب اصدقاؤه، الذين عملوا معه في فريق واحد، أو إذا اردتم (بطاقم واحد) - فلاديمير فيكتورفيتش جوريف واندريه فالنتينوفيتش فدوفين، الذين انشغلوا بقضايا الشرق الأوسط وغريجوري بوريسفيتش كاراسين وليونيد الكسيفيتش سافونوف الذين اشرفوا على العلاقات بالدول الافريقية.

وعُين مدير إدارة الشرق الأوسط وشمال افريقيا فيكتور بوسافلوك في 1994/3/12 ممثلا خاصا لرئيس روسيا الاتحادية لشؤون الشرق الأوسط، وفي 1994/7/7 نائبا لوزير خارجية روسيا الاتحادية، وعمل في سكرتاريته في هذه السنوات مجموعة من المستعربين الشباب. وقام فيكتور بجولات كثيرة في الدول التي يشرف الجهاز الذي تراسه على العلاقات معها فمرة يشتغل على معالجة التسوية الشرق أوسطية وأخرى على الوضع في السودان أو النزاع في العراق عام 1998. وإلى جانب الشرق الأوسط وافريقيا اتفّق له ان يطوف العالم باسره تقريبا: واشنطن امستردام لشبونه باريس، بروكسل، براغ، وستراسبورغ، روما، وحتى بكين.

في المرحلة الأولى كان راتبه مضحكا، إذا تحول إلى العملة الصعبة فسيكون 100 دولار! فانا لم التحق بالعمل بعد ذلك، وواصلنا العيش في شيريكوفكا، وتعين على إدارة الشؤون المنزلية. لذلك فان تلك النقود (10 دولارات لقاء تدريس لمدة ساعة) التي استلمتها لينتشكا (نجلة فيكتور باسوفاليوك) على تدريسها اللغة الانجليزية للأطفال، كانت مساهمة جوهرية في ميزانية العائلة.

ومع تعيين يفجيني بريماكوف وزيرا للخارجية في 1996 اصبح العمل اسهل. وعلى الرغم من أن فيكتور كان نائبا للوزير خلال اندريه كوزيرف وتمكن من الدفاع عن موقفه ازاء مشاكل الشرق الأوسط، ولكن مع وصول بريماكوف للخارجية اصبحت العلاقات مع العرب تتغير بسرعة. وانتعشت الاتصالات السياسية، كما استؤنفت إلى حد كبير العلاقات الاقتصادية - ويمكن بثقة الحكم على ذلك بالزيارات التي قام بها بوسافاليوك.

وفي الوقت نفسه جرى بمشاركة فيكتور المباشرة بإقامة علاقات سياسية تامة مع إسرائيل، حيث تم التعرف عليه وتقديره. وبالمحصلة - تنامى دوره في الجهود الدولية المبذولة لتسوية النزاع العربي - الإسرائيلي.

الازمة العراقية ١٩٩٨

توجه فيكتور في 1998 إلى بغداد بصفة ممثل الرئيس الروسي بمهمة صعبة - اقناع دكتاتور العراق على الموافقة للتعاون مع اللجنة الدولية التي تشكلت لتفتيش المنشات الرئاسية لتجنب الخيار العسكري لتسوية الازمة الجديدة. والتقى يوميا وغالبا لعدة مرات في اليوم مع نائب رئيس الوزراء طارق عزيز ووزير الخارجية محمد الصحاف ليقنع من خلالهم الرئيس صدام حسين بالإصغاء لرأي المجتمع الدولي. وفيما بعد يجري عمل دبلوماسي دؤوب ودقيق بكل معنى الكلمة. والتقى فيكتور عدة مرات مع صدام حسين لكي ينقل له رسائل بوريس يلتسين.

وتمخض الجدل اليومي مع العراقيين وجهود ممثلي روسيا وفرنسا وتركيا والبلدان العربية عن تحضير مشروع قرار لمجلس الامن الدولي بصدد تشكيل (فريق خاص) لتفتيش المنشآت الرئاسية الثمان. والتقى فيكتور مع امين عام منظمة الامم المتحدة كوفي عنان الذي وصل حينها إلى بغداد، واقترح عليه عدداً من البراهين المقنعة والفعالة لاستعمالها في المباحثات التي كانت مرتقبة مع الجانب العراقي. وبالنتيجة تم التوصل إلى اتفاقية بين كوفي عنان والقيادة

العراقية، مما اتاح في تلك المرحلة تجنب السيناريو العسكري لتطور الوضع. لقد كان ذلك انتصارا دبلوماسيا كبيرا.

وعند عودة فيكتور إلى موسكو دُعي فيكتور للمشاركة في برنامج التلفزيونية سفتلانا سوروكنا الشهير (بطل اليوم) في قناة التلفزيونية (الأولى). وكانت برقيات تهنئة من الشخصيات الرسمية، والمؤثرة أكثر بينها كانت برقية زملائه - المستعربين، اي الأشخاص الذين يعرفون القضية فعلا، باي جهد وعرق يتحقق كل كليو غرام من (الفحم) الدبلوماسي.

السيد بوسافاليوك المحترم،

اسمحوا لي ان اعبر لكم عن افتخاري الصادق بهذا الجهد الكبير الذي بذلتموه في تحقيق التسوية السياسية للازمة التي نشبت مؤخرا بشان العراق. وفي هذا السياق ان حضوركم في بغداد كان مفيدا جدا، واصبح انعكاسا لدور روسيا الرفيع والقيم في الازمة.

د. أحمد عصمت عبد المجيد

امين عام جامعة الدول العربية

وجرى وفي 12 مايو 1998 بمرسوم من الرئيس بوريس يلتسين تقليد فيكتور باسوفاليوك وسام (من الخدمات للوطن) من الدورجة الرابعة - على نجاح العمل، الذي ساعد على تسوية الازمة المتعلقة بالعراق.

هجوم فيكتور باسوفاليوك

المحرر السياسي لصحيفة

(ازفيستيا) جيورجي بوفت

أوردت وكالة انباء تاس امس نبأً عاجلاً: اشار إلى ان العراق وافق مبدئيا على تفتيش كافة المنشآت المشتبه بها، بما في ذلك قصور الرئيس. ونسبت وكالة تاس إلى مصادر دبلوماسية خليجية اشارتها إلى ان العراق في الوقت نفسه طالب. الأمم المتحدة بان يتم رفع الحصار خلال شهر بعد التفتيش.

بيد أن احدا لم يؤكد اي طرف آخر اما وزارة الخارجية الروسية فقد امتنعت عن التحضير. واكتفت بالاشارة إلى دقة وحساسية المباحثات التي لم يواصلها امس ممثل رئيس روسيا الاتحادية فيكتور باسوفاليوك. اما ما يتعلق باحتمال تنازلات صدام حسين الجديدة (قبل يوم من هذا وافق على السماح للمفتشين الدخول في 8 منشأة من بين 70)، فان واشنطن وكالسابق تصرعلى السماح للجنة الخاصة من دون قيد أو شرط ولا تربط ذلك بصورة مباشرة بالغاء العقوبات. لكن الامم المتحدة اعطت امس اشارة لصدام. واعدت بريطانيا وسويسرا والبرتغال مشروع قرار يسمح للعراق بمبوجبه زيادة صإدارات النفط لتمويل مشتريات

هجوم فيكتور باسوفاليوك

المحرر السياسي لصحيفة
(ازفيستيا) جيورجي بوفت

أوردت وكالة انباء تاس امس نبأً عاجلاً: اشار إلى ان العراق وافق مبدئيا على تفتيش كافة المنشآت المشتبه بها، بما في ذلك قصور الرئيس. ونسبت وكالة تاس إلى مصادر دبلوماسية خليجية اشارتها إلى ان العراق في الوقت نفسه طالب. الأمم المتحدة بان يتم رفع الحصار خلال شهر بعد التفتيش.

بيد أن احدا لم يؤكد اي طرف آخر اما وزارة الخارجية الروسية فقد امتنعت عن التحضير، واكتفت بالاشارة إلى دقة وحساسية المباحثات التي لم يواصلها امس ممثل رئيس روسيا الاتحادية فيكتور باسوفاليوك. اما ما يتعلق باحتمال تنازلات صدام حسين الجديدة (قبل يوم من هذا وافق على السماح للمفتشين الدخول في 8 منشأة من بين 70)، فان واشنطن وكالسابق تصرعلى السماح للجنة الخاصة من دون قيد أو شرط ولا تربط ذلك بصورة مباشرة بالغاء العقوبات. لكن الامم المتحدة اعطت امس اشارة لصدام. واعدت بريطانيا وسويسرا والبرتغال مشروع قرار يسمح للعراق بمبوجبه زيادة صإدارات النفط لتمويل مشتريات

المواد الغذائية. وسيسلم الاثنين لسكرتير عام الامم المتحدة كوفي عنان: ويقضي المشروع للسماح للعراق تصدير النفط بـ 5,3 مليار دولار خلال نصف سنة (والان بـ 2,14 مليار). وان هذه المبادرة بالذات يمكن ان تخفف معاناة الشعب العراقي.

وهل ينحصر القلق فقط على مصير الشعب العراقي البسيط في المواجهة الدبلوماسية الحالية حول النزاع الأمريكي - العراقي؟ وما حجم غنائم روسيا في حال نجاح هجوم فيكتور بوسافاليوك في العراق؟

يُخيل ان منطق وزارة الخارجية بالفعل الوحيد الذي يمكن تبريره. فالعراق اليوم مطلوب لروسيا حوالي 7 مليارات دولار، وعلى وفق المنطق الكلاسيكي، سيكون بوسعه اعادة الدين فقط بعد رفع العقوبات عنه، واتفقت شركات النفط الروسية مع بغداد على عقود بأكثر من 10 مليارات دولار لمرحلة ما بعد العقوبات. وتعقد الشركات الأخرى الآمال بالحصول على عوائد من اعادة بيع نفط العراق. ان روسيا لا تريد ان تتأخر، لا سيِّما تدوس على اطراف اقدامها فرنسا التي يعمل موفودوها في بغداد في نفس الوقت وسوية مع باسافاليوك ويتنافسون معه.

ينبغي فهم المناورات العسكرية - الدبلوماسية الحالية المتعلقة بصدام حسين، في اطار الصراع الجيوسياسي على منطقة قزوين - اسيا الوسطى. التي من الجلي انها فقدت التوازن بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. ولكن ليس هناك جدل بصدد اهميتها الاستراتيجية. وعلاوة على ذلك فان الصراع المحتدم في ضوء تطوير ثروات النفط في قزوين، حول توجهات طرق نقل مصادر الوقود (سابقا

توجهت على الاغلب نحو الاتحاد السوفيتي) فان هذه المنطقة تكاد تصبح المنطقة الرئيسية في سياسات القرن الواحد والعشرين.

وفي الوقت نفسه فان موسكو (وبخلاف الولايات المتحدة التي تِلوحَ بعضلاتها) لا تمتلك اليوم أية وسائل للتاثيرعلى الوضع، غير فن الدبلوماسية. وبهذا المعنى فان الدبلوماسي اللامع فيكتور بوسافاليوك مثل جندي انزال أُرسل للسيطرة على جسر استراتيجي، ولا ينتظر اية تعزيزات. ان هذا يطرح سؤلا فلسفيا عميقا، حول التناسب بين الاهداف الدبلوماسية الرفيعة (أو المغالاة) والموارد المادية الفعلية، من اجل تعزيز النتائج.

أولاً: ان آفاق استلام العوائد الاقتصادية من الغاء العقوبات على العراق ليست واضحة تماما. وبقدر ما أوضحت مصادر روسية مطلعة، فان موسكو لم تحسب بجدعلاقات الخسارة والربح في هذه الحالة. مثلا ما مقدار خسارة روسيا من هبوط اسعار النفط الحتمية بعد دخول العراق للسوق.

ثانياً: ان كل حسابات موسكو تقوم اليوم على أن صدام سيكون ممتنا لنا حتى نهاية حياته. فمن أين جاءت هذا الثقة بنبل وإصالة الدكتاتور. لماذا مثلا لا نتذكر انه ما ان سمحوا لبغداد بتصدير كمية قليلة من النفط، حتى كانت أول شركة تنقله بحرا هي أمريكية. وقامت الشركة الروسية بذلك ولو بعد يوم، لكنه جاء أكثر تأخرا. فضلا عن ان رفع العقوبات عن العراق خلافا لإرادة أمريكا سيكون غير ممكن. لا سيِّما وانها لم تعتد على محبة الآخر في السياسة، وبكل تأكيد ستحاول كسب شيئا ما. ولماذا لا نتذكر الصرب اليوغسلافيين، الذين دافعت عنهم بحماس وغيرة أيضاً وزارة خارجية روسيا الاتحادية؟ فأين هو الان تضامنهم السلافي؟

ثالثاً: ان هجوم بوسافاليوك في بغداد - وليس هناك اساس للشك في ان مهمته ستعود بهذا الشكل أوذاك بنجاح ما - فقط يضلل ذلك الوضع الكدر الذي يكمن في ان موسكو في حالة دفاع سلبي في قطاعات أخرى لجبهاتها الجيو/ سياسية الجنوبية. لذلك يستحيل وضع الحساب على تعزيز نجاحات جدية على المسار العراقي، ولديها بالقرب الشيشان، وتنامي الاستياء في جمهوريات شمال القفقاز الروسية، وتنامي نزعة نابذة في جبهات رابطة الدول المستقلة الجنوبية، حيث تجري بنشاط تشكيل تحالفات سياسية - اقتصادية ليس مع روسيا بل على الأرجح ضدها.

رابعاً: ان تكثيف نشاط موسكو على المسار العراقي يخلق الان لدى الشركاء الغربيين انطباعا عن تنامي العداء لأمريكا في روسيا. وإذا ما كانت وزارة الخارجية تتصرف في هذا المجال من دون عيب فان الدوما لا تخفي انفعالاتها. وهناك ما يشير إلى ان الكثير من الشخصيات الروسية رفيعة المستوى تضع في المقدمة عدم السماح للقصف الأمريكي وتتجاهل عدم تنفيذ العراق قرارات الامم المتحدة.

هناك جوانب ضعيفة كثيرة في الموقف الأمريكي. ولا يجوز استبعادها لدى موسكو، وربما ينشأ اغراء لاستعمالها. بيد ان النجاح اللاحق للدبلوماسية الروسية على المسار العراقي ينطوي على مغبة هبوب مد عاصف من الغيرة من هذا النجاح في الغرب. وعلى خلفية نقص الموارد المالية في روسيا المشار لها اعلاه لتعزيز النجاح في العراق، ومن المحتمل تعقيد العلاقات السياسية مع الغرب الذي يمكن ان يكون ملموساً اقتصاديا.

محطات باسافاليوك في الشرق الأوسط

الحديدة/اليمن

في 1961 بعد الفصل الرابع، ارسلوا فيكتور عن طريق اللجنة الحكومية للتعاون الاقتصادي مع الدول الأجنبية في عصر الاتحاد السوفيتي مترجما إلى اليمن لبناء ميناء الحُدَيدَة على ساحل البحر الاحمر. واعتبر هذا شكليا فترة تطبيق لما قبل كتابة الدبلوم. عاش هناك خبراؤنا وقاموا باعمال البناء في ظروف حر مستديم مضني إلى جانب رطوبة عالية. ولم تكن في ذلك الوقت مكيفات هواء (كونديشين) - هناك فقط مروحيات سقفية لذلك هم تخلصوا من الحر بالوسائل المتاحة: ناموا ليلا على سطوح المنازل المستوية، وتغطوا بالشراشف المبتلة. وبالرغم من صعوبات الظروف المعاشية كانت الحياة ممتعة، إذا ما حكمنا بالصور الفوتوغرافية، ولم تكن معدومة من اللهو. وهذب فيكتور تمكنه من اللغة العربية وحسنها، بما في ذلك اللهجة المحلية.

اكتشف فيكتور في أول تواجد له ببلد عربي، وهو يحاول التخاطب مع من ينطقون العربية كلغة أُم بانهم لا يفهموه تماما، لأنه تكلم باللغة الفصحى التي تختلف كثير عن اللهجة المحلية. وبفضل تمتعه بإذن موسيقية مطلقة تمكن

فيكتور خلال عام واحد من الدراسة والتطبيق في الحُدَيدة من دقة النطق وتفاصيل المفردات. وكان لديه جهاز راديو ترانزستور صغير فراح طيلة فترة الغداء يستمع الراديو باللغة العربية. وبالتدريج تمكن ليس فقط من اللهجة اليمنية وانما المصرية والسورية، ولذلك بالتالي تعاملوا معه في جميع الدول العربية كواحد منهم. وحينها طفق يجمع الامثال العربية والنكات ومعرفة الفلكلور التي غالبا ما ساعدته علي النجاح في الاتصالات والمحادثات. وظهرت في الحُدَيدة بشكل واضح موهبة فيكتور بالاختلاط والتخاطب مع الناس، والقدرة على كسب الآخرين ونال ود المتحدثين العرب وتعاطفهم، سواء كانوا من عمال الميناء البسطاء أو الباعة في الحوانيت أو المحافظ، ومن ثَمَّ رئيس البلد.

والجانب الايجابي الآخر لإقامة فيكتور في الحُدَيدُ كان تعلم سياقة السيارة. فبصفته مترجما كان عليه التنقل بين مسافات بعيدة، ووفروا له لذلك سيارة ركاب. وطيلة حياته اللاحقة كان دائما يسوق بمتعة سيارة. وكان سائقا ماهرا ونابها وحذرا. وحتى حينما كان بمنصب سفير كان يلجأ إلى خدمات سائق السفارة فقط في تنقلاته بالمهام الرسمية.

بعد ان عاد إلى موسكو اكمل فيكتور دراسته وكتب دبلوما ودافع عنه وقدم الامتحانات (حصل على درجة امتياز بكافة المواد). وبعد ان حصل على الدبلوم عمل عدة اشهر مترجما في سفارة اليمن في موسكو. ومن الواضح ان علاقته التي اقامها في الحديدة، ساعدته بالحصول على عمل. ولكن في هذا الوقت لفت انتباه الرفاق من وزارة الدفاع، وراحوا يرسلون دعوات تطالبه بالحضور في اللجنة

العسكرية للتجنيد، مما لم يعجب فيكتور نهائيا. وذات مرة في خريف 1963 كنا في (المسرح الكبير)، والتقينا هناك بنكولاي بانتيلييفتش سوليتسكي، سفير الاتحاد السوفيتي حينها في اليمن وتواجد بإجازة في موسكو. وغدا هذا اللقاء مصيريا لأن سلوتسكي الذي كان يعرف فيكتور من خلال العمل في الحديدة، دعاه ببالغ الارتياح للعمل معه في السفارة بصفة مترجم مع الافق بالترقي لاحقا بالوظيفة.

هكذا بدأت سيرة فيكتور فيكتوروفيتش الدبلوماسية - وبرأي الكثير انه كان أحد المستعربين المتضلعين في وزارة الخارجية السوفيتية ومن ثَمَّ الروسية.

اليمن

باشر فيكتور في شباط/فبراير العمل بصفة مترجم في سفارة الاتحاد السوفيتي في جمهورية اليمن العربية في مدينة تعز. ولم تكن في ذلك الوقت رحلة مباشرة من موسكو إلى اليمن، وقلعت بنا الطائرة مع توقف لمدة يوم - يومين في القاهرة واسمرا (اثيوبيا).

حينما عمل فيكتور في الحديدة 1961 - 62 كان نظام الحكم هناك ملكيا، وحدثت الثورة بعد عام من ذلك. وحينما وصلنا إلى هناك في بداية 1964 كانت اليمن في حالة حرب اهلية بين الموالين للسلطة الجديدة المدعومة من القوات المصرية والقبائل التي التزمت ولائها للملك. ولم تمسها العمليات العسكرية بأي شكل من الأشكال، حيث إنها دارت بعيدا في الشمال بالقرب من المملكة العربية السعودية، التي قدمت المساعدات لانصار النظام الملكي.

دخل فيكتور في اذار/مارس 1964 في مدار مترجمي الكرملين خلال زيارة رئيس اليمن عبد الله السلال للاتحاد السوفيتي. وترجم لرئيس دولتنا نيكتا خروشوف فضلا عن ليونيد بريجنيف. ولم يكن بالمقدور تميز فيكتور الاسمر بطبيعته، إضافة إلى ان شمس اليمن لوحت بشرته، عن اليمنيين القصار ذوي

العيون السود، وضلل هذا اعضاء الوفد السوفيتي المشاركين في المباحثات. وكما قال فيكتور ان ليونيد بريجينيف الذي (صعد توا إلى الذروة) بعد ترؤسه عملية استثمار الاراضي البكر في كازاخستان وسيبريا، تمعن طويلا في المترجم الذي ظنه يمنيا، ومن ثَمَّ اثنى عليه لإجادته اللغة الروسية. وتعين على فيكتور الاعتراف وهو مرتبك: «ليونيد ايلتيش، انا منكم وفيكم، سوفيتي!».

على مدى عشرات السنوات تمت مشاركة فيكتور على اساس ثابت في جميع الاتصالات والمباحثات العربية أو بذات الأهمية. وليس فقط حينما عمل في موسكو. وغالبا ما استدعوه حينما كان في بغداد في سنوات 1969 - 76. ربما كانت هذه المرحلة أكثر المراحل كثافة في التخاطب في العلاقات السوفيتية - العربية، ولم يتمكن فيكتور من الشكوى للنقص في الطلب عليه بصفته مترجما. وعرف شخصيا كافة القيادات العربية من الصف الأول والثاني، وقدم هذا التعارف فائدة جيدة، عندما اصبح فيكتور مديرا لإدارة الشرق الأوسط وشمال افريقيا، ومن ثَمَّ نائبا لوزير الخارجية. لقد كان فيكتور شاهدا ولمستوى ما مشاركا، في المباحثات التي شكلت مضمون العلاقات السوفيتية - العربية بصورة عامة أو العلاقات الثنائية بين الاتحاد السوفيتي وبلد عربي محدد.

من رسالتي من اليمن إلى البيت، إلى والدي: شباط 1964... جرت هنا عملية اصلاح نقدية - تم اصدار أوراق نقدية. وحتى الان جرى التعامل بالريال الفضي، لهذا فان فيكتور جاء بعد استلامه مرتبه بكيس يزن حوالي 5 كغم من الفضة. فهو يستلم 496 ريالا، ويمكن شراء بالريال دجاجة أو 33 بيضة، أو 12

برتقالة، أو 12 كغم سكر أو 20 كغم بطاطة. فعلا ان أسعار بعض الأشياء غالية مثلا الأدوية وكافة المعدات الخشبية أو الاواني من الالمنيوم - قصعة أوطاس، انها تباع بالوزن. ويمكن شراء وبسعر مضحك ورخيص قرد أو غزالة صغيرة، التي يمكن تدجينها بسهولة. ويتحدث كافة الباعة تقريبا هنا باللغة الروسية. وهناك بعض الضليعين الذين يمكن التحدث معهم بهدوء. انه شعب هادئ جدا! ولكنه فقير وحسب. ومن اجل تجنب العدوى يتعين غسل كل ما يُشترى في السوق بمسحوق الصابون - الخضروات والفاكهه. ويستعمل فقط الماء المغلي والمرشح.

في نهاية مارس انا مع فيكتور توجهنا إلى موسكو - هو في مأمورية وانا للولادة. حينما نصحني اطباؤنا في تعز باصرار على أن لا اغامر وعلي الذهاب للوطن، وتم حل قضية السفر بنجاح وبسرعة. ففي هذا الوقت بالذات اقلعت من اليمن طائرة خاصة اقلت وفدا حكوميا. حينها جرت زيارة الرئيس اليمني عبد الله السلال التاريخية إلى موسكو. طار فيكتور مع الوفد للقيام بواجبه بصفته مترجما، ووافقوا على اخذي معهم. اقام في موسكو ثلاثة أيام، واقلع مرة أخرى إلى اليمن وعاش بمفرده حوالي سبعة شهور.

من رسالتي: 65/7/1... واخيرا استلم فيكتور درجة دبلوماسي التي انتظرناها طويلا، والان نمتلك الحق الكامل بالسفر في اجازة مشروعة. واعتبارا من 15 يوليوم التحق بوظيفة ملحق، لهذا فان فيكتوركم منذ الان - دبلوماسي بكافة القواعد. وهذا ليس كل شيء. خلال زيارة جيورجادزه في 10 - 17 حزيران /

يونيو، جرى تقليد فيكتورنا وسام الجمهورية العربية اليمنية (مأرب من الدرجة 4) - على العمل الطويل والمثمر في اليمن منذ 1961، انه بالطبع وسام سار بصورة غير عادية وقيم.

في 1965 انتقلت سفارتنا إلى عاصمة البلاد صنعاء - وكنا من بين الأوائل الذين نزلنا في مبنى (بيت قاسم) الذي حوله اليمنيون إلى السفارة السوفيتية، وهو مبنى حجري رصين يتألف من ثلاثة طوابق وحديقة كبيرة متروكة ومسبح صغير. بعد فترة قليلة وصل السفير السوفيتي الجديد ميرزا روحماتوفيتش رحماتوف. وجرى التخطيط لبناء سفارة سوفيتية جديدة.

وفي 66/5/26 عاد فيكتور من مهمة في القاهرة، وكان مرتاحاً جدا للسفرة - (انطباعات كثيرة وتطبيق رائع).

حينها كان فيكتور في فريق المترجمين في مباحثات جمال عبد الناصر والكسندر كوسيجين خلال زيارة رئيس الوزراء السوفيتي لمصر بمناسبة بداية بناء سد اسوان.

في خريف 1966 وصل إلى صنعاء ثلاثة صحفيين روس معتمدين: من صحيفة (برافدا) يفجيني بريماكوف، ومن (الازفيستيا) ايجور بيلاييف ومراسل الراديو الحكومي الكسندر تيموشكين. ووكان فيكتور على معرفة بهم، ومن ثَمَّ دعوناهم لمأدبة غداء منزلية. ومنذ ذلك الزمن البعيد قامت صداقة فيكتور مع يفجيني بريماكوف، الذي اكد بعد ذلك غير مرة وبالاعمال الطيبة قيمة هذه

الصداقة والاخلاص لها. واصبح يفجيني بريماكوف في السبعينيات أستاذا مشرفا على اطروحة فيكتور، ودعاه للعمل في معهد الاستشراق الذي ترأسه حينذاك. وتعاونا في 1990 - 91 بشكل وثيق في ضوء الازمة الكويتية، وبعد ان تم تعيين بريماكوف بمنصب وزير خارجية روسيا الاتحادية اصبح رئيسا مباشرا لفيكتور. في 1998 تابع باهتمام معالجة فيكتور وساعده بكل ما في وسعه، ولكن للاسف، ظهر ان المرض اقوى...

في 1966 رجعنا إلى صنعاء من الاجازة لمدة 6 أيام! وصلنا برحلة مباشرة للقاهرة، وهناك توقفنا ليومين بانتظار رحلة إلى الخرطوم. لم يتفق لنا الشعور بالسأم، فهناك التقينا باصدقائنا بل اقاربنا (جالا وميشا كوفاليوف). إلى جانب الرحلة الالزامية إلى الاهرامات في الجيزة، اخذونا إلى عرض فني بمشاركة الراقصة الشهيرة في كافة انحاء العالم العربي سهير زكي - وغنت أم كلثوم الاسطورية. وانتظرنا في الخرطوم الطائرة، ومن هناك اقلعنا إلى تعز، ومنها بالسيارة إلى صنعاء.

لقد أُعجبنا حتى الانبهار بالهندسة المعمارية لصنعاء القديمة البديعة. مباني متعددة الطوابق بنيت طوابقها السفلى من حجر الجرانيت أو التوفة، وبعض الطوابق العليا من الطوب الاخضر، وهي لحد ما بسيطة بالشكل وذات زخارف فريدة من نوعها على هيئة نوافذ مختلفة بالحجم والشكل غالبا على شكل قوس، وذات زجاج معشق ملون. وحول كافة النوافذ رُسمت، بطلاء ابيض على حجر اشهب، صورة دانتيلا مخرمة، ولهذا لاحت المباني انيقة بصورة غير عادية. لم ار شيئا مماثلا في البلدان الأخرى. الجدران والنوافذ وافريزات منارات

المساجد كثيرة العدد، الغنية بالزخارف والنقوش على الحجر والنقش - انها زخارف حقيقية.

والظاهرة اليمينية الممتازة التي اعجبتنا ولم نرها في مكان آخر بعد ذلك، كانت زي اليمنيين الانيق والجميل. ان الزي الرجالي التقليدي الذي تشكل على مدى قرون مدهش بالوانه المتعددة والزاهية، وتعقد التصميم، ومهارة الخياطة. والعنصر الالزامي للبدلة الرجالية هو الخنجر الفضي المدسوس في الغِمْدِ الفضي المشدود على حزام عريض من الجلد والمخاط بخيوط فضية وذهبية على ارضية مخملية مختلطة النقوش. بالطبع هذه ليست ببدلة يومية وليس بمقدور كل يمني حيازتها. وتفرجنا في أيام العيد وقمنا بتصوير الكثير من مثل هؤلاء الرجال الذين ارتدوا ملابس انيقة واتخذوا برغبة أوضاعا لائقة. وظهر بعض اليمنيين راكبين الجياد العربية الرائعة! وكان العسكر شريحة اجتماعية خاصة. انهم شباب من العسكر كانوا بزي بسيط ولكن زاهي، ومسلحين بالبنادق والبنادق القصيرة (قربينة) وعلقوا على اكتافهم جراب الطلقات. وتنقلت مفارز العسكر في المدينة في سيارات مدرعة ومكشوفة، وكان هذا مشهدا زاهيا وبهيجا.

انتهت المَهَمة في اليمن وفي 1 ايار مايو، وسافرت انا وفيكتور ولينتشكا على متن طائرة خاصة إلى القاهرة. كانت تلك طائرة سوفيتية يقودها طاقم سوفيتي، يخدم الرئيس اليمني. ونقلونا من القاهرة إلى الاسكندرية. كانت حينها مدينة بالغة الجمال، تمتد على ساحل البحر، ذات بيوت رائعة بيضاء كالجليد. ولاحقا كان علينا ان نواصل الطريق بالسفينة بطريق الاكسندرية - بريه - اسطنبول،

فارنا - أوديسه. وقد ساعدنا في تنظيم وثائق الركوب في تلك الرحلة القنصل العام للاتحاد السوفيتي في الاسكندرية فاسيلي كولوتوشا الذي ما زال حينها (اخضرا) مقارنة مع (الماهر) فيكتور المترجم.

وبالعودة إلى موسكو في 1967 تم قبول فيكتور للعمل بمنصب سكرتير ثالث في قسم الشرق الأوسط بوزارة خارجية الاتحاد السوفيتي التي تراسها حينذاك الكسندر دميتريفتش شيبورين، واستوعب حكمة العمل في الجهاز المركزي، نظرا لأنه يختلف جوهريا شكلا ومضمونا عن ذلك الذي يمارس في السفارات، والمسألة المهمة ان فكتور اكد نفسه كمترجم رئيسي ومستعرب على مستوى رفيع.

بغداد - العراق

وفي اغسطس 1969 صدر تعيينه فيكتور في بغداد بصفة سكرتير ثاني ومن ثَمَّ أول، ومنذ 1974 كان مستشارا لسفير الاتحاد السوفيتي في العراق وعمل هناك حتى فبراير 1976.

من رسالتي 69/10/27: أيامنا مملوءة بالاعمال حتى آخر الحدود. فيكتور غالبا ما يعمل بالامسيات في السفارة أو يذهب إلى حفلات الاستقبال. تقع منطقة كرادة مريم حيث تقع السفارة ومنزلنا في الاطراف. ويعيش هنا كافة الروس تقريبا المتواجدين في بغداد، لذلك تصادفك وجوه من ابناء بلدنا في كل مكان. وهنا يقع نادينا حيث يتم عرض الافلام السينمائية ثلاث مرات في الاسبوع، ويعزف الموسيقيون من ابناء بلدنا، ويتمرن الفنانون في فرقة الهواة. تقع السينما تحت السماء المكشوفة وفي المبنى ثمة مكتبة وبليارد وجهازي بيانو جيدة وجملية وذات صوت صادح وحينما نشاهد انا ولينا العرض السينمائي عادة ما يبقى يعزف فيكتور على البيانو. ويمضي الوقت في البيت بالعزف على القيثارة، ويقوم بذلك بمهارة.

يقع مركز المدينة بعيدا جداً عنا، لذلك فاننا ننتظر متى تتوفر فرصة لشراء سيارة. وهذه ستكون من نوع (فولغا) سوداء التي ستشطب عليها إحدى المؤسسات وتبيعها لنا بسعر منخفض 60 دينار (راتبي 49 دينار، وفيكتور 160). في الحقيقة سنتقاسم بشراء السيارة مع فاليري ميخالين، لذا سنستعملها بالتناوب بعد يوم.

من رسالة فيكتور 1969/2/12: ها قد مر شهران وانا في مكاني، وقبل ذلك اتفق ان سافرت مرتين بمهام. ان طبيعة العمل هنا مكتبي، اخشخش بالاوراق مثل موظف اصيل. وبالحقيقة هذا هو الواقع، موظف ولكن دبلوماسي. ان وضع السكرتير الثاني متعب للغاية بمعنى ان مستوى موظف سفارة متوسط ويقع عليه عمل معلوماتي وغيره غير قليل. وكان سيكون كل شيء حسناً لو كان التعامل مع الناس والسفر في انحاء البلاد،... إلخ أكثر بقليل. ان هذا العمل ضروري، وهذا يكفي لمزاولته. كل شي يسير على ما يرام. ازاول عملا اجتماعيا كثيرا. حيث انتخبوني سكرتيرا لمكتب نقابة السفارة (انت تعرفين ما هذا على وفق المفاهيم في الخارج). لا وقت للشعور بالملل. اشعر بحسي الوظيفي، ان علي بعد عدة دقائق ان (ازحف على السجادة) إلى رئاسة السفارة...

71/4/22: العمل كثير، اترأس في السفارة وكالسابق فريق السياسة الخارجية، القضايا تنهال، كما لو مياه المطر من المزاريب. ان غزارة العمل ناجمة عن كثرة المشاكل في البلد. ان ترقيتي وكما كان متوقعا، عادت علي ليس فقط بزيادة الراتب – فالسفير يريد ان ينظر لي بصورة أخرى وبمهام أخرى، وهذا

صحيح. وبكلمة واحدة يتعين العمل في النهار والمساء. وحينما كان الوفد التجاري (ارخيبوف)، اشتغلت في اليوم الاخير حتى السادسة صباحا - اكملت الاتفاقية، فهي ليست مزحة، الكلام يدور عن حوالي 200 مليون تيخ وهي روبلات. قمنا مؤخرا برحلة سياحية ممتعة في السيارة إلى الكويت. وكانت مفيدة - أجريت سلسلة من المحاضرات والمحادثات مع بعثتنا الدبلوماسية هناك.

من رسائلي. 70/2/23. مساءً كان لدينا احتفال وعرض فني للهواة في قاعة الخلد التي قمنا بتأجيرها. كان العرض رائعاً وكبيراً وبحضور غفير، معد جيدا. وكان ممتعا - ففي القاعة الضخمة وعلى خشبة المسرح كان عدة مئات من السوفيت! وترك هذا تاثيرا شديدا على الجميع. وحينما قدمت فرقة الأطفال للانشاد عرضها كان من المستحيل حبس الدموع لشدة الانفعالات. ان الناس هنا بالاساس ممتازين، وليس ثمة وقت للملل - فطيلة الوقت يجري محفل ما.

كانون ثاني/يناير 1972. واخيرا استقبلنا العام الجديد. لا نشعر باجواء العام الجديد، ولم تكن حتى شجرة عيد الميلاد - تأخرنا بجلبها من موسكو. وبالمقابل كان عرض فني حسن جدا، وقدم فيكتور عدة انواع فنية: شارك باعزف مع الفرقة الموسيقية، وغنى (صول)، وقدم ومثل مقطعين كوميديين لذلك، كان اغلب التصفيق له.

شباط/فبراير 1972: الان ليس ثمة ما يؤكل: ظهر ان دفعة كبيرة من اللحم والخبز والحليب مسمومة بالزئبق من خلال الحنطة التي خصصت للسماد وكانت مسمومة. والان لا يمكن شراء شيء من اللحوم لأنه لم يتم الكشف عن

المسمومة. واختفى الزيت منذ عام، ونادرا ما يباع البيض، واختفى الدجاج أيضاً. وترتفع من يوم إلى آخر اسعار المواد الغذائية الموجودة. وسيختفي السكر قريبا، واختفى الكيروسين ايضاً، لأن الشتاء القارس يزيد من استهلاكه. وهذه ليست شائعات، وانما معطيات رسمية، تكتب عنها وسائل الاعلام الكثير عنها.

من فيكتور 72/5/6... غدا سيبلغ عمري 32 عاما، اهنئكم يا اعزائي واحبتي، شكرا لكم واصفحوا عني لو كانت الأمور ليس على ما يرام، كما اردتم ان تكون.

آب/اغسطس 1972. بخصوص السفر باجازة، الرئيس يرغى ويعربد ويهتاج وكالسابق أنين من كل جهة. جلبت لغرفتي أورغان كهربائي واتمرن عليه كثيرا. كانت امسية للراحة، وعزفت مع ايجور، ولكن بمستوى متوسط، اجتمع البلداء وحسب، احتسوا البيرة وحدقوا بالسقف. أذهب لأنام، انهكني الحر...

رجعنا من الإجازة التي امضيانها في الوطن على سفينة (ادجاريا) من مدينة أوديسا مع التوقف في تركيا (اسطنبول)، واليونان (بيري) ومصر (الاسكندرية) وقبرص (فاماجوستا)، وكانت آخر محطة بيروت. امضينا ستة أيام راحة رائعة وانطباعات مكثفة.

من فيكتور. آب/اغسطس 1973. تدفعني حياة العزوبية القاسية إلى تعلم الطبخ، بيد اني اقاوم، ربما مبدئيا. الان اتناول المعلبات والقهوة والرقي. قام النمل بغزو مفاجئ من مكان ما تحت، من تحت المبنى. وهاجم المطبخ واستولت

بهجوم على غرفة النوم. وتعين الالتجاء إلى مواد انجلزية - يسمى باللهجة الشعبية (شيبالكا) مادة مضادة للنمل، لذلك فان مملكة النمل تعيش حالة حداد، وقعت لها كارثة. وهناك أمل بانهم سيغيرون حتى المبنى، بيد أني اعتقد ان الحرب لم تضع أوزارها. وكان من المستحيل مطلقا ترك شيء ما ليس فقط على الطاولة وانما حتى في خزان المطبخ. ومن ثَمَّ راحت تزحف في غرفة النوم وتلدغ. فتصوروا مدى انزعاجي! والمسالة الرئيسية انه وإلى جانب النمل راحت تخطور بخطوات سريعة إلى النمل صراصر فتية، انها في عمر الطلائع. انها جمهور مروع أكثروان المواد المضادة لا تقضي عليها. وبصراحة ليست هناك مادة تقضي عليها. حقا لم تجرعليها تجارب باستخدام المضادات النووية. وحتى فصل الشتاء ستكون سمينة وراضية عن نفسها - ولكنها لن تلدغ.

هذه هي حياة الدبلوماسي السوفيتي العادي الثرية أو بالاحرى. مثلما في محطة مكافحة الاوبئة، ولكن هنا الرواتب اعلى وحسب.

73/9/1 حول شؤوني الخاصة. جاء فلاديمير سباندريان (السكرتير الثاني) وابلغني ان دائرة الكادر تخطط لتغيير المستشار الثقافي إلمان ارسلان في نهاية العام. كتب لي والدي نقلا عن زوجة يفجيني بيرلين نائب رئيس قسم الشرق الأوسط ان اجازتي ستكون في سبتمبر وانهم (ينتظروني بفارغ الصبر) ولدي شحنة مماثلة من اللهفة، ولكني الآن غير مستعد. لا اريد ان أعثر - أود العمل هنا سنة أخرى - وهنا مئات الأسباب ضد ومع - وهناك سؤال آخر: ما الذي حصل

لإطروحتي، هل يمكن الاتصال بيفجيني بريماكوف والاستفسار منه، في اية حالة هي. اخشى ان يكون مشغولا جدا، وليس لديه وقت لقرائتها.

في هذا العام فقط شعرت ما يعني سبتمبر بعد الصيف. هذا يشبه سباق التزحلق لمسافة 15 كم وقد قطعت منها 12 - 13 كم وعندما يكون البدن متعباً ويسعى للراحة، ما زالت النهاية بعيدة. الحركة قليلة جدا إذا لم ناخذ بالحسبان المسبح. الان استؤنفت كرة الطائرة في المركز التجاري مرتين في الاسبوع الان ساذهب.

جمع فيكتور منذ بداية عمله في العراق مواداً لاطروحة الدكتوراه. في عام 1973 كتب العمل عن حركة البعث في العراق وسوريا وقدمها ليفجيني بريماكوف بصفته مشرفه العلمي. وجرى الدفاع عن الاطروحة في معهد الاستشراق في بداية عام 1974.

من رسالتي 74/3/30 الوفود على مستوى رفيع، تصل الواحد بعد الأخرى ويذهب العمل الأساسي لفيكتور، ولكننا تعودنا على ذلك. حلول الربيع يُفرح ولكن ابتل المبنى باسره من الامطار الكثيرة والكثيفة - الارضية مبللة ومن السقف والجدران تتساقط الاصباغ والجص. امس ضبطت بيت عقارب جديد، كان فتيا واخضر، ومع ذلك فان هذا غير ممتع. حقا في البيوت الأخرى تصادف افاعي.

من فيكتور: 74/10/21. وصل فريق (سوفينير) الفني، انشغالات كثيرة، ولكن من الممتع ان أول عرض كان ناجحا. حقا انه لم يعجب الجميع، وبخاصة الزوجات، قدر حماسة الازواج تناسبت مع العمر.

74/12/6 جلب بريماكوف لي بطاقة بريد ملطخة، جاء فيها ان: «اللجنة العليا لمنح الشهادات العلمية» قررت منحي دبلوم (دكتوراه بعلوم التاريخ)! ولم يأت بريماكوف بالدبلوم إلى هنا، وبالمقابل احتفلنا بالمناسبة. وتجولنا معا في كل الامكنة، وقد تصادقنا أكثر. ودعاني للعمل معه في المعهد، ولكني على بساطتي كنت مباشرا جدا فامتنعت. ربما كان الابقاء على جسرين. ورحل هو بينما تئنُ مشاعري بسبب ان قضايا مهمة ومشاكل كبيرة ذهبت عني.

75/9/18 المستشار ليس بطلا! لا يمكن التنبؤ بالمشاكل ابدا، لذلك ينبغي التعلم على عدم منحها هذا القدر من الجهد الروحي والمعاناة. قرأت في مكان ما: «بالنسبة للاعداء اما ان تتخلص منهم أو يمكن ان تتعامل معهم بسهولة». ونفس الشيء بالنسبة للمشاكل. ان الصعوبات توجد وستكون، ولكن ادر نظرك كي تشمل الافراح التي هي دائما قرب الإنسان. عن نفسي أقول بدقة: لن اشكو لك أكثر: حتى استرخي بطريقة ما. ينبغي التحمل والفعل.

75/10/23 الطبيب والكثيرون اقنعوني بمودة بالامتناع عن ممارسة الرياضة النشطة والغاء الحظر على الواين (فانا لم اتناول الخمر طيلة اسبوعين) بهدف تنظيم الضغط. هددتني الطبيبة بوضعي في السرير وتقديم شكوى للسفير الذي نترقب وصوله. لا تخافي انها تثير الرعب. اشعر باني على ما

يرام، امارس رياضة الركض مثل صخلة. امتصني مستنقع التعاون الثقافي. حقا استعمل التلفون بكثافة، إذا ذهبت بالسيارة بكل قضية لن تكفي حتى 48 ساعة في اليوم.

انت تسألين كيف اصرف شؤوني المنزلية. على هذه الشاكلة اقوم بنفسي بغسل الملابس الداخلية. ولكنها الخبيثة تتسخ مرة بعد أخرى. اكوي الملابس بنفسي. يمكن ان تتصوري. اما القمصان وما اكبر منها فارسلها إلى المكوى. واغسل بانتظام ملابس الرياضة. ان السخانة تساعد جدا. المبنى تداعى تماما، صاحبه لم يقم بشيء. حالة الماء سيئة – خابط ويبعث رائحة كريهة.

75/11/18... الزمن مضى بسرعة – حلت فترة اعداد التقارير السنوية، ويتعين علي أن اجلس بالاماسي. لم يرفعوا عني المهمة السابقة، زائد الثقافة. اعمل كثيرا. يبقى وقت قليل، إذا نظرت إلى حجم ما ينبغي القيام به. وانا بدأت بعمل وداعي – مرشد بالحياة الثقافية والنزعات العقائدية في الفن العراقي الحديث – انت تعرفين، وحتى إني متاسف بعض الشيء، بالرغم من أنك منذ البداية لم تباركي انتقالي للثقافة التي على العموم لم تكن قبلي، ولكن الان بوسعي ان افتخر بالعلاقات الهامة التي أقمتها في دوائر المثقفين، وحتى مع الاسف من الناحية المهنية فقدانها، فلا يمكن تسليمها من يد إلى يد.

اعيش بصعوبة – اصبح الطقس بارداً بشكل شديد، وان كيسنا الحجري يزهقني بصورة غير مسبوقة. أمس انتهيت من كتابة وتحرير القسم الخاص بي في التقرير الرئيسي. ولا انتظر أعمالا كبيرة حتى السفر. المزاج كئيب بعض الشيء.

كل شيء اصبح مملا! في المطبخ ظهرت فئران، انها تتنقل في كل مكان، تترك خلفها حبوبا سوداءَ. ان هذا يزعجني بصورة فظيعة، يخلق انطباعا عن تعاسة ذات طابع كوني. تجولت في كل بغداد واخيرا حصلت على مصيدة فئران. لفترة طويلة لم اتمكن من تكييفها وصباح اليوم اصطادت واحدة. مقرف.

78/1/10... ظهرت الفئران في غرفة النوم أيضاً. اليوم في منتصف الليل حاربت واثرت الضجيج وبحثت، وفي نهاية المطاف طردت أحدها إلى المطبخ، وفي اللحظة التي غفوت فيها خشخشت من جديد في هذه اللحظة تنفرزت بفضاعة. وقبضت المصيدة على فأرة فانكسرت للأبد. هذه هي الحال.

العب كرة قدم وكالسابق مع الأطفال العرب. ربما يبدو هذا مضحكا جدا، كيف ان عما اصلع يلهث مثل ماكنة، وهو يركض في الساحة، ولكن احيانا نفوز عليهم.

غالبا خلال ولعنا بالركض ننسى مقدما ان حولنا في تلك اللحظة أيضاً حياة جارية...

في تلك السنوات تمتع الدبلوماسيون الروس بفرصة حرية التنقل في البلاد، وهذا ما قمنا به وبخاصة في السنوات الأولى. وسافرنا إلى بحيرة الحبانية - التي تبعد 80 كم عن بغداد وسد الثرثار 120 كم - بحيرة كبيرة مياهها مالحة بعض الشيء. وليس بعيدا مد اخصائيو الاتحاد السوفيتي قناة الثرار - الفرات.

استذكر السفرة إلى المناطق الشمالية في الموصل وكركوك واربيل والسليمانية. يقع قرب كركوك مركز استخراج النفط. حينما اقتربنا من المدينة مساءً شاهدنا هالة تغطي السماء تقريبا - لقدكانت هذه شعلة نار الغاز المحترق المصاحب. لقد كان مشهدا خياليا! ولكن الأهم الرئيسي في شمال العراق هو الآثار التاريخية التي تعود للألف الثالث والثاني لما قبل الميلاد. انها نينوى عاصمة الامبراطورية الاشورية في منطقة موصل الحالية وشاهدنا هناك وتمكنا من أن نلمس بايدينا التماثيل والنقوش البارزة والالواح بالكتابة المسمارية التي لها عدة آلاف سنة! ومباشرة من الارض قبل ان تكتمل الحفريات نهض تمثال نيمرود، اكبرآلهة اشوري على هيئة ثور مجنح ذي وجه بشري. لقد كان التماس مع الخلود مثيرا للقلق ولن ينسى. ولم نتجاهل بابل المملكة القديمة الأخرى وإلى الجنوب مدينة أور، ومنطقة التقاء دجلة بالفرات - مكان الجنة وفق التوراة مع شجرة المعرفة - انها شجرة غير ظرفة قليلة الورق ذات ثمر ضئيل.

قام علماء الاثار السوفيت برئاسة رؤوف محمدوفيتش مونتشايف لعدة سنوات بعمليات التنقيب والحفر في منطقة سنجار. الولع بالاثار (حرك ارواح) بعض الأصدقاء من موظفي السفارة. فأوليج كوفتونوفيتش الذي سبق فيكتور زاول التنقيب وعرف مواقع يمكن البحث فيها مباشرة على سطح الارض عن قطع كراميك وقطع من الفخار ونقود قديمة. وجمع مجموعة كاملة، وتسربت عدوى ولع المستشار - المنتدب حينها فيلكس نيكولايفتش فيدوتوف، والكثيرون غيرهم. وبالقرب من بابل كان وسط الصحراء برج مرتفع، مدمر بالتمام تقريبا، وقمنا بالتنقيب حوله مباشرة على سطح الارض. عثرنا احيانا على بعض

القطع المثيرة ولا سيّما بعد ان يكون المطر الذي سقط قبل ذلك بيومين قد جرف سطح التربة. لقد تأكسدت النقود المعدنية بشدة وغطتها طبقة من التربة، كان من الممكن غسلها في المنزل فتظهر عليها الصورة. فضلا عن ذلك غالبا ما جاء لمكان التنقيب السكان المحليون، بالاساس الأطفال، وعرضوا للبيع ما عثروا عليه - تماثيل من الطين صغيرة الحجم، وصحاف واحيانا أواني كاملة تقريبا، مطلية بالمينا.

وإلى جانب الاهتمامات المعرفية والتاريخية، كانت الرحلات للشمال حسنة بكونها نقلتنا من حرارة بغداد والغبار الدائم إلى طقس آخر بمنظر طبيعي مختلف تماما - فهناك الجبال الرائعة والخضرة والانهار سريعة الجريان والهواء النقي. وسافر بعض الدبلوماسيين بما في ذلك فيكتور إلى الشمال في جبال كردستان للالتقاء بزعيم الاكراد مصطفى البرزاني. ان الكثير من الاكراد عاشوا ودرسوا في الاتحاد السوفيتي في الخمسينيات من القرن الماضي وعادوا إلى بلدهم في الستينيات مع زوجاتهم الروسيات اللواتي بقين (مواطنات سوفيت) وان سفارتنا دعمتهن.

وهناك لؤلؤة عراقية أخرى - انقاض مدينة الحضر القديمة، تقع أيضاً شمال بغداد. انها تعود إلى مرحلة الامبراطورية الرومانية - وحافظ القصر على بقاياه بشكل جيد: الاعمدة والاقواس والتماثيل والنقوش البارزة. ووقعت المدينة التي كانت مزدهرة في يوم ما على طريق الحرير العظيم من الصين إلى الهند واوروبا.

منذ البداية نشأت علاقات صداقة بين فيكتور ومجموعة الموسيقيين hgs, tdhj العاملين في بغداد. هؤلاء كانوا شبابا من اعمارنا، انهوا الكونسرفاتور في موسكو وكييف وجرت دعوتهم للعمل بعقود في الفرقة الموسيقية الوطنية وللتدريس في المدارس المحلية. وامضى فيكتور الذي هو في روحه (وفي تعليمه أيضاً) موسيقار، باستمتاع وقت الفراغ القليل مع هؤلاء الشباب وشارك معهم برحلات لصيد الأسماك. وكان فيكتور في السنتين الأخيرتين من عمله في بغداد مستشارا للسفير بالشؤون الثقافية وفي ضوء ذلك تعين عليه الانشغال بالقضايا الموسيقية وفرق الباليه. ومع بعض الموسيقيين (ايجور تشيريافسكس وميخائل سيلفيستر وساشا وتمارا كولتشكوف) احتفظ فيكتور مدى الحياة بعلاقات صداقة صميمية ومبنية على الثقة. ومن خلالهم ارتبط في موسكو بعلاقات صداقة مع الاخوين الرسامين التشكيليين اناتولي وفلاديمير شيربينين. واعتز بهذه العلاقة وحرص عليها وكان غالبا ما كان يتردد كضيف على استوديو الرسامين في شارع (مالايا دميتروفكا)، وكان بحاجة للانغماس في وسط ابداعي آخر يختلف عن عمل الخارجية اليومي.

تعليق فاسيلي كوتولاشا:
رئيس قسم الشرق الأوسط في
الخارجية الروسية سابقا

انتقل فيكتور في 1976 - 1980 للعمل من جديد في الجهاز المركزي للخارجية - في إدارة الشرق الأوسط. وبالنسبة لفكتور كانت هذه مرحلة جديدة في سيرته المهنية، حيث ترأس قسم سوريا ولبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية،

وفي الوقت نفسه كان هذا المسار الأكثر تعقيدا وتوترا في الشرق الأوسط. وكان عليه ليس فقط الدقة والفورية في تنفيذ المهام المناطة به، ولكن المبادرة والقدرة على التقييم الصحيح للوضع المتغير بسرعة وديناميكية، واقتناص جوهر التطورات وطرح المقترحات ذات الصلة. وتمكن وبسرعة تجميع خبرة ومهارة المدير، وقيمه رؤساء الإدارة سيتينكا وجرينفسكي، عاليا.

بغداد. (حرب الخليج الأولى) أو (عاصفة في الصحراء)

في بداية 1990 جرى نقل فيكتور متعينا سفيرا للاتحاد السوفيتي في العراق، واقلعنا مباشرة إلى بغداد. واحتفلنا في 7 مايو في حديقة مقر السفير بيوم ميلاد فيكتور الخمسيني اليوبيلي، وكان حفل استقبال احتفائي، بحضور عدد غفير من الضيوف، وقيلت كلمات طيبة. وطفقنا بالاعتياد على الاجواء والتعرف على السلك الدبلوماسي. وكانت خطط فعلية لبناء مبنى جديد لسفارتنا، نظرا لأن المبنى المؤجر القديم كان مبنى شقق متعدد الطوابق ذو مساحة ضيقة. وبعد ان رتب فيكتور بعض القضايا الملحة حصل على موافقة لإمضاء إجازة في الاتحاد السوفيتي.

في 28 حزيران /يوليو وصلنا إلى موسكو وفي 2 اغسطس اغتصب العراقيون الكويت. ان انعطاف التطورات المفاجئ اضطر فيكتور لقطع اجازته والعودة فورا إلى بغداد. وجرى في الاشهر التالية عمل منهك لاجلاء 8 آلآف مواطن سوفيتي تواجدوا في تلك الأثناء بالعراق والكويت، لوطنهم. وفي الوقت نفسه جرت مباحثات مكثفة بين القيادتين السوفيتية والعراقية من اجل للحيلولة دون

اندلاع نزاع مسلح. ووقعت مسؤولية ضخمة على عاتق السفيروحمل سيكولوجي وفيزولوجي جسيم.

من رسائل فيكتور. سبتمبر 1990... كل شيء على نمط واحد - برقيات وتساؤلات ومرة أخرى تساؤلات، حقا قبل عدة دقائق ضحكت طويلا وعاليا. بالرغم من أني كنت وحيدا في المكتب. ان الموظفين غرباء الاطوار من وزارة خارجيتنا بعثوا بطلب - وعلى وفق الامكانية بالطبع، - المساعدة على ترحيل المكسيكيين. وهذا على خلفية قلقنا وحالنا! وربما سيطلبون مني غدا بنقل المصابين بمرض السير أثناء النوم إلى كوكب الزهرة. وحسنا يعتبروني في الخارجية بأني قادرعلى كل شيء. واحسرتاه.

نحن الآن 5,5 ألف، نحن نذوب مع كل رحلة. ان الكثيرين وبخاصة من ابناء الجنوب - أولئك الذين يشاهدون تلفزيون موسكو - يريدون الانطلاق إلى بيوتهم.

5/10/90. أواجه صعوبة بالغة - بالغة. والاهم ان ليس في موسكو من لا يفهمون تلك الجوانب الايجابية التي نكتب عنها، انهم ليسو أولئك الناس. يريد الكثيرون العثور على متهمين أو متهم على ما يجري، ولكن لا يصلون لشيء. ان هذا يحبط المزاج الذي من دون هذا متعكر. عموما انا بصحة جيدة، على الرغم من أن الأم الراس تنتابني. اتناول طعامي بشكل طبيعي. وأشبه بماكنة بلا روح جرى تحريكها. من الصباح إلى الليل تدور بجنون كثير من القضايا. واية نتيجة؟

من تيتكوف، مدير القضايا الاقتصادية في السفارة: 90/10/6. استغل الفرصة السانحة الجديدة واكتب لكم لكي لا تقلقوا. اخشى ان ليس لدى فيكتور فيكتوروفيتش الوقت لكي يصف لكم بالتفصيل حياتنا في بغداد. أولاً، ان كل شيء عندنا على ما يرام الجميع بصحة وعلى قيد الحياة، بالرغم من أن الوضع تغير نحو الجانب الأسوأ، ولكن ليس إلى ذلك الحد الذي تصفه وسائل الاعلام. هناك مشكلة بشأن المواد الغذائية، جرى الاعلان عن نظام البطاقات التموينية على المواد الغذائية الرئيسية الخبزيباع بالبطاقات فقط في الصباح الباكر، ولكني الحق للشراء قبل الثامنة. ويمكن استلام طحين وخبزه بانفسنا وهو ما يقوم به احيانا نيكولاي بيتروفيتش. الوضع في المدينة عادي، تعمل المخازن والاسواق، منذ الأول من تشرين أول /اكتوبر يجري السباق في ميدان سباق الخيل. في أول يوم العدوان كان هناك الكثير من النازحين، اما الان فقد توزعوا، ويبدو جرى تطبيع كل شيء. ولفت نظري اليوم ان عدد حملة الرشاشات اصبح اقل عما كان عليه. واننا وكل ما في وسعنا نساعد فيكتور فيكتوروفيتش.

وخلال كل هذه الاشهر التي اضطر فيكتور ان يعيش بها وحيدا، بذلت عدة محاولات للحصول على سماح لي للسفر إلى بغداد ولكني لم احصل عليه. وفي الوقت نفسه ان عددا كبيرا من زوجات مختلف الموظفين السوفيت ببغداد تمكن بطريقة أو أخرى الحصول على هذا الحق. وشعرت بالمظلومية، لقد اعتبرنا انه لا يجوز انتهاك حظر المركز، حينما كانت تُبذل الجهود لإجلاء مواطني الاتحاد السوفيتي من العراق.

من رسائل فيكتور 90/11/8... أنت لا تتصورين اي وضع هنا، وكيف اعيش. اعيش بصورة سيئة ولا أعرف على اي شيء استند. انها ليست حياة! وما دام ان القدر ارسل مثل هذا الاختبار فسأقف حتى النهاية. وانت ترين اي وضع ترتب - ولنقل ان الانفراج المقبل لن يكون سياسيا. ولنقل اننا جميعا انتظرنا القصف سيكون في ليلة 6 على 7 كانون ثاني/يناير.

والان حينما اعلن بوش ضرورة ارسال 150 ألف جندي فان الافق يرجع إلى شهر أو شهرين، ولكنه يضحى ملموسا ومحددا. ويعتقدون بأمريكا ان الـ230 ألف جندي الحاليين لا يكفون في حال الانتقال إلى معركة برية.

وفي ظل هذا الوضع استلم الاوامر بتسريع اجلاء المواطنين السوفيت. وإلى جانب المقيمين بالكويت قمنا بترحيل 5 آلآف شخص. كما أُعطيت الاوامر للجنة الحكومة التي تضم ممثلي مختلف الهيئات لتنفيذ الإجلاء في مهلة قصيرة تاريخيا. وبهذا المعنى فحسب كلام فاسيلي كولوتوشا يوجد منطق مفاده بان وصول زوجة السفير لبغداد على خلفية إجلاء المواطنين السوفيت والوضع العسكري/السياسي المترتب حينما يتوجب وباسرع ما يمكن ترحيل الناس، سيجر خلفها الآخرين. وهو على حق بهذا. ولكن لحد ما. نظرا لوصول (توا بطرق ملتوية) نساء المسؤولين الآخرين: كالينينا وتسكور وباتساليوك وافاروفا وميخينا فازاليانوفا وكيريتشينكو، والبعض في الممثلية التجارية. ربما ان فاسيلي ايفانوفيتش لم يسمع عن ذلك. وهذا يخلق احراجا وتوترا في السفارة. فهناك بمثابة منع اما الرئاسة فجلبت نسائها. وهذا هو الحال.

يجري العمل بصعوبة. لقد حصل ما كنت اتوقعه وانتظره: النفور من العراق واعضاء قيادته ينسحب تدريجيا كذلك على من يعمل هنا واكون مضطراً للتعامل معهم، واعمل بكثافة. لو تعرفين كم يسلب هذا من القوى الروحية! وإذا ما تعتقدين بان في موسكو من يتابعوننا بتعاطف وحنو، فان الأمر ليس كذلك! ان كل شيء معقد بشكل استثنائي. وهنا يتعين علينا تلقي الضربات من اهل البلاد، لأن (هناك) يذكرونهم بسوء. فضلا عن كيف يقومون بذلك!

يشعر الناس بالسفارة بالتعب، ويتنفرزون، يستمعون إلى الاخبار. في كل ساعة افكر واحلم بان يوضع حد لكل ما يجري. ولكن كيف ومتى - ضباب تام. ولا استبعد ان يتم في المرحلة التي تسبق تبني مجلس الامن قرار استعمال القوة المسلحة، سيُتخذ قرار بصدد قطع العلاقات الدبلوماسية (هناك بند في مثياق الامم المتحدة) أو تقليصها لحد كبير. وحينها ستعود الأمور بالنسبة لنا إلى مجراها الطبيعي. وحقا من الصعوبة القول ما العمل لاحقا؟: «إلى أين الذهاب للتعلم؟ » لأن الحياة لن تنتهي، فضلا عن ان شعورا بالمأزق يساورني. كل يوم احصل من الطباخ على شيء ما، اقمنا امس حفل استقبال جرى بشكل طبيعي كان عدد الضيوف كبيرا، ولكن من المفهوم من دون فرح ومسرة. وعن اي فرح ومسرة يمكن الحديث؟

90/11/17 كتبت واكتب عن ما هو موجود، وكيف سيكون. هل ستنشب حرب أم لا؟ - fifty – fifty، ليس هناك من يضمن. وكالسابق احاول بكل ما في وسعي تسريع عملية إجلاء السوفيت من الجنوب، ترد لنا من موسكو أوامر.

اشعر بالصعوبة، اريد جدا ان تكوني معي. لا تستطيعين. هكذا، ولكل الاحوال، فهمت من فاسيلي كولوتوشا. وهذا سهم إضافي سددوه لي، والذي من دونه... وانا ابرر بيد اني لا افهم لماذا. وعموما فان احوالي على ما يرام. ولكن - على العموم. أيام عصبية، ولا افلح دائما افلح في الحفاظ على رباطة الجأش. الوضع شاق.

هناك احتمال غير قليل ان مجلس الامن في هذه المرة سيوجه انذارا ربما سيكون الاخير، للعراق بتنفيذ كافة القرارات وبالدرجة الأولى الخروج من الكويت وفي موعد محدد، وكل المعطيات تجمع على أن ذلك سيكون في بداية العام القادم. ففي عيد الميلاد يود الجميع التمتع بإجازة. وهناك - انشاء الله.

90/11/29 لحد الان تترتب الأمور على حسب ما تصورت. الحق مع طرف (ولكن) - وإذا صوتنا (لصالحه)، ونحن حتما سنتصوت على هذا الشكل -، فسيكون وضعنا هنا في القريب العاجل، غير سهل. والان يبدأ الهياج في وسائل الاعلام، فكيف ستمضي الأمور لاحقا، يبقى علينا ان نخمن وحسب، بالرغم من أن هناك خيارات كثيرة. وفي كل الاحوال ستكون حتى 15 كانون ثاني / يناير فترة استراحة. وعلى العموم كل شيء على ما يرام. اليوم بعد الآخر يركض وأيام العمل قاسية. ويتراكم التعب والخيبة، ان ما يجري هنا غير معقول. ويرسل لنا المركز أوامر بتشديد اليقظة والحذر بعد تبني القرار. ومع الأسف انهم على حق.

91/1/12. اللولب يضيق ولا يجوز ابقاء النساء هنا. في الوقت نفسه تجري الاستعدادات لتقليص قوام الرجال. وحتى الخامس عشر، ينبغي احصاء الجميع بدقة. انها مرحلة غاية في التعقيد. وبالطبع ينظرون لي كمُطالب برحيل النساء

وعدد من الموظفين، بما يناسب. بيد ان موسكو تطالب انتهاج هذا الخط بشدة. تقلصت غالبية السفارات إلى الحد الادنى (3 - 5 أشخاصا)، ورحل الكثيرون. ومن الصعوبة التنبؤ بماذا وكيف سيكون الوضع، وهناك شيء واحد واضح - الان زمن الرحيل، وليس المجيء. المعيشة صعبة، ولكن علينا تحمل هذه المُعاناة. ارجو ان تصبري، انا على ثقة الان ان ليس لفترة طويلة. ارجو ان تتماسكي ولا تتأثري من اجلي. بعون الرب، سيكون كل شيء على ما يرام.

في ليلة 16 على 17 كانون الثاني/يناير 1991 بدأت قوات التحالف المناوئ لصدام، القصف الكثيف على بغداد. واتصل ليونيد نيجرياكاكين موظف وكالة انباء نوفتسي المتواجد حينها ببغداد بطريقة ما بموسكو بزوجته لودميلا (اخت فيكتور) وابلغها انه يلاحظ كيف ان سماء المدينة اضيئت من الرصاص الكاشف، ويسمع التفجيرات وهدير الطائرات.

واقلعت في 16 كانون ثاني/يناير آخر طائرة من بغداد، وعلى متنها كافة النساء المتبقيات. وظل في السفارة زهاء 40 شخصا. وآخر مجموعة من منتسبي السفارة التي ضمت الأشخاص الذين ضمنوا قابلية الحياة للسفارة من مدير الشؤون الاقتصادية إلى السائق والطباخ فقد غادروا العراق في 30 كانون ثاني/ يناير بالسيارات عبر إيران. وبالمحصلة ظل هؤلاء الأشخاص في الظل ولم يتم تميزهم بالأوسمة (وليس فقط الـ 13 شخصا الذين تم تقليدهم بالأوسمة)، بالرغم انهم مروا بالصعوبات وتحملوا ثقل المشاكل التي واجهت السفير وفريق موظفيه، ابتداءً من اغسطس 1990 بما في ذلك الاسبوعين الأولين من الحرب.

وطيلة الشهر والنصف من العمليات القتالية جلس فريق السفارة الصغير خلال القصف والضرب الصاروخي فيما يسمى (بالملجأ)، وهناك استقبلوا احيانا ممثلي الحكومة العراقية، والفلسطينيين. وذات مرة انفجر صاروخ قريبا جدا منهم، وجمعوا شظاياه كهدايا.

وبخلاف السلك الدبلوماسي الآخر بقيت السفارة الكوبية في بغداد بكامل نصابها، ومن هنا بدأت علاقات الصداقة مع السفير خوان الدام ولا سيِّما مع عقيلته اللا ليونيدوفنا زينكوفيتش. والان تعمل العبقرية والحسناء مدرسة للغة الاسبانية في جامعة معهد العلاقات الدولية في موسكو. واحيانا يمكن رؤيتها في برامج الاخبار التلفزيونية، حيث تقوم بدور المترجم خلال لقاءات قيادة بلدنا ويوغو تشافيز وغيره من الشخصيات الناطقة بالاسبانية.

من رسائل فيكتور. 91/1/28... ابليس ليس مروع إلى ذلك الحد، كما تساعده ماكنة الدعاية. ان شؤون الحياة اليومية غير المريحة أكثر ازعاجا - انعدام الضوء والحصول على المياه، والبرد هو الأكثر فضاعة الآن - انها بغداد على كل الاحوال.

91/2/28 اجرينا حفل استقبال بمناسبة عيد الجيش الاحمر، قبل يوم من الهجوم البري! هؤلاء الروس (مجانين) - هكذا يفكرون بنا.

91/4/10. لقد حصل كل شيء ليس مثلما كنت آمل واحسب. ان محنا جديدة تنهال على رأسي، والتعب شديد جدا وجدا. ونائب وزيرنا على مدى 11

يوما يتوجه لنا، وعلى العموم انتظرته في بداية آذار/مارس. وليست هناك ثقة بانه سيصل. وبكل الاحوال هناك معلومات تفيد انهم يرتاحون في طهران. ان الأحداث تكشف الناس وتسلط الضوء عليهم من دون رحمة كالصورة الشعاعية. اعد الأيام وحتى الساعات حتى وصولهم، بالرغم من عدم الوضوح. وفي ضوء ذلك وبعد عودة النائب - إن شاء الله - ساطلب من موسكو السماح لي بزيارة موسكو لمدة 7 - 10 أيام بمأمورية للتشاور وحل القضايا العاجلة المرتبطة بانشطة السفارة اللاحقة التي تراكمت بكثرة. ولا يمكن ان يدور الكلام عن إجازة حتى لو كانت قصيرة. انا مضطر للتواجد هنا، ومن ثَمَّ ربما في الصيف اذهب باجازة. والان احلم بان اكون في البيت ولو لفترة قصيرة. هواء طري وشرب ماء نظيف، والاستلقاء في هدوء وسكينة وتهدئتك ووالدتي. يا إلهي ما مقدار الرغبات، وتبدو انها غير كبيرة، وانما بسيطة، إنسانية، ولكن مهما حاولت لا تعرف متى سيتحقق كل ذلك.

دمشق، سوريا

في يوليو 1980 ارسل فيكتور للعمل في سفارة الاتحاد السوفيتي في سوريا بمنصب مستشار - سفير (اي الشخص الثاني في السفارة). حينها ذهب السفير فيكتور ايفانوفيتش يوخين في اجازة، وبقي فيكتور قائما بالاعمال. وكما هو معروف ان الاتحاد السوفيتي ارسل قواته إلى افغانستان، مما أثار ردود فعل سلبية في جميع انحاء العالم وايقظ نشاط الاسلاميين. ووقعت في سوريا حادثة اعتداء على المواطنيين السوفيت من قبل اعضاء منظمة (الأخوان المسلمين) الارهابية. وكان رد فعل وزارة الخارجية على ذلك بحظر جلب الأطفال بعمر التلاميذ. واعتمدت السفارة تدابير صارمة للأمن: منع السير بشكل انفرادي في الشوارع، وزيارة سوق الحميدية، حيث قتل الاسلاميون أحد الأخصائيين السوفيت.

من رسائل فيكتور لعائلته: 80/9/6. من دون تواضع عملت في الماضي كثيرا، ولكن الان انهالت علي عاصفة، اعصار، تورنادو، اطلقوا عليه كما تحبون. الحجم خيالي، والاهم - المسؤولية. لأن توقيعي يوجد على ما اكتبه وليس توقيع غيري، واحسست لأول مرة بان هذه يعبئ قوى الإنسان بفضاعة. والان ارى أوراقي حتى في المنام. اكسر اصابعي واصك على اسناني حينما يمر يوم أو يومين

تدرك بان كان من الممكن الكتابة بشكل افضل. ان الرجل الروسي فطن بعد ان تجري الحوادث. وعلى العموم انا اتلذذ بكل معنى الكلمة - فالعمل ممتع للغاية. فسوريا الان في مقدمة مسرح الأحداث في الشرق الأوسط، وعلى العموم في السياسة الدولية.

80/11/8 اليوم هو الأول حينما سقط من على الكتف الحمل والثقل الذي شعرت به على مدى شهرين واسبوعين. حضرت وأجريت زيارة على مستوى عالي وكل هذا ممتع للغاية. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى اصبح جليا ان التنقل في مرسيدس السفارة الاسود مع العلم الاحمر كانت ممتعة فقط البداية، من ناحية دغدغة حب الذات. ولكني اعتدت بسرعة على هذا الشعور ولهذا ربما لم تفارقني مشاعر المسؤولية لأنه وإلى جانب ذلك هنا دبلوماسيون والاف من مواطنيننا.

ولكن على العموم - بالضبط على العموم - وحكما بالاراء من الخارجية فاني اجتزت الامتحان. امتدحوني، ولكن كانت هناك ملاحظات. ربما ان حجم العمل كان بشكل ان لا ترتكب عند اداءه خطأً ما. وفي كل الاحوال افكر كثيرا في الاخطاء التي وقعت واحلل، فكل هذا ضروري ومفيد، نظرا لأن هذه أول خبرة من نوعها في الحياة والعمل.

اليوم ساقرأ تقريرا في اجتماع الجالية السوفيتي الاحتفائي، ومن ثَمَّ هناك في الأيام القادمة كثير من مختلف المحافل، لهذا لن يوجد وقت للراحة. بيد اني

وسفتلانا نخطط إذا سمح الوقت ان نسافر في تشرين أول /اكتوبر إلى البحر الاحمر في الاردن لزيارة الاماكن المقدسة تلك التي لم يعطوها للاحتلال الإسرائيلي.

وعموما اريد الان الاتجاه نحو ايقاع نظام الحياة والعمل. ينبغي التفكير بالصحة والاهتمام بها. ولا يجوز القول اني نسيتها وفي الاشهر الماضية: كل يوم أمارس السباحة في المسبح بالرغم من أننا الاقوياء ومحبي السباحة في الماء البارد لم نبق في السفارة سوى 4 أشخاص - وهذا افضل. وجرى تنظيم لعبة كرة الطائرة 2 - 3 في الاسبوع، وفي الأيام الأخرى قد ادير بنظري وأحصل على فرصة للعب في كرة قدم. يوجد هنا محبون لهذه اللعبة العزيزة على قلبي. حتى إني اريد ان العب في 7 نوفمبر لصالح فرقة الجالية. والان أُخمن في ما إذا سيقوض هذا بشدة مكانتي بصفتي الرجل الثاني في السفارة. الأشخاص الاذكياء يقولون ستقوض اذا لم اسجل إصابة. فما العمل ينبغي تسجيل هدف، هنا يعتبروني لاعبا جيدا بكرة القدم، في موسكو كانت قوى الفرق المتنافسة اكبر.

احاول استئناف دروس اللغة الفرنسية، التي كنت مضطرا لقطعها، حالما اصبحت قائما بالاعمال. وبالمناسبة فان الفرنسية هنا ضرورية جدا فضلا عن انه سيكون من اللطافة ان تختار مثل المسبحة، مباشرة ثلاث لغات حسب ميول المتحدث. لحد الان اتحدث بالفرنسية فقط مع سفير فيتنام، الذي لم يذهب عني بعيدا. في السفارة هناك بانينو من نوع (استونيا) - جديد صائت. نادرا ما اعزف، كذلك اخشى ان أسيء لسمعتي كمستشار، ليس الجميع لدينا يقدرون هذه المهارات، ارفض بشدة مصاحبة أحد بالعزف، وبخلافه سيسري حديث في

السفارة عن ان المستشار يعزف موسيقي للرقص،... إلخ. العزف على البيانو على مهل ممتع جدا، وسوف ازاوله في الشتاء بكثافة.

العلاقات الودية تقام أيضاً، بالرغم من أن طبعي كما يبدو يبدأ بالتردي، لذلك توجد في العلاقات مع الناس شيء من الخشونة النتوءات. لا اعتقد اني بدأت اغتربنفسي. بكلمة واحدة من الصعوبة الانتقال فورا من العمل والعلاقات الوظيفية إلى علاقات الصداقة، واللارسمية. توجد حدود وخطوط يتعين مراعاتها، وعدم الخلط بين الصداقة والخدمة. وهذا ما يحصل هنا بحكم الطابع المنغلق للبعثة الدبلوماسية في الخارج: لا يمكن ان تعطي بالتو مهمة للشخص وتسعى لأن تضفي على صوتك نبرة معدنية بحدود المعقول، وبعد ساعة تجلس معه وتدق الكؤوس. هناك توجد مشكلة، بالرغم من أن احدا لا يراها بالظاهر.

81/8/7 (بعد الاجازة)... حارة جدا، انا تحت المروحة والعب كرة الطائرة، لا اشرب البيرة ولا غيرها، ومع ذلك لا اشعر بالخفة.

81/8/15. تُقام الان حفلات استقبال كثيرة. في اليوم حفلتان. في مجال الرياضة امارس السباحة. وما عدا ذلك اعمل، ومرة أخرى اعمل. كما لو ان كل شيء قد تحرك. وفودنا تصل من دون انقطاع علاوة على وزير خارجية كمبوديا ومن ثَمَّ افغانستان - كلهم ضيوف غير بسطاء، في الاثنين سيصل نائب رئيس وزراء جورجيا، دعك عن الحديث بصدد كيكابيدزه وبريجفادزه مع فرقة (أوريرا) و89 شخص من مسرح ستانسلافسكي وغيرها. والمسالة الرئيسية ان البرقيات ترد من دون نهاية. العمل وهذا كما تعرفون فاني (ويالللغرابة) ازهر في مثل هذه

المراحل. وعموما اتحرك مثل إنسان آلي (روبت)، اعمل واتناول طعامي وانام والعب كرة قدم وكرة طائرة وليس ثمة وقت للقراءة. وهذا يعني ان تعيش بامتلاء ومتعة. كنت في اللاذقية مع. رئيس قسم الشرق الأوسط في الخارجية السوفيتية ميخائيل دمتريفيتش سيتينكو الذي قام بزيارة لسوريا.

مثل معذب انظر إلى الاوراق والاقلام وإلى اني واندريه (فدوفين) نكتب في اليوم كثيراً كثيراً من الاوراق باليد، وهذا عمل متعب.

من رسالتي لعائلتي 82/9/23... انا تحت تأثير اللقاء بسفير موسكو في لبنان الكسندر الكسندروفيتش سولداتوف وزوجته. جاؤوا امس من بيروت، وتحدثوا طيلة المساء عن الحرب التي دارت عدة اشهر. ان هذا أمر خيالي ومرعب. قصارى القول انهم باعجوبة بقوا جمعياً على قيد الحياة. وكان عددهم 20 شخصا بينهم امراتين بقوا احياء، عملوا وتحملوا القصف واطلاق النار المستمر والرمي السديد على مدى 3 اشهر والنار، في ظل نقص المواد الغذائية، والكثير غيرها. علما انهم كبار في السن وتمكنوا من الاحتفاظ بالحيوية والطاقة، ودعموا التفاؤل لدى الآخرين. انا مذهولة من شجاعة هؤلاء الناس الرائعين ومما تعين عليهم ان يمروا به. تذكروا فيكتور (مع الأسف لم يكن موجودا) بكل دفء، انهم يعرفوه جيدا ويحبوه. حتى إنهم جاؤرا له بقنينة شمبانيا فرنسية من بيروت المخربة.

من فيكتور 82/11/30. اقلعت إلى ابوظبي، وكنت في اماكن لم يزرها اي دبلوماسي سوفيتي، وكدت اتوجه إلى عُمان. هناك أمور هامة، ليعيننا الرب على نجاحها (الكلام يدور عن اقامة العلاقات الدبلوماسية مع بلدان الخليج).

... احاول وكالسابق ان اكتب اغاني، بدرجة قوية احاول حتى إني اكتب. لعبنا أول امس بكرة القدم مع لاعبي فريق دينامو المسكوفي، الذين وصلوا إلى هنا. ولعبت انا أيضاً. حقا لم اسجل هدفا، ولكني مرتاح من ادائي والآخرين أيضاً.

اكتوبر 83. سارت أمورنا في مجرى عادي، فقط بخلاف واحد ان الاوضاع حول سوريتنا الطيبة تبقى معقدة جدا. وما عدا ذلك - عمل ممارسة الرياضة 5 - 6 مرات في الاسبوع، في المساء مشاهدة التلفزيون. لم اترك الاغاني، اكتب قليلا. وعلى العموم منذ وصولي كتبت 8 اغاني بينها غير سيئ. في الحقيقة طيلة هذا الوقت كان هناك جمود بين علية القوم لذلك لم اعرضها على الجمهور. اصبحت الاغاني غير قليلة (اردت ان أقول (كثيرة) ولكني خجلت)، واصبحت انسى الكلمات. المهم انها تساعدني للهروب إلى داخلي، حينما تتغلب الصدمات والانحناء إلى الارض والمكائد والتفاهات، التي نحن الذين في الخارج غير قادرين على التخلص منها.

مارس 1984... كيف يمكن اجتثاث الحسد والنفور والحقد والغيرة من النفس، كيف يمكن ان ترغم نفسك على أن تكون طيبا؟ كيف يمكن ان نجد في الإنسان المعقد والمغلق والطيب - الشرير - بريق النور الأول فيه، وننصحه وننُشط الخير والتسامح والرحمة الغافية في نفسه، وأين يمكن الحصول على القوة والحكمة لهذا؟ من الجلي انها تنقصني لكل يوم، ولكل حدث. نحن نحصل على شحنة الخير حينما نُقيم في الوطن، وهنا نستنفذها. حان الوقت لاعادة شحن البطارية.

عشنا حوالي خمس سنوات في دمشق، كانت حافلة بالأحداث والاعمال المهمة، والرحلات واقمنا أواصر علاقات جديدة. وعند نهاية المأمورية فقط استطعنا ان نزور القسم القديم من مدينة دمشق - الحميدية. وإلى جانب كافة مفاتن السوق الشرقي التقليدية بروائحه الفواحة كانت هناك دكاكين التحف والعاديات والمجوهرات، وتعدد الالوان والغزارة، ان للحميدية خصوصيتها. وكان في زمن الامبراطورية الرومانية في هذا المكان معبد جوبيتر، ولحد يومنا هذا ما زالت محفوظة قطعة من المعبد على هيئة اعمدة وجزء من الجدار موشى بالزخارف.

تجولنا كثيرا بالبلد بما في ذلك في اللاذقية الواقعة على البحر، وزرنا حلب حيث يجري بناء محطة هيدروكهربائية على الفرات التي يعمل بها اخصائيو الاتحاد السوفيتي. وشاهدنا بقلق الانقاض: اثار تدمر الرائعة وقنوات كاناتا في السويداء وبُصرى الشام بمسرحها الذي حافظ على نفسه وهو من نمط المسرح الروماني حيث تعرض احيانا المسرحيات من قبل فرق المسرح والاوبرا والباليه العالمية الزائرة. وكانت هناك اماكن تاريخية أخرى التي يوجد منها الكثير في سوريا. مثل دير سمعان أو دير ثلانيسوس (القرن الرابع - القرن الخامس) وقلعة كراك دي شوفليه التي يعود بناؤها إلى القرون الوسطى زمن الحروب الصليبية وصلاح الدين الايوبي (القرن الحادي عشر). وقمنا برحلة مؤثرة إلى دير صيدنايا الذي يرجع بناؤه إلى القرن الرابع - الخامس، حيث تحفظ ايقونة مريم العذراء في كهف مظلم وايادي الحواري لوقا وفقا لما تتناقله القصص، وإلى قرية معلولة وهي أحد الاماكن القليلة على الارض التي يتكلم الناس فيها باللغة الارامية القديمة.

وقمنا برحلات عديدة في الدول المجاورة - الاردن (جرش وبترا ووادي روم والبحر الميت والعقبة) ولبنان (بيروت وبعلبك). في تلك الاماكن تتوارد الخواطر عن مقدار ما رأى هذا الحجر وهذه الجدران وكم من القرون والأحداث ضجت عليها! مر على هذه الارض انبياء اديان العالم الثلاثة الرئيسية. وهنا ترك اليونانيون القدماء والرومانيون واوائل المسيحيون ومن ثَمَّ العرب والصليبيون، اثارا رائعة.

وغالبا ما قمنا بهذه الرحلات مع الدبلوماسي والمستعرب اندريه فدوفين وزوجته لودا. واقام اندريه وفيكتور علاقات صداقة بالفلسطينيين - قيادة جبهة التحرير الفلسطينية. ومنذ ذلك الحين - صداقة مع ياسر عرفات وابو مازن (محمد عباس). وأتذكر كيف اننا مع فيكتور ولودا واندريه زرنا ذات مرة مخيما فلسطينيا، حيث منحونا فرصة اطلاق النار في الهدف من المسدس (كان هناك معسكر لتدريب مقاتلي المقاومة الفلسطينية).

وكما يتضح من رسائل فيكتور فان حصة الاسد من الوقت ذهبت إلى العمل العادي الروتيني - معطيات وتقارير ومقترحات للمركز، ولقاءات كثيرة، واتصالات. ومع ذلك فانه يجد وقتا للذهاب لمسبح السفارة ليمارس السباحة حتى حلول البرد حينما لم يعد أحد يسبح، وشارك في منافسات كرة القدم.

وفي ديسمبر 1981 توفي بعد مرض شديد والد فيكتور: يفيموفيتش الذي احبه فيكتور بشدة واحترمه. وتالم كثيرا لهذه الخسارة، متذكرا حكايات الاب عن الحرب، وكتب حول هذا الموضوع قصائد حرب، ومن ثَمَّ ولدت اغنية وتبعتها أخرى. ومن اجل ان يؤديها كان عليه تطوير عزفه على القيثارة - وكان هذا أيضاً في دمشق.

وارتبط فيكتور بعلاقات صداقة دافئة بمختلف الدوائر السورية - من وزير الدفاع (وهو في نفس الوقت شاعر) مصطفى طلاس، والفلسطينيين الذي جاء ذكرهم، وزعيم الدرز اللبنانيين كمال جمبلاط، وقساوسة الكنيسة اليونانية والارمنية في سوريا وممثلي الكنيسة الارثذوكسية الروسية (الاسقف فالنتين)، ورجال الثقافة والاعمال - وحتى سائق السفارة السوري ابو أحمد.

في 1985 - وحتى مارس 1988 - العمل في دائرة الشرق الأوسط وشمال افريقيا بمنصب نائب رئيس الدائرة.

تعليق فاسيلي كولوتوشا: بعد عودة فيكتور من دمشق في شباط/ فبراير 1985 انضم للعمل في قسم الشرق الأوسط الذي غدا عزيزا عليه، وفي هذه المرة في منصب نائب رئيس القسم. وجرى حتى ذلك الوقت اعادة هيكلة جزئية في وزارة الخارجية التي طالت إدارة الشرق الأوسط - ودخلت في اطار مهامه البلدان العربية الداخلة في قسم افريقيا الأول، اما قسم الشرق الأوسط نفسه فقد تحول إلى إدارة الشرق الأوسط شمال افريقيا، واستعد فيكتور لتوظيف خبراته ومهاراته للإدارة الجديدة، فقد كان مهتما كخبير بالشرق الأوسط ان (يفتح) افقا جديدة ويستوعب مشكلاً جديداً بالنسبة له. ووفقا لآراء رفاق وزملاء فيكتور الذين عملوا في تلك المرحلة في الإدارة، ان اختبار (المشرف) كان ناجحا فلا تعوز فيكتور الطاقة والرغبة بمعرفة الجديد، وسرعان ما جاءت الخبرة وامتلاك القضايا الملموسة والاعتراف من جانب رئاسة وزارة الخارجية.

سلطنة عمان

بعد اقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي وسلطنة عُمان في ابريل 1988 عُين فيكتور أول سفير للاتحاد السوفيتي في هذا البلد. وكان فيكتور متحمسا لمهمته، لقد ترقبنا تعيين بمنصب سفير وباستحقاق. واتفق ان زار الامارات قبل ذلك بخمس سنوات، وانه تقريبا ادرك ما ينتظره. وتصور ان عُمان تشبه اليمن، وان طقسها أكثر حرارة وحسب. فعلا بيد انها ظهرت شبيه باسطورة.

وكان السلطان قابوس بن سعيد الذي حصل على تعليم جيد في لندن، قد استدعى خبراء انجليز لبناء اقتصاد جديد وتشكيل جيش عصري. وبمحصلة مساعدتهم نجح في غضون 15 - 20 عاما بتحويل عُمان من أكثر البلدان تخلفا إلى دولة مزدهرة، تستثمر بعقلانية عوائد النفط. فمدت الطرق الجديدة الرائعة وعمت النظافة المثالية تقريبا والنظام في الشوارع. وتم النجاح بتحويل الصحراء الحجرية الجرداء إلى حديقة مزدهرة: غرست النخيل وغيرها من الاشجارة الباسقة بغزارة، وفي كل مكان ورود البوغَنْفيليّة (الجهنمية) وغيرها من الشجيرات الزاهرة. ولإروائها مُد لكل شجرة وشجيرة خرطوم، تتساقط

منه باستدامة قطرات ماء. وبالمناسبة لا يوجد في مسقط مصدر للمياه العذبة، ويسخترجونها من مياه البحر في مصنع خاص - لتحلية المياه. لقد اخذ العمانيون وتعلموا من المستعمرين السابقين، لذلك يعم النظام في البلاد، واقيم كل شيء بعقلانية. ولا سمح الله ان تحدث هناك ثورة ما.

من دون شك ان أحد الاماكن المميزة في مسقط هو سوق السمك. لقد جرى بناؤه وتجهيزه في العصر الحديث. واقيم على مرتفع صف دكاكين يفصلها بلاط ابيض ومجهزة بأنبوب ماء. ويقع السوق على شاطئ البحر، بالقرب من المرسى، إلى حيث ترسوا قوارب السماكين مع الصيد. وإذا ما ذهبت باكرا إلى هناك فيمكنك ان تشاهد في الحوانيت كل الثروة البحرية المتنوعة في المحيط الهندي.

وقبل وصولنا إلى مسقط بعدة اشهر زار السلطنة فريق من وزارة الخارجية للتمهيد لافتتاح سفارتنا. وضم الفريق كما اتصور أربعة أو خمسة أشخاص بما في ذلك السفير افادي كوليف (الذي وفاه الأجل قبل وصولنا وكان قد اصبح في عام 1990 وزيرا لخارجية تركمانيا المستقلة) ومدير الشؤون الاقتصادية فيكتور ايفانوفيتش ستوكالكين والمحاسب في إدارة الخارجية للعملات الأجنبية. وخلال تلك الفترة تم تاجير مجمع من الفيلات عند شاطئ البحر - مجمع صغير يتالف من أربعة مباني ذات طابقين وفناء كبير بينها ومسبح من الجانب الخلفي، وتحيط به مباني مشابهة حيث اقامت عوائل من مختلف البلدان. وكان رجل الاعمال أحمد فريد العولقي صاحب هذا المجمع بأسره، وهو شخصية غير محددة من البدو البسطاء الذين اغتنوا من بناء الطرق. وأحمد رجل نشط قوي العزيمة ذو

طبع مغامر دفعه للقيام بمحاولة في 1990 للبحث عن سفينة أمريكية غرقت أثناء الحرب العالمية الثانية اثر اصابتها بطوربيد، واخراجها، واشيع ان على متنها كنوزاً من الفضة والذهب وسلطت الضوء على المحاولة الكثير من وسائل الاعلام.

واصبح واحد من هذه المباني مقرا للسفارة، ونصف آخر مقرا للسفير والنصف الثاني شقة لدبلوماسي. وفي المباني الأخرى تحولت إلى شقق كافة الموظفين الآخرين. وتم بناء بوابة أوتوماتيكية. وجرى شراء موبليات وكل ما هو ضروري للحياة. وبعد فترة قليلة منا وصل دينيسوف (السكرتير الأول) وأوليج دريوموف (سكرتير ثالث) وسائق فيكتور، مع زوجاتهم وأطفالهم والمحاسبة لودميلا ميخائلوفتش. ومن ثَمَّ وصل الطباخ بافل جايدينكو - شاب ممتاز رقيق. وحينما كنا هناك بلغ فريق السفارة مع عوائلهم 13 ومع لينا وبولينا 15 شخصا. (لقد عمل مع فيكتور في مسقط ستوكالكين زجاينكو وجامشين تشيريدينتشكو - وكانوا أشخاصاً رائعين ومن ثَمَّ في بغداد قد فارقوا الحياة بعده من نفس المرض).

انتظر فيكتور شهرين لكي يحظى بمقابلة السلطان لتسليمه أوراق اعتماده، واخيرا حان هذا اليوم. وعرض التلفزيون المراسم بكاملها وما زلت احتفظ بتسجيل على شريط فيديو لها.

اصطف في فناء العروض عند قصر السلطان حرس الشرف من عشرات الحرس جميلي الطلعة. ووقف مقابلهم مدير المراسم بملابس وطنية، ووقف إلى يمينه سفيرنا فيكتور فيكتورفيتش بوسافاليوك في بدلة سوداء جميلة، مطرزة بالذهب. وكان ذلك في نهاية آيار/مايو وكانت الشمس تشوي من دون رحمة،

وحتى في الظل كانت الحرارة ليس باقل من 40 درجة، وزوجي فيكتور يقف براس مكشوف تحت هذه الشمس التي لا ترحم. وتجدر الاشارة إلى ان هناك قبعة مع البدلة التي تمت خياطتها لفيكتور في ورشة خياطة الخارجية، بيد ان فيكتور قرر، بعد ان وضعها على راسه، بانها غير لائقة، ووافقنا على ذلك. لذلك توجه إلى مراسم تقديم أوراق الاعتماد من دون غطاء رأس. ان أهمية الحدث وحسب جعلته يصمد امام هذا الاختبار - لعدة دقائق طويلة، وحتى إن عزفت الفرقة الموسيقية في البداية النشيد الوطني السوفيتي ومن ثَمَّ العماني، تحت الشمس الحارقة. وفي نهاية المطاف رافقوا فيكتور إلى القاعة حيث استقبله مرحبا - وهو واقف - مبتسما السلطان قابوس محاطا بوزرائه. وقرأ فيكتور نص ورقة الاعتماد بالعربية. وثمة شعور بان كل من استمع لذلك اندهش - سفير روسي يتقن لغتهم.

بعد تقديم أوراق الاعتماد اصبح فيكتور رسميا سفيرا للاتحاد السوفيتي، ورُفع العلم الأحمر على مبنى السفارة. وبدأ على الفور بتطوير التعاون، وطرح مختلف المشاريع التجارية والثقافية. وافلحت مؤسسات صناعة السيارات السوفيتية بالاتفاق على بيع سيارات (لادا) و(نيفا) في عُمان، وقاموا باجراء تحسينات طفيفة عليها، وعلقوا للتجميل مختلف الاشياء وسوقوها بنجاح باسعار مقبولة. وبدعوة من وزير الثقافة العماني وصلت لتقديم الحفلات، فرقة الغناء والرقص للجيش السوفيتي الميمنة باسم الكسندروف. وكان ذلك حدثا مدهشا! ان تسمع في هذه الامسيات وفي بلد مغلق تماما بالنسبة لنا، العسكر السوفيت يغنون، والمسألة الرئيسية ان ترى كيف استقبلهم الجمهور المحلي بامتنان - لقد كان هذا مثيرا للقلق وببساطة خلاباً.

ووفقا للبرتكول الدبلوماسي فان على السفير الذي وصل حديثا للبلد القيام بزيارات للمسؤولين ذي الصلة وسفراء البلدان الأخرى. وسرعان ما اقام فيكتور علاقات جيدة بالسلك الدبلوماسي، وتصادق مع الكثيرين. وظهر كافة سفراء الغرب وزوجاتهم لطفاء للغاية: الانجليز والالمان الغربيون والأمريكي مونتجومري وصديقته الرسامة كيرول والهولندي ياكوب والايطالية بأولا وزوجها. السفير الصيني وزوجته شيتشين، والكوري الجنوبي أيضاً سرعان ما غدوا أصدقاء. ولا نتحدث عن كافة السفراء العرب والافارقة.

ومن بين العمانيين اصبح أحمد الريامي وزوجته اليسا أصدقاء لفكتور ولعائلتنا. هو رجل اعمال غني ورجل دولة درس في الاتحاد السوفيتي، وهو ودود للغاية وعضو الفريق الوطني للغولف.

والمثير ان السلطان قابوس ظهر عاشقا كبيرا وضليعاً بالموسيقى بشكل عام والاوروبية الكلاسكية على وجه الخصوص، لهذا السبب صاحبت التحقيقات اليومية التلفزيونية الكثيرة عن لقاءات السلطان أو زياراته موسيقى لطيفة وغير لجوجة واطلاقا غير عربية.

وبمناسبة الحديث عن ولع السلطان بالموسيقى أود الحديث عن صلة المواطنين الروس بالموسيقى. لقد كان الارغون الالكتروني (ياماكسا) باصواته المتنوعة أول منتقيات السفارة. وكان فيكتور خلال دقائق الفراغ التي يمضيها في المنزل غالبا ما يجلس وراء البيانو، واحبَ دائما تقليد موسيقى واغاني الجاز وعزفها بمهارة. وراح يعزف هنا في سفارتنا بالسلطنة على هذه الآلة الممتازة بمتعة. وذات

مرة في إحدى حفلات العشاء التي دُعي لها السلك الدبلوماسي وحضرها حوالي 20 ضيفا، جلس فيكتور وراء الاورغان وطفق يعزف لحناً خفيفاً. وحينها طلبوا منه ان يؤدي اغنية روسية ما. وعزف كما اعتقد (كاتيوشا) نظرا لأنه عقد الآمال على أن الكثيرين يعرفوها. وهنا راح الضيوف يرددون الغناء! واتضح فورا ان السفير الصيني يعرف اغانينا والأكثر دهشة غنى الكوري الجنوبي، ولم يعرف الموسيقى فقط وانما الكلمات.

وبعد العديد من السنوات في نهاية التسعينيات تحدث سفير بريطانيا العظمى في المغرب انتوني لايدن باعجاب لسفيرنا حينها المعتمد في الرباط عن كيف قرأ فيكتور الشعر وادى الاغاني الانجليزية خلال (امسيا روبرت بيرناس) التي اقامها نفسه انتوني سنويا للسلك الدبلوماسي العماني بشكل لا يُضاهى. وكان على انتوني لايدن كمضيف والقائم على الامسية ان يبقى وفق الاعراف في الظل، ويهتم براحة المدعوين، وكما قال - فيكتور (لمع).

واقيمت بعض حفلات الاستقبال لدينا في غرفة الضيافة بالسفارة، وعند ما يكون الطقس جيدا، اي حينما لا يكون حارا وغير ممطر، في الحديقة الصغيرة على المرج. واقيمت مرتين خلال وجودنا حفلات استقبال كبرى بمناسبة العيد الوطني 7 نوفمبر بمناسبة ثورة اكتوبر البلشفية 1917 / بحضور 200 إلى 250 ضيفا في فندق (شيراتون). لقد كانت باهضة التكاليف لموزانة السفارة، (ولكن الوضع الزمنا).

من رسائل فيكتور: 88/12/1... استقلبت على طريقة الأعزب سفراء جنوب اليمن وشمال اليمن والكويت. امضينا وقتا جيداً كرجال. ومن ثَمَّ على حدة مع سفيرالصين. ومن ثَمَّ اخذت السفيرالايطالي في جولة بحرية على زورقنا البخاري إلى الجزيرة واطعمتة هناك كذلك. ان شكل الوليمة في الخلاء تركت فينا انطباعات جيدة - يصاغ شكل جديد للعمل التمثيلي. لا يحصل الصيد في النهار - يمكن صيادة لحوض تربية الاسماك، جميلة للغاية. ولكنها اسماك غيرصالحة للاكل، يمكن اصطيادها بكميات كبيرة، ولكن بلا فائدة منها. اما مساءً فقد خرجنا مرتين وعدنا بصيد غيرسيئ - كان كافياً للعشاء. وكان آخر صيد مواتيا. وسحب فيكتور ايفانوفيتش سمكة 1,5 كلغم، وعدنا نحن الأربعة بـ13 كلغم.

من 16:30 إلى 18:00 اتجول على طول الشاطئ، احيانا العب كرة قدم مع المصريين العاملين هنا. وفي الامسيات اذهب احيانا لمشاهدة لعب فرق كرة الطائرة المحلية. اريد ان اشتري (دراجة ثابتة) ولكن ليس هناك بندا لها في موازنة السفارة، اما المحاسبة (ميخاليتش) فصارمة. انها خصمت من مستحقاتنا، وعموما كل شيء على ما يرام. الغينا الاشتراك بالدورات وبعكسه سنجد أنفسنا في وضع الخاسر، لاعبين في لعبة قمار مالية مع الدولة. وصلت اليوم على متن سفينة 180 وحدة من سيارات (نيفا) وباتت 250 تتنقل في عمان.

حفلات الاستقبال ليست كثيرة كنا توقعت. الكثيريتساءلون أين Sweet Lana (سفتلانا عقيلة السفير/م) وقد اثربي واعجبني هذا التأويل. بما في ذلك،

سألت عنك أيضاً إحدى صديقا السفير الأمريكي. واقامت كارول معرضا للوحاتها، انه رسام تشكيلي غير سيئ، تحب عُمان وترسم كثيرا بموضوعات محلية، تقيم منذ ثمان سنوات هنا. اما السفير نفسه مونتجوميري فربما سيغادر قريبا.

... انت على حق حينما تكتبين ان الخلاص في الذات. ومهما كان الأمر صعباً فاني اسعى لمسك نفسي في قبضة حديدية. المسالة الرئيسية ان يساعد - على العمل. اكتب كثيرا واترجم واقرأ مواداً حول البلد وادعوا الآخرين للقيام بذلك بالرغم من أني لم أوفق كثيرا هنا. اخاف بشكل رئيسي من الأرق، ولكن الله رحيم لحد الان. احاول ان ادرس اللغة الانجليزية ولكن القوة لا تكفي للكل. وعند المساء اشعر بالتعب.

تسري في موسكو شائعة بان بوسافاليوك منع بصرامة تناول الخمور. مضحك حتى تدفق الدموع. أو على العكس.

في نوفمبر 1988 ولدت حفيدتنا المحبوبة بولينا، وسرعان ما اقلعت لينا مع ابنتها إلى مسقط. ومن هذه اللحظة بدأت اسعد مرحلة ولو قصيرة في حياتنا العائلية! ونظرا لأن شركة طيران (الايرفلوت) لا تقوم برحلات مباشرة إلى سلطنة عُمان، كان هناك طريقتان للوصول إلى هناك: عبر عاصمة الاردن عَمان ومن هناك بالطائرة إلى مسقط. ولكن كان هناك طريق آخر ارخص وابسط من خلال الامارات (بالطائرة إلى دبي ومن هناك بالسيارة إلى مسقط). وكان صديقنا القديم فيلكس نيكولايفيتش فيدوتوف مع عقيلته جالينا جيورجيفنا سفيرا في الامارات، وكنا وفيكتورعدة مرات في ضيافته في ابو ظبي. وفي اكتوبر 1989

صادفنا عند المرسى وزرنا السفينة/المستشفى (بطرس الأول) - التي كانت مركز سفياتسلاف فيودوروف المتنقل لعلاج أمراض العيون، حيث اجرى اطباؤنا عمليات جراحية ناجحة للمرضى، باستعمال معدات حديثة حينها.

كان صيد السمك بالطبع الهواية الرئيسية في ساعات الراحة إلى جانب اللعب بكرة القدم. وقد ولع بهذا العمل الجميع، حتى إني ذهبت معهم مرتين بالقارب في عرض البحر مساء عند الغروب مباشرة قبل ان تظلم تماما. وقد نقرت السمكة بالطعم، بشكل غير طبيعي. وبلغ طول هذه الغربية حوالي 20 - 25 سنتمتراً وفي لحظة انتشالها من الماء تصدر اصواتا عالية. وقد اطلق عليها صيادونا تسمية (خنازير صغيرة) وهو ما يناسبها. وغالبا ما كان الصيد أكثر جدية، وصادف صيد مختلف انواع السمك ونادرا منها الهامور - اللذيذة التي يحبُها العمانيون. وبعد هذا الصيد الموفق يعرض فيكتور صيده بفخر. وكان سمكاً طازجا على مائدة غدائنا. وكان عند فكتور صديق لبناني ثري اسمه نازح، وهو عاشق كبير للسمك وضليع بالصيد البحري. ورافقه فيكتور عدة مرات على مركبه إلى عرض البحر، وذات مرة وصلا ليلا إلى فناء السفارة، وافرغا من صندوق السيارة سمكة تونة تزن ليس بأقل من 60 كلغم. وبعث هذا على الانشراح.

كالعادة وككل مكان التقت زوجات الدبلوماسيين في مختلف المحافل الدبلوماسية، وقمن بالاعمال الخيرية، واستقبلن واحدة بعد الأخرى، في مقراتهن المجموعة النسوية. وذات مرة كنتُ من بين الاخريات في حفل استقبال عند زوجة سفير اليمن، وها هي تقول لي: «انا افهم ان بعض البلدان لا تتيح لنفسها

امتلاك مقر لائق ». وبالطبع فانها كانت تقصدنا. وقالت هذا سيدة من اليمن الفقير - وبكوني ممثلة عن الاتحاد السوفيتي العظيم! شعرت حقا بالحيف، لقد كنا حينها فقراء حتى الابتذال. (كانت بين عُمان واليمن علاقات خاصة، تقريبا كما بين روسيا واوكرانيا، ولذلك ليس من الغريب ان تتمتع سفارة اليمن بوضع خاص).

وجاء في آذار/مارس 1990 اقتراح بنقل فكتور إلى بغداد. ومن دون شك كان من المهم بالنسبة له العمل في بلد كبير كالعراق ذي المشاكل المتراكمة، ويحتل مكانة في سياستنا الخارجية، ارفع بكثير من عُمان الصغيرة. وكان فيكتور يدرك ان بانتظاره عملا ممتعا وهاما، ولكنه لم يتصور أية أحداث ومحن سنمر بها، ووافق على النقل. انا لم اكن راغبة بأية بغداد، وشعرت بالمرارة بشأن السفر. واقمنا حفلا وداعيا، عبر فيه الكثير من الأصدقاء عن الأسف لفراقنا. وحقا ان صديقنا سفير هولندا ياكوب تنبأ ان مستقبلا لامعا ينتظر فيكتور كدبلوماسي عبقري، وينتظره في بغداد عمل ممتع وارتقاءً في السلم الوظيفي.

عودة روسيا للشرق الأوسط السلام والأمن في الشرق أهداف هل أمكن تحقيقها؟

((ترجمة آخر مقالة بالروسية لفكيتور بوسوفالوك
خلال حياته. جرى الاعتراف بها كافضل مقالة
نشرت في مجلة (الحياة الدولية) لعام 1998)).

تضمنت كلمة الرئيس بوريس يلتسين بتاريخ 12 مايو 1998 امام الدبلوماسيين الروس توجيهات للبحث عن طرق لزيادة فعالية خطوات سياستنا الخارجية. واشار الرئيس، إلى ان تحريك المشاكل الصعبة من نقطة جمودها غالبا ما يتم بفضل القواعد غير النمطية وعلى الأكثر الأشكال الجديدة لتعاون اطراف العلاقات الدولية. واشير على سبيل المثال إلى لقاء (الثلاثي) غير الرسمي بمشاركة روسيا والمانيا الغربية وفرنسا وغيرهم.

إن تركيز بوريس يلتسين على ضرورة تحضير خطوات سياسية جديدة بهدف التغلب على المشاكل الدولية المزمنة، تدعونا للتمعن بالوضع في منطقة محددة، حيث تكون الدبلوماسية الروسية نشطة. وبالنسبة لحالة النزاع العربي الإسرائيلي، يلوح طرح القضية بهذا الشكل ملحا للغاية وعادلا.

إن المواجهة المتواصلة على مدى سنوات طويلة بين العرب واليهود، بين الدول العربية وإسرائيل، مضافا لها الشهادة على المشاركة غير البناءة لدول العالم في أحداث الشرق الأوسط، تمنح أسبابا غير قليلة لتوجيه اللوم للجهود غير المثمرة نسبيا الرامية لتسوية النزاع في المنطقة. وبجوهر الأمر، تشكلت حلقة مغلقة يتحرك بها المشاركون في الجدل، المقتنعون بصحة موقفهم المبدأي وإقناع الآخرين به، وبوجود اسس للقلق والمخاوف، ولكن في الوقت نفسه يستديرون للقاء بعضهم الآخر بلا رغبة.

وبنهاية الحرب الباردة جرى نزع الفتيلة الرئيسة من قبو بارود الشرق الأوسط - والمتمثلة بالمواجهة بين الدولتين العظيمتين. ولم يعد وجود لهذه الظاهرة. بيد ان النزاع الشرق أوسطي كما قال وزير الخارجية يفجيني بريماكوف في كلمته امام الدورة 52 للجمعية العامة للامم المتحدة، اكتسب (طابع التلقائية) و(التطور التلقائي)، وهذه الحقيقة لا تقلص من تهديده للأمن الدولي. ونضيف بشكل عابر، ان التلقائية لا تناسب البعض - وتؤثر عادة ترجيح الالتجاء إلى وساطة طرف ما على طرح المبادرات الخاصة، التي تتطلب ارادة سياسية وشجاعة.

على مدى تاريخ النزاع العربي - الإسرائيلي بُذلت مرات عديدة جهود دولية مدعوة من حيث فكرتها، لإزالة عائق العداوة بين إسرائيل وجيرانها العرب. وحتى قرار الامم المتحدة رقم 181 المعروف حول تقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية المؤرخ 29 نوفمبر 1949، جرى تبنيه بهدف حل الخلافات

العربية - اليهودية التي نشأت في ارض فلسطين في الأعوام 1920 - 40. ولكن يبدو اليوم ان من التبسيط تأويل المشكلة الفلسطينية كقضية تتعلق بشكل رئيسي (بمجال العلاقات الإنسانية والحقوق السياسية) اما تسويتها - فعن طريق: «تقييم صحيح للوضع العام والسعي نحو الحل الإنساني لهذه القضية». كما جاء في تقرير اللجنة الخاصة بفلسطين المقدم للجمعية العمومية في سبتمبر 1947. والان يبدو بوضوح ذلك التطور السياسي الذي جرى في الشرق الأوسط، وتحول إلى منطقة تاكلها الانبثاثات السرطانية للنزاع المزمن.

وبالرغم من الجهود الجدية، التي اهدرت حينها على خطة فك الارتباط العربي - الإسرائيلي (وبالطبع مصالحة الشعبين في المستقبل)، إلاّ أن النتائج كانت حزينة. لماذا؟ بالطبع لأنه لم تؤخذ بنظر الاعتبار مكونات الوضع الاقليمي في الشرق الأوسط المترتبة في ذلك الوقت. فبعد ان رفضت بعض الدولة العربية القبول بفكرة تقسيم فلسطين، اصبحت قرارات اعتماد القوة، تحدد خريطة الشرق الأوسط.

ومن المؤسف ان ما جُرب مرة واحدة لم يعد مستحيلا... ان الرهان على عامل القوة تفوق في أعوام 1956 وفي 1967 وأيضاً في 1973. وليس من مهامنا البحث عن المحقين والمتهمين في الأحداث التاريخية وفق السيناريو المعروف. وبالمناسبة كرست لهذا مئات الكتب والمذكرات والبحوث العلمية التي عبر مؤلفوها عن وجهات نظر متناقضة بشكل سافر. ولكن من المهم الالتفات إلى ان الهدير العام لسياسة القوة اغرقت باكورة الحل الوسط والحل السلمي.

لقد كانت اتفاقية كمب - ديفيد عام 1978 نتيجة لزيارة رئيس جمهورية مصر العربية انور السادات للقدس في تشرين ثاني /نوفمبر 1977. وكانت يمكن ان تكون المَعْلَمُ الذي يظهر بعده آلية مباحثات سلام افضل بجلاء من التسوية القائمة على القوة. اضافة لذلك لقد تم جزئيا البرهان على ذلك ان عقدين من السلام الثابت بين مصر وإسرائيل بالرغم من كونه باردا ذات تساوي كثيرا.

ومع ذلك فلم تحصل حركة شاملة نحو السلام، وهذا ما ينبني التأكيد عليه. وسنترك للمؤرخين تحليل كل ما (مع) و(ضد) اتفاقية كمب ديفيد. ومن الواضح ان هناك اليوم الكثير من المقتنعين المتمسكين بتفسير كمب ديفيد على أنها صفقة انعزالية على حساب القضية العربية المشتركة ووضعت صليبا على كفاح الشعب الفلسطيني من أجل الاستقلال واقامة دولته.

إن المسالة المهمة بالنسبة لنا الآن تكمن في شيء آخر - أين اخطأ واضعو كمب ديفيد بالحساب، حينما عرضوا (اطرهم للسلام في الشرق الأوسط)؟ الاطر التي لم تشحن بالمضمون الواقعي؟ ان السبب يلوح في محاولة حل القضية على حساب طرف ما (في هذه الحالة الفلسطينيين) ومن دون حساب راي صف مجموعة رصينة من الاطراف المشاركة في النزاع (ويمكن اضافة للفسطينين هنا البلدان العربية الأخرى والاتحاد السوفيتي).

وبعبارة أخرى، لقد تم في كامب ديفيد تجاهل الوقائع السياسية ولو انها محدودة، ولكن امكانيات بناء مرحلة السبعينيات. وبالنتيجة فان جوز الشرق الأوسط بقي غير مكسور، بالرغم من ظهور شرخ عليه.

إن تغيير الوضع السياسي في العالم وفي الشرق الأوسط اتاحت الانتقال من مخطط كمب ديفيد بعد 15 سنة إلى بداية عملية سلمية واقعية فلسطينية - إسرائيلية والتوصل إلى اتفاق سلام بين إسرائيل والاردن. وبرهنت آلية المباحثات من جديد تفوقها على عامل القوة. ومن جديد انتقل محفز لقرار جديد وتاريخي - الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.

هل كان بوسع مصير العلاقات الإسرائيلية - الفلسطينية بما في ذلك اتفاق أوسلو 1993 والاتفاقية المؤقتة 1995 ان تكون شبيهاً لما كان من نصيب كمب ديفيد (اطر للسلام في الشرق الأوسط)؟ على الأرجح كلا. ان الخلاف الايجابي يكمن بما في ذلك في المصاحبة الدولية الايجابية التي لا تقارن بقوتها، التي نالتها المصالحة الفلسطينية - والحوار الإسرائيلي مع منظمة التحرير الفلسطيني.

إن هذه المصاحبة تستمر ليومنا هذا والمتمثلة بآلية الرعاية الروسية/ الأمريكية التي أُطلقت في مؤتمر مدريد في 1991 وبدور المجتمع الدولي المكثف لدعم عملية المباحثات والمشاركة الاقتصادية والمالية الفعلية للكثير من الدول لمساعدة الفلسطينيين واستعدادها للمساعدة على دعم تعاون اقليمي واسع.

ومع ذلك فان عملية السلام لم تكتسب طابع اللاعودة، على الرغم من أننا كدنا نؤمن بعدم رجوعه للوراء. لقد ظهر ان المصاحبة الدولية غير كافية لذلك. والأسوأ من ذلك ظهرت مؤشرات فشل في العملية السلمية. والسبب ليس بجديد - وكالسابق عدم اخذ مواقف واراء المشاركين في التسوية الشرق أوسطية بشكل كافٍ وبصورة متبادلة بشكل كافٍ وبصورة متبادلة. ولاح ان مؤتمر مدريد

المشار إليه اعلاه جذب كافة الاطراف المعنية في عملية المباحثات. ولكنه في الوقت الذي حدد فيه شكل المباحثات، لم يكن بمقدوره ولأسباب عديدة منحها مضمونا جديدا، كما يتطلب مبدأ السلام الشامل.

ولا يجوز ان نسقط من الحسابات دور قيادات في تحريك (أو تعطيل) القرارات المسؤولة، ان هذا الجانب واضح وينطوي على أهمية كبيرة في قضايا الشرق الأوسط. وبوسعنا ان نخمن كيف كان سيلوح اليوم الوضع في الشرق الأوسط، لو أن انور السادات لم يزر القدس وان اسحاق رابين وشيمون بيرس لم يعيدا النظر بوجهة النظر الإسرائيلية في العلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية. وواضح اليوم كيف يجري مسخ وتشويه عملية السلام الشرق أوسطية نتيجة تغير نظرية المباحثات في إسرائيل.

ومع اخذ ما اشير إليه اعلاه بنظر الاعتبار، ينبغي طرح السؤال الرئيسي: هل ثمة امكانية لتبنى في ظل الحالة القائمة للتسوية في الشرق الأوسط قرار مبتكرا مبدعا يتصف بطابع اختراقي،؟ وعلى من يعتمد هذا النوع من القرارات، بالدرجة الأولى؟

ويُخيل ان احتمال تحقيق سلام شامل للتسوية في الشرق الأوسط يعود إلى مجموعة من الخطوات السياسية المحدودة في مجالات محددة.

إن الانفراج الأول والرئيسي ينبغي أن يكون في مثلث: «الارض - الأمن - السلام». ان كل طرف من الاطراف المتنافسة تحاول استدارة

هذا المثلث بحيث توجد في رأسه القضية التي تعنيها، وإذا ما ترتبت الصورة لدى العرب، بشكل أو بآخر، بصورة منطقية، فيلوح ان إسرائيل تحاول ان تجمع في نقطة واحدة فورا رأسين - الامن والسلام. بالرغم من أنه، ونقولها بصراحة، وعند توفر ارادة سياسية واضحة ونزيهة هادفة نحو قرار عادل ونهائي فان هذا النوع الخاص من تدوير (مكعب - روبيك) ربما سيبدو ممارسة كلامية.

إذا سألت القيادة الإسرائيلية الحالية، هل انهم مستعدون - في ظل (لو) كثيرة - الخروج من الاراضي العربية التي احتلتها إسرائيل بعد حرب عام 1967، فلن تجد جوابا صريحا. ويبدأ الحديث عن موضوع هذه الـ (لو)، المتعلقة بفئة (السلام) و(الأمن). بالطبع هذا افضل من (لا) القطعية. وكما اكد يفجيني بريماكوف، لا ينبغي الاستهانة بهذا الاسلوب. ولكن بما يحصل في واقع الأمر؟

إن إسرائيل مضطرة (عند رأسين في نقطة واحدة) ان تحدد أولويتها بأمنها الخاص، وعلى ما يبدو من سيكون له الحق منعها من ذلك، إذا اخذنا بالحسبان الخبرة التاريخية والنظرة الحالية لإسرائيل في العالم العربي؟ ويكمن جوهر المسالة في ان بنيامين نتنياهو وحكومته لن يثقوا ولا بمثقال ذرة باية وعود ولا باية ضمانات أو تعهدات ولا بتواقيع. وهم كما يبدو حتى لا ينظرون لها كعامل في السياسية. ان المسالة الرئيسية لعرقلة السلام في تحقيق السلام - كما كتب رئيس وزراء إسرائيل - هو عناد العرب بعدم الاعتراف بحق إسرائيل بالوجود (نتنياهو (مكان تحت الشمس) 1991، ص501).

وإذا كان الأمر كذلك، فان على إسرائيل وكالسابق الاعتماد فقط على نفسها على قوتها على جيشها وعلى سياسة محنكة تُملي على المنطقة كيف عليها ان تكون. ومن المستحيل البرهنة لإسرائيل الحالية ان العرب مستعدين للسلام.

إن الكثيرين يعتقدون انه وعلى الرغم من التغيرات التي طرأت في العالم وفي الشرق الأوسط، ووجود بنية تحتية متشعبة لعملية السلام وامكانية تطويرها بما يتفق ومبادئ مدريد، فان إسرائيل من حيث الجوهر تُبشر (بما قبل مرحلة مدريد)، حينما هيمنت حجج استعمال القوة في السياسة.

علاوة على ذلك ان تصرف إسرائيل ليست دعاية فارغة ولا عقائدية خالصة. ان عدم الثقة باستعداد العرب للسلام مع إسرائيل يظهر في تطبيقات سلوك حكومتها. ومن الناحية العملية تم نسيان مخطط اعادة مرابطة الجيش الإسرائيلي في الضفة الغربية التي تقضي بها الاتفاقية المؤقتة لعام 1995 (والجدل على 9 و13 بالمائة من الاراضي التي يمكن منحها للفلسطينيين لم يغير الجوهر). والتشكي من القيادة الفلسطينية لعدم كفاية الخطوات والتدابير التي تتخذها ضد الارهاب، وان عجزها عن السيطرة على الوضع في المناطق التي تديريها اكتسب طابعا مزمنا.

لقد حددت إسرائيل أين يجري (الخط الاحمر) في اطار التسوية النهاية مع الفلسطينيين. انها ستكون كبيرة فيما يتعلق بـ (خطوط الأمن) أو (المناطق العازلة) وصفة العاصمة لمدينة القدس وعدم عودة اللاجئين الفلسطينيين

وعدم إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة والبقاء على المستوطنات والرقابة الواسعة على مصادر المياه والبنى التحتية للضفة الغربية،... إلخ.

ويتسم مسار المباحثات الإسرائيلية - السورية بحالة مشابهة لهذا الوضع. والموضوعة الرئيسية في موقف إسرائيل بشان مرتفعات الجولان تنحصر، بانه لم يكن ولا توجد أية التزامات من جانب إسرائيل. وهذا بحد ذاته نمط من انماط (الخطوط الحمراء). وتؤكد إسرائيل ان ما جرى الحديث عنه سابقا في المباحثات يستحق الاهتمام، ولكن ليس أكثر من ذلك. وما دام الأمر على هذا الشكل فان الكلام عن الخروج من هضبة الجولان ينبغي ان يكون نتيجة لكيف يعالج الاسرائيليون مع السوريين، في لغز ماكر، عن من الأول - الارض أم السلام أم الأمن.

وقامت إسرائيل مؤخرا بحركة على المسار اللبناني - حيث تقدمت بمبادرة بخصوص قرار مجلس الأمن 425. ولاح ان القيادة الإسرائيلية وافقت على فهم الامن كنتيجة للسلام، واعلنت الاستعداد عن سحب القوات من جنوب لبنان وينطلق من تلك الخطوة تنسيق تدابير ضمان الامن. وظهر في واقع الأمر ان المبادرة نصت على شرط يخرج عن نطاق المشاكل التي حددها القرار 425 بانسحاب القوات الإسرائيلية وطرحت فكرة اجراء مباحثات إسرائيلية/لبنانية حول قضية تدخل حصرا في صلاحيات السلطات اللبنانية. وجرى من جديد تقديم عامل الأمن في المكان الأول، عندما قررت ان تناقش مع السلطات اللبنانية كيف ستقوم بنزع سلاح حزب الله وما ستفعل (بجيش الجنوب). وما عدا ذلك تم

عمليا تجاهل الواقع الذي ترتب على مدى السنوات الاخيرة على هيئة العلاقات المتبادلة بين مسارات المباحثات السورية واللبنانية.

وما يجب ان يكون من كل ذلك؟ كما يُخيل ان مسار المباحثات بأسره يمر في حالة ازمة عميقة. ومن الناحية الواقعية ان هناك ليس فقط تباطؤ حاد لعملية السلام ولكن على العموم تدهور وضع التسوية العربية - الإسرائيلية. وفي ظل هذا الوضع يبدو ان الوقت مناسب للغاية لطرح قضية امكانية الخطوات المبتكرة والقرارات بصدد المباحثات الشرق أوسطية.

بالطبع يمكن المضي بخطوات صغيرة، والتظاهر بها، على الأغلب. بالمحافظة على العملية السلمية. ويمكن عقد الآمال على إخلاص المجتمع الدولي لهذه العملية في ظل الظروف الدولية المتغيرة والتمكن من الحفاظ على الوضع الراهن. والحيلولة دون نشوء محتمل للاستياء عند العرب. ولا يستبعد ان ترغم الحياة الشركاء العرب على تبني الشروط الإسرائيلية... لا سيَّما وان الوقت لم يعد بعيدا لتغيير الزعماء في العالم العربي، وحتى ذلك الوقت، من السابق لأوانه تقديم التنازلات.

ويُخيل ان هذه السياسة لن تعود بالارباح على واضعيها، ولا للسلام ولا لأمن بلدان وشعوب الشرق الأوسط. فالمنطقة نضجت فعلا لقرارات سلام كبرى - وقد اظهر مؤتمر مدريد هذا بوضوح، ويستدعي الاسف الصادق، ان الأحداث تتطور وفق سيناريو آخر. علاوة على أن السيناريوهات التي اشير لها اعلاه لا تصب في منفعة العرب، وهي فقط إحدى فرضيات الاتجاهات التي يتقدم

بها الشرق الأوسط (المضطرب) الذي لا يمكن التنبؤ به. ان التطورات تجري في مكان بعيد حقا، ولكن يتوجب علينا هنا ان نكون مستعدين لكافة الاحتمالات.

وسيكون من المثمر لو ان إسرائيل فكرت بعودة المباحثات مع الفلسطينيين إلى روح ونص الاتفاقية المؤقتة لعام 1995 وبالدرجة الأولى ما يتعلق بمقاييس اعادة انتشار الجيش. لو تم النظر بطريقة أخرى إلى مقاطع من موقفها بشان التسوية النهائية (القدس، المستوطنات...) الذي يخيل لها اليوم انه ذو اساس ثابت لا يتغير. ثمة في هذا وفي ذاك وفي ثالث فضاء غير عادي للا بداع السياسي ولقرارات ابتكارية. ينبغي فقط رؤية الهدف بدقة. ان روسيا مستعدة ان تلعب دورا مكثفا كراعي للتسوية من اجل تحقيقها. لا ينبغي على حساب روسيا أن تضيق دائرة من يسعى إلى المساعدة ليس على قطع وانما على فك (عقدة غورديه) المعقدة. ولدى موسكو بهذا الشأن مكانة في المنطقة ومعرفة بها ولديها فريق جيد من خبراء الشرق الأوسط.

وينبغي ان لا ننسى ان روسيا المعنية باحلال سلام ثابت في الشرق الأوسط، تحركها بقوة عالية الرغبة بتوسيع أكثر للعلاقات التي تتطور بنجاح مع إسرائيل، مثلما مع بلدان المنطقة، وتعبر عن هذه التمنيات دول كثيرة بما في ذلك إسرائيل وحكومتها.

ومن المناسب ان نعيد للاذهان ان دور روسيا كأحد رعاة للسلام يتمتع بوزن كامل، بحكم ان نظام علاقات روسيا السياسية الخارجية في الشرق الأوسط اليوم متوازنة وشاملة، بخلاف أعوام السبعينيات والثمانينيات للقرن العشرين،

حينما كانت سياسة الاتحاد السوفيتي ولأسباب معروفة للجميع متوجهة فقط نحو البلدان العربية. وعلى الرغم من أن (العمر الجديد) للعلاقات الدبلوماسية لبلدنا مع إسرائيل غير طويل نسبيا، حيث ستبلغ في خريف 1998 سبع سنوات وهي ديناميكية وتتطور بنجاح باهر. وخلال عدة سنوات بلغ حجم التبادل التجاري مستوى جيد، ويهدف الطرفان إلى مضاعفة مؤشراته العينية في السنوات القريبة القادمة. وتناقش روسيا وإسرائيل في الوقت الحالي المشاريع التي لاحت في الماضي القريب غير ممكنة - من الدراسات في مجال الفضاء الكوني إلى تطوير منتوجات الصناعات الأكثر حداثة إلى خطط المشاركة الروسية في بناء مترو في تل ابيب والتعاون في مكافحة منظمات الجريمة المنظمة.

في ضوء ما تقدم، وإذا فكرنا بترو، فليس هناك ما يدعو للدهشة. ان العلاقات الروسية - الاسرائلية فريدة من نوعها، فثمة حوالي مليون شخص منها ومن غيرها من بلدان رابطة البلدان المستقلة يعيشون في إسرائيل. وهذا يبني جسرا يربط بلدينا بالاف الخيوط البشرية. ان هذا الاحتياطي يعتبر من الناحية الموضوعية مصدراً غنياً لتطوير حجم التبادلات، فضلا عن ذلك فانه وبعد التخلص من الموروث السياسي والايديولوجي للسنين الماضية، فان هذا المصدر يمتلك كافة الحظوظ ليدق بقوة جديدة. وعلى هذا النحو فأوضح مثال على ذلك ان من يطلقون عليهم بالاسرائليين الروس، يطرحون محفزات ومبادارات ملموسة لتطوير التعاون بيننا. وحتى عندما تمر روسيا بصعوبات مالية شديدة. ان هؤلاء الأشخاص يدعون رجال الاعمال الإسرائيليين إلى عدم مغادرة السوق الروسية ويناقشون باهتمام ويضعون آلية لدعم تنفيذ المشاريع الثنائية.

إن وقتا قليلا يبقى للحدث الهام - فإلى جانب بداية الالف الثالثة سيحتفل ملايين الناس بمرور 2000 عاما على ميلاد المسيح. وبالطبع فان الاحتفالات ذات الصلة بذلك ستجري في فلسطين وإسرائيل. وسيتوجه إلى هناك عدد غفير من الضيوف بما في ذلك من روسيا. نريد ان نصدق ان الاحتفالات القادمة في الارض التي تعتبر مقدسة للاديان التوحيدية الثلاثة، ستخدم قضية التطوير اللاحق للعلاقات سواء الروسية - الإسرائيلية أو الروسية - الفلسطينية. والتقدم نحو الفهم المتبادل بين شعوب الشرق الأوسط، وهذا يعني - نحو السلام في هذه المنطقة اللامستقرة، ونحو تعزيز الاستقرار والامن الدولي.

خيار السلام

انباء موسكو، 12 – 1996/11/19

العدد 78

ما ذا سيحل بإسرائيل بعد مقتل رئيس الوزراء اسحاق رابين المأساوي؟ وهل سيؤدي إلى فرملة أو نسف عملية السلام في الشرق الأوسط؟ ويضطر الإسرائيليون نفسم الكلام عن الانقسام العميق في المجتمع، الذي يحاول من دون جدوى الوصول إلى اتفاق حول كيفية اقامة العلاقات بالجيران العرب. ان وفاة رابين سيوحد المجتمع لفترة ما. ولكن القوى التي تقف في تقاطع المصابيح الكاشفة، والتي تتحدى عملية السلام، لن تلقي السلاح بعد ان تخفت الانفعالات، وستستمر بمحاولات نفسها.

ومن اجل رقع الثغرة الواسعة، التي نشأت بعد اغتيال رابين سيتعين على شيمون بيرس، على أكثر الاحتمالات، وضع الرهان على الساسة من الصف الثاني، ومن المعروف ان تغيير الخيول عند منتصف الطريق ينطوي علىَ مجازفة كبيرة. وفي الحقيقة ينبغي القول ان الصف الثاني من القادة الاسرائليين يتكون من شباب ولكنهم ساسة مقاتلين اقوياء. ان روسيا وكما قال رئيس الوزراء

فيكتور تشيرنوميردين خلال مراسم الحداد تثق بقدرة شيمون بيرس وحكومته على الالتزام باستمرار النهج الرامي لتحقيق سلام طويل الاجل وثابت مع العرب.

إن المشكلة الرئيسية التي سيتعين على الحكومة الإسرائيلية بشكلها الجديد، تتمثل باستمرارية العملية السلمية عشية الانتخابات، وفي ظل ظروف يمكن ان تثير فيها أية خطوة ردود فعل متناقضة جدا بالمجتمع، وتؤثر على نتائج التصويت. فعلى جدول اعمال اليوم، وكما اصبح الان مفهوما، تقف قضية تطبيع العلاقات بين سوريا وإسرائيل، القضية الأكثر تعقيدا، والتي يتطلب من قياداتهما، إذا اخذنا بنظر الاعتبار الوضع السياسي الداخلي في كلا البلدين، شجاعة غير قليلة. اضافة لذلك ان اشراك سوريا في مباحثات مكثفة قضية هامة من الدرجة الأولى. وليس فقط لأن من دون مشاركتها لا يمكن اعتبار السلام في الشرق الأوسط ثابتا، ولكن لأنه من دونها لا يمكن تنفيذ أحد المشاريع التجارية الاقتصادية الكبرى في المنطقة - المتمثل بمد طريق تركيا - المغرب. ومع ذلك فان التقدم في المباحثات بين إسرائيل وسوريا كما يبدو غير بعيدة الافق. وانا كشخص اكاد يوميا اتعاطى مع ممثلي الطرفين، بوسعي ان اعلن بمسؤولية تامة: ان في دمشق وفي تل ابيب وضع الخيار لصالح السلام.

إن إسرائيل وأكثر من اي وقت مضى، بحاجة إلى دعم حيوي من قبل رُعاة التسوية السلمية، ونحن من جانبنا عازمين على المساعدة لتحقيق التفاهم بينها وبين شركائها العرب. بالطبع ليس بوسع أحد ارغام الرئيس حافظ الاسد وبنفس

القدر شميون بيرس، على القيام بفعل ما، ضد ارادتهما. ولكن يمكن استثمار العلاقات المبنية على الثقة، لإقناعهما بالقبول بهذا أو ذاك من الحلول الوسط.

من دون شك، اننا فقدنا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بعض عتلات التاثير على المشرق العربي (صادرات الأسلحة من دون مقابل، القروض بالكثير من المليارات). ولكن في الوقت نفسه تمت المحافظة على العلاقات الودية التقليدية، وتعززت في بعض المجالات. عندما عملت في السفارة السوفيتية بدمشق قبل سنوات طويلة، قمنا باستقبال ومرافقة مجموعة من الحجاج، لا تزيد على 25 شخصا في العام. واعداد الحجاج وحدهم الذين يصلون للشرق الأوسط من روسيا لزيارة الاماكن المقدسة، تصل إلى عشرات الآلآف.

وفي غضون السنوات الـ 3 - 4 الاخيرة ارتفع عاليا مستوى علاقاتنا التجارية - الاقتصادية مع منطقة الشرق الأوسط، بالرغم من أن المشاكل في هذا المجال أكثر ممّا تم تحقيقه. ان سياسة روسيا الخارجية بحاجة ماسة للتعزيزات التجارية - الاقتصادية. فمن دون نشاطنا السياسي الخارجي في المنطقة ستبدو علاقاتنا التجارية - الاقتصادية بعد عدة سنوات غيرطبيعية، أوأقول اصطناعية وبخاصة على خلفية الاستثمارات الغربية الضخمة.

وتجدر الاشارة إلى ان الغرب يتحرك في الشرق الأوسط في آن واحد كشريك وكمنافس لنا. ان روسيا والولايات المتحدة وبلدان أوروبا الغربية معنية على قدر واحد بتطوير عملية السلام وفي اجتثاث نهج السياسة المتطرفة والتعصب القومي والديني وغيره. في الوقت نفسه تتصادم المصالح في المنطقة، ولا يعجب

الغرب تنامي النفوذ الروسي السياسي ولا سيِّما في دول الخليج العربية. مع ذلك يتعين علينا العثور على لغة مشتركة مع الغرب، وتقسيم مجالات النفوذ وحتى في مجال السلاح الحساس. اننا لن نخرج من الشرق الأوسط.

إنني لا اريد ان اصور المرتجي على أنه الواقع، إذا قلت ان كافة بلدان الشرق الأوسط بما في ذلك إسرائيل تصرح بكونها معنية بان تتغلب روسيا وباسرع وقت على كل متاعبها وتخرج من خطوط الصعوبات السياسية وتصحح الشؤون الاقتصادية وان تظهر كشريك كامل الحقوق للشركاء الغربيين. ليس كنقيض، في حالة مواجهة معهم، وانما كدولة عظمى، بوسعها انتهاج خطها الذي قد يتعارض مع الأمريكي. واعلن عن ذلك في المحادثات معنا كبار مسؤولي الدول في صوت واحد، مؤكدين ان لا احد بحاجة إلى عالم احادي القطب.

مصالح روسيا في العالم العربي

يحتل الشرق الأوسط مكانة هامة في منظومة أولويات السياسة الخارجية الروسية. وحدد ذلك في سياق موقع الشرق الأوسط الجغرافي والجيو/سياسي في العالم واهتمام روسيا بالمحافظة على موقعها في هذه المنطقة.

في الوقت الذي يعد الشرق الأوسط المصدر الرئيسي لتوفير الوقود - الطاقة للدول النافذة في العالم والعقدة الهامة لتقاطع طرق الاتصالات الدولية. فإنه يتيح للدول التي تمتلك فيه مواقع محددة ونفوذ، التاثير على الكثير من العمليات البعيدة عن حدودها. وللمقارنة نشير ان النفط العربي في العالم المعاصر - يكون حوالي 60% من اجمالي احتياطات العالم النفطية، في الوقت الذي تبلغ حصة بلدان رابطة الدول المستقلة من 6 إلى 10% من اجمالي الاحتياطيات العالمية، وتعود لروسيا 85% من احتياطات الاتحاد السوفيتي.

إن انهيار الاتحاد السوفيتي والمرحلة الانتقالية التي مرت بها روسيا تقضي بإعادة النظر في المصالح الروسية الشرق أوسطية وترشيدها بما يتناسب والوقائع والنزعات للتطور العالمي. ويُخيل ان من الملائم استعمال مفاهيم مثل مصالح طويلة الأجل ومصالح روسيا الحالية في الشرق الأوسط. في نفس الوقت

تكتسب الأولى طابعا موضوعيا، مشروطاً بفهم دور ووضع روسيا كدولة يفرو/ اسيوية كبرى، اما الثاني فيتشكل بتاثير التصورات الذاتية والظرفية التي تمليها صعوبات المرحلة المعاصرة لتشكيل روسيا الديمقراطية الجديدة، التي تعتبر في الوقت نفسه وريثاً شرعياً للاتحاد السوفيتي مع كل ما يترتب على ذلك.

ويمكن ان يعزى إلى فئة المصالح الروسية طويلة الاجل الحفاظ على الاستقرار الاستراتيجي في المنطقة واقامة ظروف مناسبة لتطوير افضل أشكال التعاون مع بلدان المنطقة على اساس ثنائي ومتعدد الاطراف. وهذا يتطلب الاستعمال الفعال لنفوذنا لحل ناجح لقضية استراتيجية مثل توفير تقارب مسلمي بلدان رابطة الدول المستقلة بطريقه سهله وانسيابية مع دول العالم الاسلامي، التي بإمكانه ان يجنب وقوع عمليات زعزعة استقرار كبرى تمس مباشرة مصالح أمن روسيا الاتحادية الوطني.

المهمة الأخرى طويلة الاجل الناجمة عن وضع روسيا كدولة كبرى، هي وظيفة أحد ضامني النظام العالمي المتحضر، القائم على قواعد المسؤولية الجماعية للمجتمع الدولي في سبيل الامن الدولي. وبهذا الصدد فان دور روسيا كراعي للتسوية الشرق أوسطية، يتيح ايجاد امكانية طويلة الأجل للتأثيرعلى العمليات الحادة في الشرقين الادنى والأوسط وتفادي احتمالات الاخطار ذات الطابع الاقليمي.

واخيرا ان روسيا كوريث للاتحاد السوفيتي معنية في القيام بدور تنسيقي في اطار رابطة الدول المستقلة على مسار الشرق الأوسط، وهذا طبيعي، ولكن

في بعض الحالات ان مساعي تاكيد الذات لبعض بلدان رابطة الدول المستقلة يمكن ان تضعف إلى حد ما موقع روسيا التقليدي في هذه المنطقة.

إن طيف المصالح الحالية لسياسة روسيا الشرق أوسطية يتشكل في ظل ظروف مرحلة تغيرات جذرية معقدة تجري في الاتحاد السوفيتي السابق وذات ديناميكية تطور متناقضة ومتضاربة. وفي الوقت نفسه فان روسيا وغيرها من دول الكومنولث اصبحت أكثر عرضة لتأثيرات الاوضاع المتناقضة والمتأزمة ذات الاصل الشرق أوسطى.

ومن المهام الملحة الآنية لسياسة روسيا الشرق الأوسطية هي ضمان وحدة اراضي روسيا الاتحادية، ومنع واحتواء تطور النزعات الاسلامية المتطرفة في بعض المناطق الروسية ودول الكومنولث، وحماية مصالح مواطني روسيا، بما في ذلك خارج روسيا، وتوفير ظروف ملائمة لتنفيذ اصلاحات كبرى في المجالات الاقتصادية والسياسية. وتعتمد روسيا في التصدي للتطرف الاسلامي على التعاون المتبادل مع مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية ودول الخليج العربية، التي تتيح مكانتها ونفوذها في العالم الاسلامي تخفيف خطر السلفية الاسلامية بروح المسؤولية الجماعية من اجل السلام الدولي، والمساعدة على تعزيز النزعات المعتدلة للاسلام المتنور في جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق.

إن روسيا معنية بازدهار وتطور متناسق لكافة ابناء الـ 120 شعب وقومية التي تسكنها، حيث يشكل المسلمون ثلثهم اي حوالي 40 عرق أو 12 مليون شخص. في الوقت نفسه ان روسيا الموحدة والمستقرة تعتبر شريكاً موضوعياً

وتاريخياً للعالم العربي. ان هذا الموقف يقضي بتطوير خطوط جديدة للتفاعلات الروسية - العربية التي تتيح بنجاح حل مهمة ضمان الامن المشتركة، وبالذات:

- وضع نهج وآلية تعاون موحدة في مكافحة التطرف والانفصالية والارهاب وتجارة المخدرات، التي تشكل تهديدا خطرا على الاستقرار الداخلي والامن سواء على روسيا أو على اغلبية بلدان الشرق الأوسط وعلى الوضع في المنطقة باسرها. وعلى سبيل المثال ففي لبنان وحده تقدر ارباح المتجارة بالمخدرات بعدة مليارات.

- ان روسيا مستعدة لعقد وتوسيع اتفاقية في مجال الامن لمحاربة هذه الظواهر على اساس ثنائي ومتعدد الاطراف، وتلفت على وجه الخصوص إلى قطع الطريق على تنقل الأسلحة والمرتزقة من بؤر نزاعات إلى أخرى، وبذل الجهود المشتركة لتطويق النزاعات. وفي الوقت نفسه ينبغي الاخذ بالحسبان بان عدم تسوية النزاع في غضون سنتين أو ثلاث يؤدي كقاعدة إلى نشوء فراغ أمني، وظهور أوضاع محتدمة.

- التعاون في قضايا ضمان حقوق الاقليات القومية والدينية (هناك حوالي 400 مليون، أو ثلث اجمالي عدد المسلمين يندرجون في هذه الفئة) وفي الوقت نفسه التصدي للنزعات الانفصالية السافرة، والمظاهر التي تزعزع الاستقرار. (ثمة في العالم حوالي 3 آلاف شعب، ولكن منها 180 دولة فقط اي نصف بالمائة، ذات قومية واحدة).

ونظرا للازمة الاقتصادية الشديدة، التي تمر بها روسيا، تكتسب قضية حل مشكلة الديون المترتبة على بعض البلدان العربية أهمية سياسية ملحة. وينبغي

ان يكون الحل على اساس المنفعة المتبادلة التي تتجاوب ومصالح التعاون اللاحق. وينبغي ان يكون نهجا طويل الاجل وليس آني، يقوم على قاعدة القانون الدولي، ويأخذ بالاعتبار سياق وخصوصية العلاقات الثنائية في الماضي وفي الحاضر.

إن روسيا معنية بجد في (تحويل) جدي للعلاقات الاقتصادية مع بلدان الشرق الأوسط، ولكن التعاون العسكري - الفني والعسكري - الاقتصادي ينطوي على قدرات كبيرة ذات منفعة متبادلة ويمكن ان توظف بعض الدول العربية في المستقبل الاستثمارات لتنفيذ مشاريع لتطوير نماذج مهمة من التكنولوجيات العسكرية.

وتجدر الاشارة بهذا الصدد ان روسيا الجديدة وبعدما تحررت من الدوافع ذات الطابع الايديلوجي ونهج المواجهة في مجال التعاون العسكري - الفني مع البلدان العربية، راحت تسعى إلى الانطلاق من الاتفاقيات الدولية والتفاهمات في هذا المجال. بيد ان هذا لا يعني ان روسيا تغادر سوق الأسلحة العربي. نحن نفضل الشراكة واحترام مصالح المصدرين الآخرين للتكنلوجيات العسكرية، ونضع في الحساب نهجا مماثلا لهم.

في ظل الظروف المعاصرة، وربما لاجل طويل، سيغدو أحد اهم مهام الدبلوماسية الروسية الضمانة السياسية/القانونية لاقامة اجواء مناسبة لتطوير قنوات القطاع الخاص للتعاون مع بلدان الشرق الأوسط، فضلا عن توفير المعلومات عن قدرات المستثمرين العرب المحتملين.

المساعدة السياسية على انتقال إسرائيل والبلدان العربية تدريجيا نحو علاقات الشراكة الاقتصادية. فعلى سبيل المثال ان المقاطعة العربية التي تربو على 40 عاما كلفت الاقتصاد الإسرائيلي وفقا لبعض التقديرات 45 مليار دولار. في الوقت نفسه تزيد نفقات بلدان الشرق الأوسط سنويا على الأسلحة 60 مليار دولار، والتي تنتهي صلاحياتها من دون معنى.

إن اية خطوات للدبلوماسية الروسية في الشرق الأوسط غير ممكنة من دون اخذ المصالح الأمريكية بعين الاعتبار، بيد ان هذا ينبغي ان يعني كذلك اعتراف الولايات المتحدة بمصالح روسيا الخاصة في هذه المنطقة. وسيكون هذا مهماً على وجه الخصوص في حال احتمال تغيرات في الإدارة الأمريكية لصالح إسرائيل. وبالنتيجة باحتمال زيادة اهتمام العرب في دور روسي في المنطقة، أكثر كثافة.

ماذا يريد الروس من العرب؟

اطرح بشكل متعمد وصريح هذا السؤال، وحتى ببعض الحدة: ماذا يريد الروس من العرب؟ بالرغم من أني افهم ان هذه الصيغة بحد ذاتها غير شرعية تماما حيث يمكن تشبيه العلاقات الدولية، التي تقتضي مشاركة شخصين بالرقص. أو كما يقول المثل العربي اليد الواحدة لا تصفق. وبعبارة أخرى، يطرح سؤال معاكس: ماذا يريد العرب من الروس. ولكن هذا سؤال آخر وموضوع لمقالة أخرى. وفي هذه الحالة احاول التأمل بماذا يتوقع المواطن الروسي العادي المُسيس لحد كافي (والان في روسيا الاغلبية مُسيسة) حينما يتذكر أو يسمع عن العالم العربي.

لا يمكننا أن نتجاهل في سياق هذه المقالة حقيقة ان الموضوعة العربية اثيرت في الاتحاد السوفيتي من وجهة النظر هذه أو تلك منذ خمسينيات القرن العشرين، علاوة على أنها أثيرت بحدة في بعض الأحيان. وعلى العموم ان علاقة سكان روسيا بالعالم العربي ودية وتتسم بحسن الجوار، بالرغم من أنه ليس الجميع في روسيا، كما في العالم العربي، ادركوا حقيقة باننا في حقيقة الأمر جيران قريبين. فضلا عن اننا تاريخيا لم نحارب بعضنا ضد الآخر، ولم نغتصب

الاراضي. ويضاف إلى وجهة النظر الودية هذه للعرب عامل إنساني، حيث إن أكثر من 100 ألف شخص في العالم العربي يرتبطون بصلات قرابة وعائلية بروسيا وببلدان رابطة الدول المستقلة، ان عشرات الآلآف من العرب تلقوا تعليمهم في الاتحاد السوفيتي سواء العسكري أو المدني (على سبيل المثال ان رئيسي دولتين كبرتين في العالم العربي - مصر وسوريا - درسوا في الاتحاد السوفيتي ويتحدثان الروسية بصورة لائقة). وتلقى أكثر من 30 ألف عربي تخصيصاً في المدارس الفنية والمتخصصة التي انشئت بمساعدتنا. وتجد الان في مدن روسيا الكبيرة ولا سيِّما في موسكو عددا غفيرا من العرب من رجال الاعمال والطلبة وغيرهم. لذلك ان صداقتنا تجذرت عميقا وهذا ما ينعش الامال. وبوسعي ان أقول أكثر - لقد كانت بيننا صداقة الاجتماعات والشعارات والخطب الاحتفائية، الرسمية. وتولد الان بيننا صداقة جديدة بطبيعتها - بين الناس البسطاء. واتسعت بصورة غير قابلة للقياس الاتصالات المباشرة وتبادل الزيارات، في الوقت الذي وضعت في الماضي عراقيل جمة.

ولكن، أقول بصراحة - لقد كدرت السحب أيضاً سماء علاقاتنا، بل اني اصفها بالتحيز والتحامل في وعي الروسي العادي. مثلا لحد الان لا يزال يُنظر بهزء وحتى باستياء لواقعة تقليد الرئيس جمال عبد الناصر وبخاصة المشير عامر نجمة بطل الاتحاد السوفيتي. ولا يقبل الجميع بنتائج حربي 1967 و1973 حينما حارب العرب بأسلحة سوفيتية. وسادت مع الاسف فرضية خاطئة ولكنها مألوفة لم تتلاش من اذهان الروس، مفادها ان دول العالم الثالث بما في ذلك العرب مذنبون بفقر روسيا. فقد اعطاها نيكتا خروشوف (1894 - 1971) وليونيد

بريجنيف (1906 - 1982) كسرة الخبز الاخيرة، في وقت يعيش فيه العرب وعاشوا أكثر ثراء منا. وبهذا الصدد ينصبُ هذا أكثر على خروشوف. وأتيتُ على ذكر هذه الخرافات الممسوخة في وعي الروس، نظرا لأن البعض منها تناقلت في مرحلة البيريستروكا وما زالت في الوقت الحالي. ولنقل بحدة أكثر. وتلوح المعادلة في صورتها المبسطة كالاتي: اننا فقراء لأننا ساعدنا الجميع. (الكثير يجهل، ان حجم مساعدات الولايات المتحدة للعالم الثالث اعلى بمقاييس كبيرة ولكن هذا لا يعني لم يقلل من ثروة البلاد الوطنية، ولكن، بقنوات معروفة. حتى عزز جبروتها الاقتصادي).

واصبح الانعكاس السياسي لهذا النمط السياسي، في وعي وذاكرة الكثير من الروس هي فكرة ان العرب، كما لو، استغلوا لصالحهم وضع الاتحاد السوفيتي كخصم للولايات المتحدة الأمريكية في الاصطفاف العالمي، في الوقت الذي انهك هذا التنافس متعدد التوجهات والسباق على زعامة العالم، الاتحاد السوفيتي. واصبح أحد أسباب افتقار المواطنين العاديين،... إلخ. ووصل الروس بهذه الامتعة السياسية/السيكولوجية إلى اللحظة الراهنة، حينما يجري تحويل طبيعة علاقات روسيا الاتحادية وبنيتها التحتية مع العالم العربي. إذن ماذا يريد الروس من العرب اليوم وفي الافق؟

إنني على قناعة بانه وعند المجيء على ذكر العالم العربي الان، تنشأ عند مواطني روسيا، بالدرجة الأولى، الامال بتعاون اقتصادي مثمر والرهان على استثمارات كبرى في الاقتصاد الروسي. (واود الاشارة هنا إلى جانب خاص

سايكولوجي دقيق: والكلام يدور عن ان في تصور المواطن الروسي العادي ان جميع العرب أغنياء ولديهم رساميل ضخمة وقصور فارهة وسيارات مرسيديس وغيرها. وساعدت وسائل الإعلام على رسم ذلك التصور ونشر الانباء عن حجم الذهب والمجوهرات في بلدان الخليج التي لم يُسمع بمثلها، بيد انها تتجاهل مجموعة متشابكة من المشاكل الاجتماعية - الاقتصادية الأكثر إلحاحا، واضطرابات ومصاعب العرب البسطاء. وأتذكر انتشار هذه السمعة المبسطة متلازمة (العرب - نوفوريتش) (حديثي النعمة) التي سادت في أمريكا في منتصف السبعينيات على موجة ازمة الطاقة).

وإذا ما تحدثنا بجد، ففي روسيا، على سبيل المثال، معروف ان أكثر من 400 مليار دولار من الرأسمال العربي يُستثمر في اقتصاد الغرب ومندمج في نظامه المصرفي ويجري الكلام بروسيا عن ذلك بحدة وحتى أقول بشيء من الانكسار. وينهض لدى الروس سؤال - لماذا لا يوظف هذا الراسمال وليكن في البداية بحجم غير كبير في اقتصاد روسيا؟ وعلاوة على ذلك يطرح سؤال - كيف حصل ان الاتحاد السوفيتي الذي وقف بلا مواربة إلى جانب العرب على مدى عشرات السنوات في مواجهتهم مع إسرائيل، في الوقت الذي ذهبت مباشرة إلى البلدان التي ليس فقط تتعاطف مع إسرائيل وانما تساعدها. بمعنى ان العرب كما لو قاموا بتمويل خصومهم، وتركوا الحليف من دون مساعدة. لقد تغير الوضع الان، ولكن دائما توجد فرصة لتصحيح هذا الخطأ التاريخي.

ونقول على العموم ان هذا هو السؤال الرئيسي. لمَ لمْ تتكون للعلاقات الروسية - العربية بالرغم من سعتها (انها آخذة بالاتساع)، قاعدة رصينة، العمق تصونها من عواصف وهزات الحالات السياسية. وكان يمكن ان تمنح الرساميل والشؤون المصرفية الثبات لسفينة علاقاتنا. والكلام يدور بالذات عن بدايات كبرى. وحتى الان يغلب نشاط البزنس الصغير من كلا الطرفين، علاوة على ذلك ينحصر في مجال التجارة سريعة الأجل.

وبالطبع يمكن فهم حذر رجال الاعمال من الوضع الحالي في روسيا. واتفق لي ان اسمع أكثر من مرة من قبل متحدثين عرب الاشارة إلى ان الرأسمال جبان. ألا يكون حذر رجال الاعمال مبالغاً فيه حينما يدور الكلام عن اقامة علاقات بسوق واسع في روسيا القريبة جغرافيا والتي تمتلك ثروات طبيعية هائلة وترسانة علمية/تكنولوجية ضخمة؟ ألا يكمن الخطأ هنا الذي سنأسف عليه في المستقبل؟ النفط والغاز، والبنية التحتية للطاقة والكيميا والطيران - وصناعة المركبات مع جذب التكنولوجيات الغربية والايدي العاملة الروسية وبزنس الفنادق والطب والبحوث العلمية وتنظيم مجمعات العلاج - ان هذه لائحة غير مكتملة للمجالات التي تنتظر الاستثمارات والاعمال الملموسة. أو أخذ مجال تحويل الصناعات العسكرية الواعد. وهنا امكانات لا تحصى للعمل المربح.

وأود على وجه الخصوص الإشارة إلى نقطة ان الكلام لا يدور عن مساعدة في هيئة مبتذلة، كما يميل البعض لفهمها. ان المساعدة من الخارج ومهما كانت جوهرية وملموسة غير قادرة على انتشال اقتصاد بلد ضخم كروسيا.

إن القضية ليست بمثل هذه المساعدة. وانما المقصود دعم العلاقات الاقتصادية والتجارية، متبادلة المنفعة على افق بعيد المدى. ولا عجب ان موظفين ظهروا في الهيئات الروسية لا يباركون القروض غير الهادفة التي تنفذ بسرعة وتغدو مصاعب كامنة لأطفالنا واحفادنا. توجد مثل وجهة النظر هذه.

وماذا يريد الروس أيضاً من العرب؟ ربما الفهم الدقيق للوضع المعقد الذي ترتب عندنا في المجالات السياسية وفي العلاقات الدولية. وبعبارة أخرى النظر بتعاطف مع تلك المشاكل وعدم الانجرار لإغراء الانضمام إلى العملية السياسة من الزاوية التي توعد بمنافع آنية، وعدم مد يد المساعدة لطرف ما ضد الآخر. الكلام يدور أيضاً عن المواقف الصحيحة من الوضع العلاقات الدينية في روسيا التي تمثل تكتلا فريدا من نوعه من زاوية التعايش التاريخي بين الطائفة المسيحية الارثذوكسية الروسية مع الطائفة المسلمة التي تترك انطباعا قويا. انني على قناعة بانه سيكون لدى العرب ما يكفي من الحكمة واللباقة لانتهاج خط في هذه المتاهات لا يؤجج التوترات العرقية والدينية بل وستكون داعما لانتعاش هدوء الجو السياسي في روسيا والوفاق العرقي والديني. ولكننا نعترف ان هذه مهمة غير سهلة. لأن في بعض الأحيان من الصعب جدا مقاومة إغراء تقسيم الجميع على أساس (صاحبنا) أو (غريب). بالمناسبة ان هذه النزعة في السياسة الروسية ولت في الماضي، حينما كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وفي بعض الاحيان من دون مبرر، تدافع عن الشيوعيين العرب، دون ان تأخذ بالاعتبار مبادئ سيادة البلاد وعدم التدخل في الشؤون الداخلية.

ومن المهم بالنسبة لروسيا، ان يدرج العرب المضطرون لحذف الاتحاد السوفيتي من الحسابات، روسيا بدقة في حساباتهم كدولة معنية بصدق بحلول سلام حقيقي وامن في الشرق الأوسط، كما أنها مستعدة لأن تكون ضامنة لتطور مستدام في المنطقة. ولنقل بصراحة يظهر لدى البعض موقف متعالٍ ازاء روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. ولكن لا ينبغي ان ننسى ان جبروت الاتحاد السوفيتي استند بالمقام الأول على عظمة روسيا ولا ينبغي نسيان ذلك أو تجاهله. وبالمناسبة لن يكون من مصلحة العرب أنفسهم. لنقل تنزلق عند البعض عدم تقدير دور الراعي الروسي في عملية السلام الشرق أوسطية. ربما اننا لا نجيد القيام بدعاية لخطواتنا بشأن تحريك هذه العملية. ويمكن الموافقة على ذلك. ولكن سهم موسكو فعلي وهام. وانني على ثقة ان من مصلحة العرب كما من مصلحة إسرائيل، ان يزداد في المستقبل دور الراعي المناوب في عملية السلام.

قبل فترة قليلة لاحظ أحد معارفي الروس خلال حديثي معه ردا على تأكيداتي على حيوية تطور علاقات روسيا الجيدة مع العرب الأمر هكذا. وعلى الرغم من ذلك، من المؤلم، ان الاثار العظيمة لصداقتنا ظلت في العالم العربي تعود على الناس بالمنفعة مثل سد اسوان وسد الفرات وغرب الرميلة وعدد من مصانع الصلب،... إلخ ولم يبق لدى روسيا سوى مشاعر خيبة الامل وامال غامضة. واضاف: تطفق بالتفكير طوعا أو كرها، هل كانت لعبة في بوابة واحدة.

انا لا أشاطر مثل هذه الفلسفة. فهذا تقدير مبسط للغاية لكيفية تطور علاقاتنا مع العرب. ولكن تبقى حقيقة ان كل اثار الصداقة تقف فعلا في الارض

العربية. (حقا في الوقت الاخير راح بعضهم يبني المساجد في روسيا باموال عربية، وهذا عمل خير، لوجه الله، وعلى العموم انه ضروري، فانا شاهد على أن المساجد في المناطق التي يسكنها المسلمون غير كافية. ولكن اتفق معي ايها القارئ، ان الروس الباقين (وهم الاغلبية) لن يفهموا تماما، إذا انحصرت القضية فقط ببناء المساجد). ولكن عزائي ان علاقاتنا لم تنقطع وحسب وانما تتوطد، تخرج على سكك المنفعة المتبادلة. وكما يقول المثل العربي (كالروسي) (ان الصديق عند الضيق). ان روسيا تتحول في مخاض عسير، وتستعد لدخول القرن الواحد والعشرين. وفي الوقت الذي فهم ساسة ورجال اعمال الغرب، بعيدو الافق، المستقبل الزاهر لروسيا، فانهم يحضرون لإيجاد موقع لهم هنا.

إن موسكو ستكون مسرورة لو ان العرب، في الوقت الذي يتكيفون مع الوضع الجديد، يبدأون بشجاعة بالدخول في اقتصاد روسيا، التي لم تكف يوما من ان تكون صديقا لهم.

لمصلحة من، ولماذا تطلب خصام روسيا مع الاسلام؟

بما انني اضطلع بمهام علاقات بلدي مع دول المنطقة الأكثر تأثيرا في العالم الاسلامي - مع العرب، فلسبب مفهوم لدي احساس خاص بكل تغيرات البارومتر التي تسجل الاجواء هناك، حيث يتماس نهج السياسات الروسية والدول الاسلامية. وفي السنوات الاخيرة لم تكن علامات حالة هذا الجو (من دون سحب) و(صحو). ان هناك محاولات بذلت ويتواصل بذلها لالقاء الظلال على روسيا وخطواتها من زاوية افغانستان، مستخدمة الصراع بين الاشقاء في الجارة طاجيكستان. وتجدر الاشارة إلى ان هذا ياتي في الوقت الذي ليس لروسيا قوات مسلحة في افغانستان وانها تحاول وحسب واستجابة لنداء طلب المساعدة، حماية طاجيكستان من التطاولات من الجنوب من افغانستان حيث ومن دون القوات السوفيتية تستمر اراقة الدماء. والاحظ بشكل عابر، ان نطاق النزاع الداخلي الحالي هناك، وهو في حد ذاته حرب اهلية، فاق إلى بعيد من ناحية الضحايا والتدمير وقت تصدي الافغان للقوات السوفيتية.

ولم تتوقف محاولات تأليب المسلمين على روسيا كذلك في سياق الأحداث المأساوية في يوغسلافية السابقة. وما يقلقني على هذه الخلفية، السلبية اصلا،

هو تعالي الاصوات والبيانات ذات الاتجاه المعادي للمسلمين مؤخرا في روسيا. وبعبارة أخرى ان الجانب الآخر استلم الراية، وان الدائرة تكتمل. وتكتسب بعض البيانات اللاذعة طابعا يقترب جدا من تفوق الشمال عرقيا على الجنوب والمسيحية على الاسلام،... إلخ. وتردد الكلام عن الحروب الدينية.

ما يهمني هو السؤال: لمن ولماذا تطلب مشاجرة روسيا مع العرب والمسلمين باسرهم؟ ولذلك أود ان اتناول هذا الموضوع المهم للغاية. وقبل كل شيء التعليق على مضمون المسألة: ان متناقضة وضع روسيا في مواجهة الاسلام بلا معنى، فروسيا التي تشكل معقل الارثذوكسية هي في الوقت ذاته جزء من العالم الاسلامي. ان روسيا جزئيا دولة اسلامية، حيث تعيش في اراضيها طائفة اسلامية رصينة يبلغ نفوسها عدة ملايين نسمة تتمسك بالاسلام، ومناطقها الان ليس بقرية معزولة وانما منطقة نامية ذات قدرات واسعة تكشفت فيها هويتها الروحية والثقافية، والتقدم الاقتصادي.

والملاحظة الثانية تتعلق بجوهر المسألة. ان المسيحية الروسية والاسلام دينان غير متنافسين في روسيا، انهما لا يتطاولان على نفوس ومحيط انتشار بعضهما البعض. وبعبارة أخرى ان تترقازان لن يعتنقوا المسيحية وان مسيحيي ارخانكلس وكوبان لا يتهيأون لاعتناق الاسلام. وكل هذا، بالمناسبة، يشكل تفاوتاً مختلف المذاهب داخل المسيحية، التي تتازع بعضها الآخر، احياناً بروح عدوانية، على مباني الكنائيس وروح المؤمنين.

إن واقع مرور المسيحية والاسلام في روسيا في حالة من الحيوية والانبعاث لا يفرق بل يقرب بينهما، ان هذا الواقع يأتي بعد انهيار النظام الذي ظللهما ومنع التعبير عن المشاعر الدينية والقيام بالمراسم الدينية وحظر انشطة الكنائس والمساجد. وعلى هذا النحو فان الكلام يدور عن تعايش دينين وتعزيزهما كل في ارضه ووسط مريديه، وليس ما يدعو لنشوب العداوة بينهما. وهما ليسا ملتزمين بالتفاعل الوثيق بينهما. بيد اني اجدد القول بان ليس على العموم ثمة ما يتقاسمانه، إذا بالطبع لم يختف وراء الدعوات الدينية دعوات سياسية انتهازية. وبعبارة أخرى ان الله واحد وتكفي رحمته للجميع، إذا كانت النيّات نقية.

بالمناسبة ان القران منحنا افضل مثال على التسامح وسعة الروح الدينية. فإلى جانب النبي محمد (ص) يُعترف بالكثيرين من الذين ظهروا في الدين المسيحي كانبياء. ان هذا مرشد مفيد لنا. وانا واثق من أن النفور والكراهية بين المسيحيين الروس والمسلمين في روسيا غريبة على الوعي الديني والمنحى الروحي لسكان روسيا. لذلك فان زرع مثل هذه الكراهية قضية دنيئة. ففي ظل الظروف الاقتصادية، واشدد على الاقتصادية، المضطربة يمكن ان تنشأ مناكفة - مثلا ان هناك عدد غيرقليل من أهالي موسكو يعربون عن الاستياء من تدفق اللاجئين من ناغورني كاراباخ وغيرها من (البؤر الساخنة) للاتحاد السوفيتي السابق. ويحاول البعض ان يسبغ على الميول لونا دينيا. ولكن القضية هنا لا تكمن في الدين، وانما في الارتباك والاختلال وعدم حل المشاكل الاقتصادية. ما شأن الدين بهذا، إذ ان اللاجؤن مسلمين - اذريين وابخاز ومسيحيين - جورجيين وأرمن؟ ان هناك وقائع في القرن العشرين لدى شعوب الاتحاد السوفيتي السابق، حيث إن المكون الرئيسي

كانوا المسيحيين الروس وطائفة المسلمين، ليس للتفاعل والتعاون وحسب ولكن الأخوة ثابتة مدهشة. لنأخذ على سبيل المثال الحرب الوطنية العظمى. فهل خطر على بال أحد تقسيم البعض البعض الآخر بين (من جماعتنا) و(ليس من جماعتنا)؟ أو الزلزال في طشقند، حينما هبت شعوب الاتحاد السوفيتي كأخوة لدعم الاوزبيك. وبكلمة واحدة ان لدينا ما سنجابه به كل من يحاول الان زرع الخلافات الدينية والضغينة، لاسترضاء الساسة غير الشرفاء. المشكلة على العموم من قبل الطرفين اللذين يحاولان تسميم علاقات روسيا مع الاسلام، ويجري استبدال المفاهيم - القومي الضيق والمغرض وراء صيانة الاسلام، والدول العظمى والشوفينية تختفي وراء الاهتمام بمصائر المسيحيين الروس.

بالمناسبة كتبت قبل سنة محذرا من خطورة الاستعمال السياسي لمصطلح (الاصولية الاسلامية) الذي انتشر بذنب بعض الباحثين. وللاسف ان هذا المصلح يستعمل الآن على نطاق واسع ليس في العلم ولكن في ممارسة عدد كبير من المؤسسات السياسية والمخابرات. بيد أننا لو تمعنا بالتفكير فانه على العموم مصطلح غير لائق. الاصولية - انها شيء ما متين وثابت، انها عودة للاصول إلى الجذور، انها محافظة بمعنى ايجابي. وفي حقيقة الأمر في البدء كانت (الاصولية الاسلامية) تعني التطرف المفرط، التطرف في الممارسة السياسية والمنطلقات العقائدية. بيد ان احدا لم يدرك هذا والان يتسع الاستخدام غير الصحيح لمفهوم (الاصولية الاسلامية) كفزاعة تستفز وحسب، وورقة رابحة للرؤوس الحارة.

وهناك تشويه آخر مضر للمفاهيم. فهناك من ينفخ في مجمرة الميول المعادية للاسلام ولا يـتردد عن تصوير روسيا كآخر برج محصن على طريق انتشار الاسلام في أوروبا. ان هذه اصداء لنظريات مستديمة فريدة من نوعها لتحويل روسيا إلى منطقة عازلة تمتص بداخلها وفي فضاءاتها الشاسعة وكثافتها السكانية الاخطار المحتملة على أوربا الغربية. وتبدو هذه النظرية للبعض مغرية، ولكنها غريبة تماما ومتناقضة مع طبيعة روسيا المعاصرة والفريدة من نوعها، التي يعيش في كيانها ليس المكون المسيحي الارثذوكسي (الروسي) الرئيسي وانما عنصر اسلامي هام. وبعبارة أخرى ان مَهَمة الدبلوماسيين والساسة الروس بوجه عام تقوم على عدم جعل روسيا بهذه الطريقة خصما للاسلام. ان هذه رسالة ليست لروسيا.

من المهم ان لا توجد في العالم الاسلامي قوى، تسعى لتصوير موسكو على هيئة خصم رهيب جاثم على المسلمين بمآربه الامبراطورية التي لا تطاق.

ومن جهة أخرى اؤكد، ان لدى الشعب الروسي تاريخاً تفاعل مع بعض الشعوب التي اعتنقت الاسلام، ولو انه ليس دائما بريئاً ومن دون اذى (لنقل هيمنة التتار على مدى ثلاثة قرون والحروب والنزاعات الكثير مع تركيا) فقد تلاشى الحقد والنفور منذ زمن بعيد. والمهم ان هذه التعقيدات بالعلاقات لم تكتسب طابعا دينيا. علاوة على ذلك ان الروس والتتار منذ ذلك العهد يتعايشون على قرون طويلة جنبا إلى جنب واحيانا يتخالطون بعضهم بالبعض (ففي موسكو على سبيل المثال يعيش عدة مئات الف تتاري). وليس من قبيل

الصدفة ان تُنسب لنابليون نادرة تقول: خدش الروسي - تجد تتاري. ولكن في كل نادرة قسط كبير من الحقيقة. ويشعر التتار من اهالي موسكو بانهم متساوين بالحقوق ولم يتم اي تمييز بحق اعضاء عائلتنا المسكوفية. ان ممثلي عشرات القوميات موزعون في انحاء روسيا، وسيكون من الجنون انتهاك هذه الهارمونية القائمة على مدى قرون، وتفتيت هذه الفسيفساء تحت شعارات دينية أو غيرها.

والان أود التطرق إلى افغانستان وطاجيكستان. ياترى هل هناك من يفكر فعلا بانه وبعد مغامرة بريجنيف واندربوف واوستينوف في افغانستان، سيحظى في التورط بعملية مشابهة بشعبية في روسيا. ياترى اليس واضحا ان الامهات من روسيا والالم يعتصر قلوبهن يسمحن لابنائهن القيام بواجبهم على الحدود الافغانية/الطاجيكية؟ إلى جانب موافقة حكومة دوشنبيه التامة على تواجدهم هناك، والكلام يدور عن ان ليس لدى روسيا حدود أخرى تحميها من تدفق الأسلحة، والارهابيين وتجار المخدرات. وحتى من تعاطف سابقا مع زعماء المجاهدين يتحدث الان بصراحة عن خطورة انفلات الوضع في افغانستان.

من الواضح ان هناك من لا يعجبه اقامة علاقات طبيعية - ثقافية واقتصادية وغيرها - بين روسيا والدولة المستقلة في اسيا الوسطى. وانا لا استبعد هذا، ولكن ما علاقة الاسلام بذلك ولماذا اشراك وتوريط الدين بذلك؟ ان الساسة يخشون بشكل سافر اصابة لذلك يلجؤون إلى العبارات الطنانة، ولكن الخطاب المنافق بصدد طموحاته الامبراطورية والتضييق على المسلمين خارج وداخل حدودها. انه اسلوب سهل ولذلك فهو رخيص. وليس من العبث ان تكون

محاولات الطرف الآخر الذي يطرح نفسه بمثابة وطنبي روسيا القح، وانصار السلافية، وفي الوقت نفسه يطلقون النبال على معتنقي الديانة الأخرى وأبناء المناطق الجنوبية والشخصيات ذات الهيئة القومية (القوقازية) التي ليس لها وجود.

ليس من العبث قولهم ان السياسة يمكن ان تكون أمرا قذرا. فبدلا من المضي في طريق صعب لتعزيز الوضع الاقتصادي للناس، وايجاد الحلول للمشاكل المتراكمة، يعتقد البعض ان من الاسهل له تعبئة المضللين والمتعبين والمحتاجين. للكفاح من اجل مستقبل افضل تحت راية مكافحة الاجانب وضد معتنقي الاديان الأخرى وضد الاعراق (غير النقية). اما في الافق فثمة شيء آخر، قد يكون الحرب الاهلية. ان الحرب في لبنان وانهياره هي افضل مثال على انفلات الساسة المضاربين من هذا النمط الذين يزرعون الخلافات بين الشعوب والطوائف الدينية. وهناك امثلة حديثة جدا. ولم يبق لنا سوى استخلاص الدروس.

ومن وجهة نظري ان إحدى المهام الملحة للدبلوماسية الروسية الخارجية والداخلية هو وضع حاجز امام النزعات الرامية لحفر خندق بين روسيا والاسلام. وبدقة اكبر ان من المهم أيضاً تحديد موضوع السلفية التي تبدو لروسيا كفئة مجردة، وينبغي ان نزرع في وعي الناس التسامح والمناعة من الكذب القومي المتستر وراء الشعارات الدينية. ومن السابق لأوانه وضع نقطة الختام، لذلك أوعد القراء بالعودة لهذا الموضوع، لا سيِّما انه لا يهتم بروسيا وحدها.

على رجال الاعمال تمهيد الطريق نحو الشرق

حديث مع مجلة (رجال الاعمال)

عدد 63 سنة 1996

من المستحيل حل مشكلة دخول روسيا اقتصاديا إلى الاسواق العالمية من دون مشاركة الدبلوماسية بصورة مكثفة. ويتعلق هذا على وجه الخصوص بالشرق الأوسط، حيث تسعى موسكو البقاء في مواقعها التقليدية. دار كلام مراسل مجلة رجال الاعمال مع نائب وزير خارجية روسيا فيكتور باسوفاليوك، المشرف على المسار الشرق أوسطي.

- اصبح من البديهي التاكيد على أن العلاقات الاقتصادية تؤثر بصورة حاسمة على السياسية، فإلى أي حد تؤثر فيه الاقتصاد في العلاقات الدولية؟ وما بوسعكم الحديث عن المكون الاقتصادي في انشطة وزارة الخارجية الروسية؟

باسوفاليوك: احيانا تسير السياسة في مقدمة الاقتصاد. مثلا الشرق الأوسط. ان نهوض العلاقات الاقتصادية في هذه المنطقة يمكن ان يبدأ فقط بعد تسوية ازمة الشرق الأوسط. وعلى هذا الشكل ان المقولة القائلة بان الحصان يسير في مقدمة العربة، لا تعمل دائما. ويا للأسف. اننا مع ان يُمهد رجل الاعمال

الطريق نحو الشرق. إلى جانب ذلك يمكن التاكيد من دون مبالغة، بانه قد جرى خلال السنتين أو الثلاثة الاخيرة (اضفاء الطابع الاقتصادي) على الدبلوماسية الروسية. وتقوم وزارة الخارجية وسوية مع الوزارات والهيئات الأخرى بخلق الاجواء الملائمة الخارجية لاجراء الاصلاحات الاقتصادية في روسيا، مما يفترض اندماج اقتصادها في الاقتصاد العالمي، واقامة شراكة من نوع جديد مع الدول المتطورة الرائدة ومع المنظمات الدولية، وتوسع التعاون ذي المنفعة المتبادلة مع دول اسيا/المحيط الهادي وأمريكا اللاتينية وافريقيا. واتخاذ التدابير من اجل تحسين ظروف دخول البضاعة والخدمات الروسية إلى الاسواق العالمية، وتسوية مشاكل الديون الخارجية. وتضع وزارة الخارجية في مقدمة أولوياتها ضمان أمن روسيا الاقتصادي الدولي.

والحصيلة المهمة لعمل وزارة الخارجية كانت معاهدة الاتحاد الاقتصادي لبلدان (رابطة الدولة المستقلة)، والاتفاقات التي تم التوصل لها بصدد توسيع الاتحاد الجمركي لبلدان الرابطة. وتجدر الاشارة إلى البيان المشترك حول التعاون مع منظمة التعاون الاقتصادي، واتفاقية الشراكة والتعاون بين روسيا والاتحاد الاوروبي والتوقيع في تموز/يوليو الماضي على الاتفاقية المؤقتة للتجارة مع الاتحاد الاوروبي. ونجحنا في ان ندرج في هذه الاتفاقيات بنودا هامة ومربحة بالنسبة لروسيا. وتعزيز مصالح روسيا في العلاقات الاقتصادية الدولية. ومن الصعب تقدير دور اعدادات السياسية الخارجية في سير المباحثات الجارية الان بشان انضمام روسيا إلى منظمة التجارة العالمية، والتصدي لمختلف الافعال التي تضع عراقيل مصطنعة على طريق الصادرات الروسية. وتجدر الاشارة إلى ان صعوبة

هذه التعقيدات الفنية والمباحثات التي تتطلب مهنية عالية. غالبا ما يعتمد الكثير فيها على القرارات السياسية. وهنا فعلا من الصعوبة جدا فصل السياسة عن المصالح الاقتصادية الجذرية الروسية على المدى البعيد.

ان لبلدنا مصالح اقتصادية تقليدية في الشرق الأوسط. ولا سيما في سوريا والعراق ومصر. كيف تسير الأمور بهذا الاتجاه؟ هل ثمة مقدمات ملائمة لاستئناف العلاقات السابقة بعد انهاء الحضور الاقتصادي في المنطقة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي؟

باسوفاليوك: ان هناك رأي خاطئ للغاية يقول ان روسيا فقدت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي مكون مصالحها الاقتصادية في الشرق الأوسط. ان ازالة الستار الحديدي والكف عن تقسيم الدول إلى اعداء وأصدقاء قد ساعد الدبلوماسية الروسية على اضافة مكونات جديدة إلى الاسواق التقليدية في الشرق الأوسط بما في ذلك اسواق الخليج وإسرائيل التي تنطوي على امكانيات عالية.

واؤكد ان روسيا الجديدة لم تفقد، وانما وسعت بشكل جوهري مصالحها الاقتصادية بالشرق الأوسط، بفعل عدة عوامل موضوعية. ان مساعدة بلادنا على بناء عشرات المنشآت الاقتصادية الضخمة في دول المنطقة (بنء محطات الكهرباء ومؤسسات الكيمياء والتعدين واستخراج النفط والغاز وفي مجال الارواء والنقل والاتصالات) وضعت الاساس لاستمرار التعاون لسنوات طويلة قادمة لأسباب اقتصادية محضة: تستخدم في المنشآت المعدات الروسية التي يتطلب استعمالها مشاركة خبرائنا، كما أنه وعلى قدر إنتاج الموارد والتلف الطبيعي

يتطلب استبدال المعدات بمعدات مشابه، اي روسية الصنع. ان المنشآت التي تم بناؤها في زمن الاتحاد السوفيتي والمشاركة الروسية اظهرت مأمونيتها وقدرتها على التنافس، علاوة على وجود فرق كبير في الاسعار مقارنة بالمنتوج الغربي المماثل. ولا يمكن الاستهانة بواقع ان غالبية المهندسين والفنيين في تلك المنشآت، يتألف من الكادر الوطني الذي حصل تعليمه واعداده في الاتحاد السوفيتي أو في روسيا.

ونمضي بالقول. ان صادرات الأسلحة والمعدات العسكرية في الكثير من بلدان المنطقة هي مكون رئيسي للقدرات الدفاعية لهذه الدول. ان الانتقال إلى أسلحة من الدول الأخرى تتطلب كما هو معروف تغير الأسلحة المعتمدة مما يؤدي إلى نفقات كبيرة. وما عدا ذلك ثمة الكثير من الامكانيات لتطوير التعاون العسكري/الفني سواء مع المستوردين التقليديين أو مع الشركاء الجدد بما في ذلك دول الخليج العربية وإسرائيل. وعلى وفق بعض التقديرات فان دول الشرق الأوسط تنوي في غضون السنوات الخمس التالية انفاق 60 إلى 80 مليارد دولار على شراء الأسلحة... ان حرب الخليج لم تلحق الضرر بسمعة الأسلحة الروسية: فالعراق لم يستورد الأسلحة الأكثر تطورا. والمسألة الرئيسية ان المجمع الصناعي العسكري الروسي صمم نماذج جديدة للأسلحة، ليس فقط على قدم المساواة مع الغربية وانما تتفوق على المشابهة لها. وللاسف ان نوعية الأسلحة ليست هي دائما المقياس الاساسي لأقتنائها - ففي شراء الأسلحة كثير من السياسة، واحيانا المنافع. ان السوق هناك ليست بقارة مجهولة لنا.

واود الاشارة على وجه الخصوص إلى ان قطاعات صناعية كثيرة انشئت كثيرة في البلدان العربية، التي تنتج الخامات والسلع الاستهلاكية الموجهة لسوقنا. ان إعادة تظيمها وكثافة الرساميل تنطوي على صعوبات فنية كبيرة. ويقضي هذا الاهتمام بمواصلة التعاون التجاري/الاقتصادي مع روسيا، لأن الدخول لسوق البلدان الصناعية ودول العالم قضية أشكالية. وينبغي عدم تجاهل هذا العامل.

إن قضية تسوية ديون بلادنا التي منحت سابقا كقروض دولة وسلف تجارية وتعد مليادرات الدولار، ينطوي على أهمية كبيرة. ان سوريا مطلوبة لروسيا بحوالي مليار دولار، والعراق بحوالي 7 مليارات دولار، وليبيا تقريبا ملياري دولار.

واخيرا فان اسواق المال في الشرق الأوسط جذابة للغاية بالنسبة لروسيا، وبالدرجة الأولى في الدول المنتجة للنفط، حيث يلاحظ فائض بالاموال التي لم تجد لها استعمالاً متكافئاً بسبب الاحوال الاقتصادية في السنوات الاخيرة (وحسب تقديرات البنك الدولي انها تبلغ 530 مليار دولار). وهنا ثمة افاق واعدة لاستعمال التكنولوجيات الروسية الحديثة والمنتوجات للأغراض المدنية أو العسكرية، القادرة على أن تنافس بنجاح الغربية المشابهة لها. ويعزى هذا إلى التحليق الفضائي الكوني والتكنولوجيات الجديدة في مجالات النفط والغاز، وبعض منتوجات مجال اللازر وتقنيات الليزر.

- ان قدرات الشرق على الاستثمارات تترك انطباعات كبيرة. ولكن من المشكوك ان يكون لروسيا الفرص لاستخدامه، أكثر مثلا من الولايات المتحدة أو الدول الغربية.

- انكم على حق في بعض الجوانب. ان مستثمري الشرق الأوسط أكثر خوفا من الغربيين. ان الغربيين يتمكنون افضل في حساب المخاطر. بل وحتى رجال الاعمال الروس بدورهم لم يتعلموا العمل في الساحة الدولية في الظروف الجديدة ومعرفتهم بحالة السوق سيئة، ولا يخفى انهم لا يعرفون اللغات ولا سايكولوجية الشركاء. اما ما يتعلق بفرص ارباح روسيا الاقتصادية من التسوية الشرق أوسطية، فانها فعلا تسلم اقل مما كان منتظرا. وسيعتمد كل شيء على نشاط رجال الاعمال الروس.

- بماذا تنحصر رعاية روسيا للتسوية في الشرق الأوسط، فأحياناً يتكون انطباع ان كل اكاليل الغار تذهب لأمريكا، علاوة على أن لدى أمريكا عتلات تاثير على الدول التي كانت في يوم ما حليفة قريبة لروسيا في المنطقة - مثلا على سوريا؟

باسوفاليوك: ان دور روسيا كما هو دور أمريكا ينحصر بدفع مباحثات عملية التسوية خلال اللقاءات الثنائية العربية - الاسرائلية وعلى المستوى الجماعي دوليا. بمعنى ان الكلام يدور عن (الخدمات الطيبة) التي تهتم بها بالدرجة الأولة اطراف التسوية. ان (صورة) دور روسيا كدور شكلي تشكلت (بجهود) وسائل الاعلام. اننا لا نتسابق مع الجانب الأمريكي في سبيل الحصول على عدد اكبر من (الجوائز) على عمل رعاية التسوية. وعلى كافة الاتفاقيات الفلسطينية - الإسرائيلية والاردنية - الإسرائيلية هناك شهادة تواقيع كلا الراعيين.

وتجدر الاشارة إلى ان الرعاية ليست تعادل ومساواة سياستنا في الشرق أوسطية مع السياسة الأمريكية هناك بالرغم من أننا خط منسق من اجل الهدف المشترك اي تحقيق التسوية الشاملة والعادلة على اساس

قراراي مجلس الامن الدولي 242 و338. وعلى العموم فاننا لم نتحرك بصورة متشابهة ليس فقط في تحركاتنا المشتركة اضافة للنتائج وانما الخطوات المتوازية، واحيانا اختلف النهج كما حدث في مجلس الامن الدولي في 17 مايو 1995 بشان قضية نزع إسرائيل الملكية العامة من جزء من الاراضي الفلسطينية في القدس الشرقية.

والان في سوريا. من الخطأ الاعتقاد ان الرئيس السوري حافظ الاسد قد وضع (خياره الاستراتيجي) لصالح السلام مع إسرائيل بسبب الضغط الأمريكي عليه، وليس باسم المصالح الاصيلة لبلاده ولعموم المنطقة في ظل الظروف التاريخية الجديدة. ومن جانبنا فاننا وبثبات نشجع السوريين والإسرائيليين للبحث عن الوفاق عن طريق الحوار البناء.

وفي الوقت نفسه ينبغي الاعتراف بوجود مشاكل محددة في العلاقات بين موسكو ودمشق. ان ديون بلدان مثل سوريا، اصبحت عوائق جدية امام عودة روسيا إلى اسواق المنطقة. هناك خيار لتسوية هذه المشكلة في صالح سوريا، وبالطبع فان وزارة المالية الروسية لن تلغي وببساطة الديون عليها. ان دمشق ما زالت تثق بنا. ولكن توجد رغبة موضوعية لدى السوريين لتطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة، اي الخروج من (اللائحة السوداء) الأمريكية لداعمي الارهاب. ويتنامي في عمل رعاية التسوية دور العامل المادي من يستطيع ان يكافئ الاطراف بكرم أكثر على التنازلات السياسية. ومن هنا ينبع كل الخلل في وضعنا كراعي للسلام في المنطقة.

- هل ان روسيا ووزارة خارجيتها مستعدة أم لا، لمرحلة ما بعد رفع العقوبات عن العراق وليبيا حيث سيشغل المتنافسون الغربيون حالا مواقعها السابقة في هذين البلدين؟

- فعلا يتعين فيما بعد مرحلة رفع العقوبات ان نخوض منافسة شديدة بالدرجة الأولى، مع الشركات الغربية. انها الآن تبذل الجهود الحيوية لضمان وضع مميز في السوق العراقية. بالطبع اننا نأخذ هذا بنظر الاعتبار، واتعهد لكم باننا لن (نجلس مكتوفي الايدي). وفي الوقت نفسه اننا نركز على القطاعات الرئيسية في الاقتصاد العراقي، الذي كان لروسيا سهم ملموس في تطويرها: استخراج النفط والطاقة والري. وان الخطوة الهامة في هذا المجال ستكون بتنفيذ الاتفاقات في مجال استخراج النفط وتكريره التي تم التوصل لها خلال زيارة وزير الوقود والطاقة يوري شافرانيك لبغداد في ابريل 1995. ان وزارة الخارجية في ظل هذه الظروف تخلق المناخ السياسي الملائم لتمرير البزنس الروسي في العراق. اننا نجري حوارا مكثفا مع القيادة العراقية، وتتصدر لائحة اعمال اليوم قضايا علاقات التعاون الثنائي. وتولي سفارتنا في بغداد ذلك اهتماما بالغاً. وانا شخصيا عدت مؤخرا من العراق حيث أجريت مباحثات ثنائية بشان العلاقات الثنائية.

وفي الفترة التي مضت على فرض العقوبات على ليبيا نحن نحافظ على الحوار السياسي مع طرابلس. ونحن على قناعة بانه وحتى في ظل ظروف العقوبات المفروضة هناك مجال واسع للشراكة مع هذه البلاد في القطاعات التي لا تطولها العقوبات (الطاقة والمواصلات والتخطيط وبناء انابيب النفط وفي المجال المصرفي). ومن هذا الباب نوجه عمليا مؤسسات الدولة

ورجال الأعمال، ونقدم لهم مساعدة ذات طابع عملي لإقامة العلاقات مع الشركاء الليبيين. وللاسف احيانا تسبقنا بلدان رابطة الدول المستقلة. واود ان الفت انتباه رجال الاعمال الروس: اننا ننتهج خط المبادرة السياسية، ويجني الآخرون ثمار النصر. يجب العمل بشجاعة. وننتظر من دوائر رجال العمل الروس أفكارا ملموسة، ونشاطاً تجارياً حقيقي والاستعداد للمجازفة بصورة معقولة. ونحن على قناعة ان الاسواق العراقية والليبية تبقى واعدة للغاية للروس.

- انك دبلوماسي تحظى بنفوذ وتاثير واسع في الشرق الأوسط. وهناك من يؤكد انك اقمت علاقات وثيقة مع ياسر عرفات ومع ملك الاردن حسين...

باسوفاليوك: المهم في الشرق الأوسط ان تحظى بالثقة. وغالبا ما يلعب العامل الشخصي دورا فاصلا. ان المفاوضين الشرق أوسطين مراوغون، فخلفهم تراكمت خبرة الفراعنة وهم تجار كبار على غرار الفينيقيين. ويجلس خلف الطاولة أناس يعرف بعضهم البعض الآخر على مدى عشرات السنوات. ويتطلب مني شخصيا عشرات السنوات من أجل ان اقيم علاقات شخصية.

بوسافاليوك بالعربية روسيا وأحداث العراق

(مقالات فيكتور بوسافاليوك نشرت
من عام 1993 إلى 1998 في صحيفة
الحياة اللندنية)

تطورت الأزمة العراقية بوتائر عاصفة إلى حد جعل العديد من مقوماتها وتقويماتها تُبلى بسرعة. ولا استبعد أن يكون الوضع قد تغير في صورة حادة حينما يقع القارئ على هذا المقال. ولذا أريد أن أبدأ بعرض ثوابت الموقف الروسي.

1- على العراق تنفيذ قرارات مجلس الأمن ذات العلاقة. وكان قرار بغداد وقف التعاون مع اللجنة الخاصة مفاجئاً سواء لكوفي أنان أو لأعضاء مجلس الأمن ومن ضمنهم روسيا. وعلى العراقيين أن يعيدوا النظر في القرارين الصادرين في 5 آب اغسطس و31 تشرين الأول اكتوبر.

2- أن تنفيذ العراق القرارات الدولية وتعاونه مع اللجنة الخاصة واللجنة الدولية للطاقة النووية، لا ينبغي أن يكون هدفاً بحد ذاته أو عملية لا نهاية لها. فالعراق وشعبه يجب أن يريا نوراً في آخر النفق، وحالما يتأكد تنفيذ العراق مطالب وقرارات مجلس الأمن يجب أن يتم الانتقال إلى نظام الرقابة

الدائمة. ومن جهة أخرى ينبغي أن يُفعّل البند 22 من القرار 687 المعني برفع الحظر النفطي. واستطراداً أقول إن الرقابة الدائمة هي رد على من يعرب عن مخاوف في شأن نيات بغداد اللاحقة. ولهذا فإن الحفاظ على نظام الرقابة الدائمة مسألة ذات أهمية قصوى.

ومنذ بداية الأزمة دعت روسيا، بإصرار، إلى أن يُشار بصورة صريحة لا تقبل اللبس، إلى البند 22 بهدف تعزيز ثقة العراق في وجود آفاق لجهوده في مجال تنفيذ قرارات مجلس الأمن. ولم يتسنَّ ذلك بفعل رفض عدد من أعضاء المجلس. ولكن موسكو على ثقة راسخة بوجود مزاج داخل المجلس لجهة دفع الأمور نحو تفعيل المراجعة الشاملة لسير تنفيذ بغداد التزاماتها في ملفات نزع السلاح، وأن يكون الهدف النهائي هو اغلاقها ورفع الحظر النفطي. ولكن، لتحقيق ذلك، كان ينبغي ان يلغي العراق قراريه المذكورين آنفاً. وهو قد فعل.

3- في إطار الجهود والخطوات المتعددة للأسرة الدولية الساعية إلى إخماد الأزمة العراقية، يحتل الموقع المركزي الأمين العام للأمم المتحدة، ليس فقط بحكم موقعه، بل أيضاً بفعل خبرته الثرية وكفاءاته الديبلوماسية الفذة، والهيبة العالية التي يتمتع بها كوفي أنان في العالم. والحالة الراهنة لا يمكن اعتبارها مماثلة لما حصل في شباط فبراير الماضي، إذ كما يقول المثل: « لا يمكن أن تخوض في ماء النهر مرتين »، ولذا لم تكن هناك جدوى من استنساخ كل ما جرى آنذاك. إلاّ أن دور الأمين العام للأمم المتحدة يبقى من الثوابت البالغة الأهمية عند وضع أي ترتيبات لتسوية الأزمة الراهنة.

4- روسيا حريصة على وحدة مجلس الأمن، وطوال الأيام الماضية تعاملت بهذه الروحية مع سائر اعضائه. وما دام هذا العمل يجري على الساحة السياسية، فإن موسكو ستظل مناصرة للبحث عن خطوات يتفق عليها داخل مجلس الأمن.

5- ان روسيا تعارض سيناريو القوة لتسوية الأزمة مع العراق، منطلقة قبل كل شيء من أن ذلك لن يكون تسوية، بل أن السيناريو العسكري سيرد، أولاً، لمسافة كبيرة إلى الوراء تنفيذ الهدف الذي من أجله شكلت اللجنة الخاصة. وانشيء وجهز مركز تقني فريد للرقابة الدائمة في بغداد، وأجريت مئات عمليات التفتيش في إطار وكالة الطاقة النووية جرى زهاء 1500 عملية. والهدف المذكور هو تصفية أسلحة الدمار الشامل العراقية والحيلولة دون تجديدها. أو بتعبير آخر، فإن استخدام القوة من شأنه ان يشطب كل ما انجز خلال سبع سنوات، ويبعد آفاق فرض رقابة على الأسلحة المذكورة.

وثانياً، فإن سيناريو القوة سيؤدي حتماً إلى تعقيد الوضع في المنطقة وتغيير المزاج العام هناك. وقد يكون ممكناً نقاش مدى التوتر الذي يمكن ان يبلغه الوضع، ولكن يستبعد أن يجادل أي خبير في أن الوضع سوف يتعقد. وفي هذا السياق يتنبأ الخبراء بأن السيناريو العسكري سيضع أوراقاً في يد الراديكاليين العرب الطامحين إلى إحباط عملية السلام، وفي المقام الأول اتفاقات (واي بلانتيشن). ومن المهم أيضاً أن مجلس الأمن لم يمنح أحداً صلاحيات انزال ضربات عسكرية. ولذا فإن تفعيل سيناريو القوة سيعني تقويض الهيبة الدولية للأمم المتحدة ومجلس الأمن.

6- ثمة مخاوف جدية من أن السيناريو العسكري، لو نفذ، سيهدد تنفيذ البرامج الإنسانية في إطار عملية (النفط مقابل الغذاء) التي تجري ببطء وضمن صعوبات كبيرة، الأمر الذي ينعكس على الوضع الإنساني في العراق وعلى مستوى حياة 22 مليون عراقي، وهو مستوى منخفض أصلاً. ويصعب التخلص، عموماً، من تساؤل ملح عن كيفية الجمع بين استخدام القوة ومواصلة البرامج الإنسانية، وقد أفادت المعلومات الأخيرة من نيويورك ان نقل الشحنات الإنسانية إلى العراق قد توقف بالفعل.

7- لا يمكن تجاهل واقع مفاده أنه يوجد في روسيا مزاج راسخ معارض لاستخدام القوة ضد العراق، خصوصاً إذا حصل ذلك من دون موافقة مجلس الأمن. وأنا لا أعني نواباً في البرلمان يطالبون، مثلاً، بانسحاب روسيا من نظام العقوبات من جانب واحد، بل أقصد طائفة أوسع من القوى السياسية والاجتماعية في بلادنا. والمسألة لا تنحصر في مصير العراق، فالكثيرون يفكرون فيما يمكن ان يؤدي إليه في خاتمة المطاف استخدام القوة بالالتفاف على الأمم المتحدة. والسيناريو العسكري سيثير رد فعل حاداً في روسيا.

8- لقد أجرت الديبلوماسية الروسية طوال الأسبوعين الأخيرين اتصالات واسعة في العالم تناولت الشأن العراقي. والانطباع العام يتلخص فيما يأتي: الجميع ينطلقون، عملياً، من أن العراق يتحمل بالدرجة الأولى مسؤولية التأزم الاخير، وعليه أن يلغي قراراته. ولكن الكثيرين يطرحون سؤالاً آخر: ألا تتحمل اللجنة الخاصة جزءاً من الذنب عما حصل؟ وألا يجدر بها أن ترفع من مستوى موضوعيتها في عمليات التفتيش؟ ويُلفت الانتباه إلى ما ظهر من وقائع عن تسليم بلدان أخرى معلومات عن القدرات العراقية.

9- في 12 تشرين الثاني نوفمبر وجه الرئيس بوريس يلتسن رسالة شخصية إلى نظيره العراقي صدام حسين أعرب فيها عن القلق العميق حيال تصعيد الأزمة من حول العراق. وأكد التزام روسيا الراسخ بالتسوية السياسية باعتبارها الفرصة الوحيدة للتحرك نحو نزع فتيل الوضع المتأزم. وفي هذا السياق أكدت الرسالة ضرورة استئناف بغداد التعاون الكامل مع اللجنة الخاصة ووكالة الطاقة النووية. وبعد ذلك، ووفقاً للتفاهم الموجود داخل مجلس الأمن، ستجرى مراجعة شاملة لتنفيذ العراق قرارات مجلس الأمن، ما يفتح الطريق نحو رفع الحظر النفطي بموجب البند 22 من القرار 687. هذا هو لب الموقف الروسي.

وثمة من يحاول الزعم بأن روسيا تعمل انطلاقاً من حرصها على مشاريعها النفطية في العراق مستقبلاً، ومن أجل استرداد ديونها من العراق. ولجعل هذه المزاعم مشابهة للحقيقة ترفق بأرقام لإسنادها.

بديهي، أنه يمكن الافتراض بأن الموقف المتوازن لموسكو التي تعارض سيناريو القوة، سيعطيها نقاطاً إضافية في نظر الشعب العراقي. ولكن حصر الموضوع بهذه الحسابات البراغماتية الصرف ليس منصفاً، بل أنه يشبه الحالة الآتية: عندما يشب حريق يخرج المرء من جيبه حاسبة ليحصي المكاسب والخسائر في حال المشاركة في اخماد الحريق.

إن روسيا جار قريب لمنطقة الشرق الأوسط، والتوتر الذي ينشب هناك لا بد أن يخرج عن إطار المنطقة ويمس المصالح الوطنية لروسيا. وبتعبير أبسط، فإن النزاع المسلح الذي يستخدم فيه الطيران والصواريخ وحاملات الطائرات في

منطقة تتاخم روسيا، لا يتجاوب اطلاقاً مع مصالحنا. وانطلاقاً من ذلك يغدو مفهوماً ذلك الازعاج الذي سيشعر به جيران العراق. ولذلك فإننا انظمننا بكل فاعلية إلى جهود البحث عن حل سياسي.

وأياً كان تطور الأحداث، فإن موسكو ستكون لاعباً نشطاً على ساحة التسوية السياسية للأزمة الناشبة. ونحن نرى كيف يكتسب التحضير للصيغة العسكرية منطقه الخاص، ولكن، في اعتقادنا، لا بديل من الحل السياسي.

النزاعات الاقليمية: مرض تعاني منه البشرية... على تخوم القرنين

من دون ان أشكو أو اتبرم أقول انني اشرف على صلات بلادنا مع 71 بلداً في الشرقين الأوسط والادنى وفي افريقيا. والمسألة ليست في العدد الكبير، بل في ان هذه المناطق الشاسعة شهدت نزاعات اقليمية ما برحت تتواصل، وليس عبثاً ان تسمى (طاعون القرن العشرين).

وقبل انهيار الاتحاد السوفيتي، وبالتالي تفكيك نظام القطبين كان الخطر الرئيسي يكمن في المجابهة بين الدولتين اللتين كانتا تتأرجحان بين (الحرب الباردة) وحالات التأزم الساخنة الكاريبي، برلين،... إلخ. اما الآن فان ظاهرة النزاعات الاقليمية نهضت كصاعق مخيف يهدد الوضع في العالم. واتضح ان الكثير من هذه النزاعات ليس وليد التنافس السوفيتي - الاميركي، أي أنه من دون الصراع بين الدولتين الاعظم على الهيمنة في العالم، كانت هناك آليات وتربة خصبة لنشوب النزاعات المحلية.

وتغير ملامح النزاع الافغاني أمر له دلالته في هذا السياق. فالاحتلال السوفيتي لم يعد قائماً من زمن. بل ان الاتحاد السوفيتي ذاته قد زال، في حين ان

النزاع لا يزال بعيداً عن الحل بل انه يكتسب ابعاداً خطرة من حيث الاستقطاب العرقي وتجارة المخدرات و(تربية) الارهاب الدولي.

وبما انني اتعامل يومياً مع ملفات النزاعات، فانني شئت أم أبيت يتعين عليّ التفكير في العوامل التي تحكمها والتي تقرب أو تباعد بينها.

والأمر الأول الذي يمكن استخلاصه هو ان احتمال نشوب النزاع يتعاظم بتزايد ثراء أو أهمية البلد المعني أو المنطقة، بل ان ضراوة النزاع وأمده لهما ارتباط طردي مع الثراء والأهمية. ومثالنا انغولا حيث الكثير من عناصر الصراع معجونة بالماس والنفط. وفي الكونغو كينشاسا الذي يعد بين اغنى الدول الافريقية من حيث ثروته، كان الصراع عاصفاً باستمرار وهو يتصاعد الآن بقوة مضاعفة. أو لنأخذ التاريخ المعاصر للعراق الغني، وسنجده تعاقباً لا ينتهي من حالات النزاع. وازمة الشرق الأوسط ليس من آخر مسبباتها كون المنطقة غنية بالثروات ولها موقع استراتيجي فريد. وبين هذه الملابسات والامتداد الزمني للازمة يمكن ان نلامس ترابطاً وان لم يكن له الدور الحاسم ربما.

وإذا تناولنا الموضوع من زاوية أخرى سنجد انه كلما كان البلد أو المنطقة اغنى ازداد الاهتمام الخارجي بالنزاع الدائر فيه. ومثالنا على ذلك رواندا الفقيرة، حيث يصعب ان نجد في العالم ما يوازي في ابعاده الكارثة الإنسانية في هذا البلد، لكن اهتمام المجتمع الدولي ولنقل ذلك بصراحة، لم يكن بمستوى الحدث، إذا لم نضع في الاعتبار اعمال الانقاذ المتفانية التي قام بها بعض من المنظمات الدولية. والخسائر البشرية في رواندا لا تقارن بالخسائر في النزاعات الجارية في اي منطقة

أخرى، خصوصاً مصرع المدنيين ومن ضمنهم الأطفال. ولكن أليست لدماء البشر قيمة واحدة في كل مكان؟

استناداً إلى هذه الحقائق المؤسسية لا يمكن إلاّ أن نستنتج ان هناك نزاعات (معتبرة) وأخرى لا تملك هذه الصفة. أو بتعبير آخر ثمة نزاعات يمكن الحصول على (منفعة) من تعامل الديبلوماسية معها، وأخرى لا تعود بالمكاسب السياسية المرجوة. فالجميع من دون استثناء يريدون الانخراط في عملية التسوية الشرق أوسطية، وانا لا ارى ذلك شيئاً معيباً بل ادعو إليه. وأزيد فأقول ان هذا الطموح يعكس الاهتمام المشروع للمجتمع الدولي بهذه المنطقة البالغة الأهمية. ولكن من جهة أخرى نجد قرب الشرق الأوسط الصومال المعذبة حيث جهود الاسرة الدولية اقل بكثير. وقد يعترض أحد بالقول انه لا يتسنى ايجاد مفتاح لحل النزاع الصومالي، هذا محتمل، لكن التسوية في الشرق الأوسط معضلة فائقة الصعوبة، في حين ان الاهتمام متباين تماماً في الحالتين.

غدت العقوبات من النماذج الأكثر شيوعاً في تعامل المجتمع الدولي مع النزاعات ومحاولات اخمادها. ولكن التجربة اظهرت ان نظام العقوبات (مخروم) أكثر من بعض الجبن، وهذا ينطبق عملياً على مختلف الحالات، فالعقوبات تتعرض للانتهاك والالتفاف في كل مكان؟ بل انها تغدو احياناً حقلاً خصباً يربح منه المهربون، كبيرهم وصغيرهم، ومصدراً للكسب الهائل غير المشروع، والغريب ان الجميع يعرفون ذلك. وكما يقول المثل الروسي: «الحرب مصيبة على البعض وام حنون للبعض الآخر». ولكن هناك أيضاً اختلافات في تطبيق العقوبات

وصرامة الاشراف على تنفيذها، وهذا نابع بالدرجة الأولى من ممارسة المعايير المزدوجة. ففي انغولا تطبّق العقوبات ضد المعارضة التي يقودها سافيمبي بشكل يسمح له عملياً على امتداد فترة طويلة بتجاهل قرارات مجلس الامن وارادة المجتمع الدولي.

وانا هنا لست في دور وكيل الدفاع عن طرف ما، فموسكو، شأن الدول الأخرى، تطالب بغداد بتنفيذ قرارات مجلس الامن ولكن الحديث يدور عن تنفيذ أكثر دقة لهذه القرارات، ومن دون تمييز مبرر داخلياً. وفيما يتعلق بالعقوبات اضيف إليها غالباً ما لا تعمل لكنها تنزل ضربات موجعة بالمواطنين البسطاء وتقوّض هيبة الامم المتحدة. وأعرج، بالمناسبة، على المنظمة الدولية. فأنا، بداهة، لا ادعو إلى واحدية في سلوكها عند معالجة النزاعات. فلكل حالة تكنولوجيا خاصة، لكن الواضح، وضوح الشمس في رابعة النهار، ان دور الامم المتحدة ومجلس الامن يجب ان يبقى مركزياً في مختلف الظروف. ومساهمة الامم المتحدة بالذات تضفي على الجهود الرامية إلى اخماد هذا النزاع أو ذاك هيبة كما في حال العراق وتوازناً، والاهم من ذلك شرعية، خصوصاً حينما يدور الحديث عن حل نهائي لقضايا مثل الحدود أو الوضع السياسي لكيانات الدول. وبخلاف ذلك، فإن كلاً من الوسطاء، وعددهم غير قليل عادة، يسحب الغطاء إلى ناحيته، هذا ناهيك عن ان كثرة الملاحين تغرق السفينة كما يقول المثل العربي. والأسوأ من ذلك عندما تعمل الدول المنخرطة في معالجة النزاع على غرار ما في الحكاية الروسية عن السمكة والبجعة والسرطان عندما حاولت دفع عربة، فأخذت السمكة تجرها إلى الاعماق والبجعة تحاول الانطلاق بها نحو السماء، والسرطان

يرتد إلى الخلف وحسبنا ان نتطلع إلى ما يجري في الكونغو حيث تؤيد مجموعة من الدول حكومة كابيلا وتقدم مجموعة أخرى دعماً سافراً عسكرياً للمعارضة. وبينت الاحصاءات ان هناك تسع دول و14 جيشاً متورطين في هذا الصراع، وكل ذلك يجري من دون موافقة مجلس الامن.

وعموماً فان محاولات فرض عقوبات وتطبيقها أو استخدام القوة ضد منتهكي الشرعية الدولية من دون موافقة مجلس الامن، هي بدورها اعمال غير شرعية وينبغي ان تستبعد، والا فان العالم سينغمر تدريجاً في لجّة الفوضى العسكرية والعمليات الخارجة عن السيطرة. وليس مسموحاً لطرف، لا لحلف الاطلسي، ولا للمنظمات الاقليمية في افريقيا مثلاً، ان يجعل من نفسه بديلاً من مجلس الامن ويعمل من دون علمه. القضية تتخذ وجهة أخرى إذ عملت هيئات اقليمية بتكليف من المجلس.

إن نماذج تسوية النزاعات تختلف من مكان وآخر، ولكن عنصر الامم المتحدة نافع دوماً. فعلى سبيل المثال تنطوي التسوية في انغولا على عنصر (الترويكا) الروسية - البرتغالية - الاميركية، وهي بمثابة الاطراف الراعية لعملية السلام، ولكن إلى جانبها يعمل مبعوث خاص عن الامين العام للامم المتحدة. وبتعبير آخر فان وساطة دول معينة ودور الامم المتحدة يمكن ان يتعايشا تماماً في المراحل الختامية للتسوية، وهذا موضوع للتفكير على نطاق واسع.

ويجدر لفت الانظار إلى تفاعل بعض النزاعات فيما بينها، وهذا واحد من النتائج الخطيرة للتسويف في حلها. فالارهابيون في الجزائر لهم صلات مع بؤر

متطرفة أخرى في العالم. وطالبان تقيم صلات مع الانفصاليين في الشيشان والراديكاليين المتطرفين في طاجيكستان، وثمة امثلة كثيرة أخرى.

إن لكل نزاع خصوصاً إذا كان مزمناً، بعداً بشرياً. إذ تتكون مجموعات تكون احياناً كثيرة العدد، لا يفهم اعضاؤها الحياة من دون حرب أو رشاش كلاشنيكوف. ومن الخطير للغاية ان بين كهنة الحرب الذين كرسوا كل حياتهم لها، الكثير من الشبان وبينهم من لا يعرف مهنة أخرى غير القتال. وهذا الهيكل الارتكازي البشري، ابتداء من القادة الذين يكتنزون ثروات من النزاعات وانتهاء بالمقاتلين البسطاء، يشكل عقبة في طريق التسوية.

وارغام حاملي السلاح على العمل في مصنع أو حقل هو عملياً ضرب من المستحيل. ولفترة طويلة ساد وهم خطير مفاده ان النزاعات الاقليمية هي صدامات محلية على مستوى بدائي تستخدم فيها اساليب الانصار وأسلحة تعود إلى القرن الماضي. اما في الواقع فان تغيراً جذرياً طرأ خلال 10 - 20 سنة الاخيرة على الجانب العسكري للنزاعات المذكورة. وحسبنا التذكير بالحرب العراقية - الإيرانية التي دامت ثمانية أعوام وأثرت سلباً في الوضع الدولي. وتستخدم في النزاعات المحلية الآن أسلحة حديثة من ضمنها الطائرات والصواريخ، وغدت مناطق النزاع من اكبر مستهلكي الأسلحة في العالم. ولكم يتخذ طابعاً مشؤوماً الخلاف الهندي - الباكستاني في ظل الوقائع الجديدة!

واخيراً الأمر الاهم، ان النزاعات الاقليمية تقوض وتسمم الوضع العام في العالم، وتؤدي إلى تأجيج الحزازات العرقية والطائفية وتجذر العداء بين البلدان

والشعوب المتجاورة. وهذه النزاعات تزرع الغاماً تحت الوضع القائم بالنسبة للاراضي والحدود وتطلق عمليات التجزئة: فالحرب في افغانستان تضع ورقة رابحة في يد من يطمح إلى تقسيم البلد عرقياً... والمثال الافغاني هو الاوضح لكنه ليس الوحيد أثار استغرابي أحد علمائنا المستشرقين حين قال لي ان تقسيم افغانستان قد يكون في مصلحة روسيا لأن الجزء الشمالي غير الخاضع لطالبان سيكون بمثابة عازل لأسرة الدول المستقلة يقيها من التطرف. إذن حتى مثل هذا الرأي موجود!

إن النزاعات المحلية تحد للبشرية وهي ارث ثقيل سننقله معنا، للاسف، إلى القرن المقبل. ويتنبأ الخبراء بأن هناك جيلاً جديداً من النزاعات سيظهر قريباً بسبب مشكلة المياه ومصادر الطاقة وطرق نقل المحروقات وقاع البحر،... إلخ. ومن المؤكد ان مواد متفجرة كثيرة ستبقى كامنة في العقد غير محلولة مثل شوفينية الامة الاساسية والتطلعات القومية للاعراق الصغيرة في اطار بلد واحد.

باختصار، الحياة في الألف المقبلة لن تكون اسهل مما هي عليه الآن. وكان الله في عوننا جميعاً.

مستشرق في كرسي رئيس الحكومة

بعد تعرفه إلى الشرق الأوسط قال نابليون عبارته المعروفة: « الأسماء العظيمة تصنع في الشرق ». وهذا القول يتبادر إلى الذهن عند معاينة مسيرة حياة رئيس الوزراء الروسي يفغيني بريماكوف.

فهو خبير درس شؤون الشرق عموماً والأوسط منه تحديداً، علماً بأن طلاب الدراسات الشرقية كانوا آنذاك يتلقون معلومات وافية ومعارف واسعة.

وعلى امتداد فترة طويلة ارتبطت الحياة السياسية لبريماكوف ارتباطاً وثيقاً بمنطقة الشرق الأوسط التي مرت بأزمنة عاصفة. فقد امضى سنوات في القاهرة وبيروت وجال في جميع الدول العربية وفي العديد من البلدان الافريقية كمندوب لصحيفة (برافدا)، وتعرف عملياً على جميع قادة النخب الحاكمة في الشرق الأوسط، ومن بينهم شخصيات فذة مثل الرئيس جمال عبد الناصر.

ومنذئذ كان بريماكوف ينفذ مهمات معقدة وحساسة بتكليف من القيادة السوفيتية، وكان من بينها تنقلاته بين بغداد وكردستان لمقابلة الملا مصطفى بارزاني وأبنائه والتي تكللت بتوقيع بيان آذار مارس 1970 المعروف.

استطراد: رافقت بريماكوف في إحدى زياراته إلى كردستان وانحفر في ذاكرتي ان الزعيم الكردي بارزاني طلب في صورة خاصة من القيادة السوفيتية الا تثق بأنور السادات وقال: « انا اجلس في الجبال ولا اقرأ الصحف كلها لكنني أعرف حق المعرفة انه سيخونكم من كل بد ». ولم يمض سوى اشهر حتى طالب الرئيس المصري بسحب جميع الخبراء العسكريين السوفيت. وهذا تأكيد على بعد نظر الزعيم الكردي الذي كان عموماً يترك انطباعاً قوياً لدى محدثه.

ومنذ ذلك الحين كان رئيس الوزراء الحالي يتميز بتفكيره غير النمطي وسعة افقه وسعيه إلى نبذ القوالب الجاهزة التي كانت في زمن الحكم الشيوعي مصيبة فعلية لمن يفكر عند مزاولة السياسة. وكنت انا حينذاك ديبلوماسياً شاباً في وزارة الخارجية، وأذكر انه كانت تصلنا مذكرات تحليلية جريئة يبعث بها مراسل (برافدا) في القاهرة إلى القيادة السوفيتية.

بديهي انه من غير الصحيح الاعتقاد بأن دفة الحكومة الآن في يد مستشرق فحسب. فبعد عمله كمراسل اخذ بريماكوف يوسع دائرته تدريجياً وابتدأ من منصب نائب مدير لمعهد العلاقات الدولية والاقتصاد العالمي ثم صار مديراً له، وبين المرحلتين اشرف على إدارة معهد الاستشراق. وحصل بريماكوف على دكتوراه علوم ثم انتخب عضواً في الاكاديمية وهو اعلى ما يمكن ان يصل إليه المرء في السلم العلمي.

وتجدر الاشارة إلى ان معهد العلاقات الدولية والاقتصاد العالمي الذي تتدفق عليه معلومات غزيرة عن العمليات السياسية والاقتصادية في العالم

تحول في عهد بريماكوف إلى واحد من المصادر القليلة للتحليل الصادق لتطور الأحداث العالمية. فقد كان هناك آنئذ تساؤل بسيط: ما هو السبب في ان النموذج الاقتصادي السوفيتي، الذي كانت موسكو تعتبره الأكثر عدلاً في العالم، يعرج على رجليه الاثنتين، ولماذا تخسر الاشتراكية، في المعنى الأعم، امام الرأسمالية عبر امثلة ملموسة في شرق المانيا وغربها، في شمال كوريا وجنوبها؟ وإذا كانت المشكلة القومية قد حلت في صورة نهائية، فلماذا تختمر وتعلن عن نفسها الهزات القومية والانفصالية في داخل المجتمع السوفيتي، ولماذا يهرب عدد كبير من المواطنين السوفيت إلى الجحيم الرأسمالي مفضلينه على النعيم الاشتراكي ولا يحصل العكس؟ ومن المعهد إياه صدرت تقويمات (غير مريحة) للمغامرة العسكرية السوفيتية في افغانستان.

ولا يخامرنّ الشك احداً في ان طرح مثل هذه التقويمات على القيادة في ذلك الظرف كان يعني السير على حد السيف ويتطلب مقداراً كبيراً من الجرأة.

وأنا انوه بذلك ليس لمجرد استعراض سيرة حياة بريماكوف، بل لأدلل على أنه كان صانع مقتربات جديدة وجريئة لا يجمعها جامع بالآراء الارثوذكسية للكرملين، وذلك في زمن النظام الشيوعي المتعصب الذي كان يقمع الأفكار الطرية. ومن الضروري الاشارة إلى ذلك إلى ان حكومة بريماكوف تعرضت فور تشكيلها لهجوم من اليمين شنته القوى التي لم تعد تسيطر على الدفة. هذا علماً بأن الهجوم جرى من دون التقيد بالقواعد وتعوزه الاخلاق السياسية.

وتمثلت إحدى نغمات الهجوم في ان للحكومة لوناً ورديا، وزعم انها تكاد تكون بالكامل من اليساريين الذين يمثلون الحزب الشيوعي.

وأوضح هنا، أولاً، ان بريماكوف لم يستوزر احداً بناء على الانتماء الحزبي، بل على اساس الكفاءة المهنية ومن المعروف ان دعوات وجهت إلى أشخاص ينتمون إلى كل الوان الطيف الحزبي - السياسي في روسيا، ولكن البعض خاف من المصاعب وقرر الا يلعب في فريق مهمته انقاذ البلد من الازمة.

وبتعبير آخر فإن وجود شيوعيين في الحكومة لا يعني انها اصبحت ائتلافية وان الحزب الشيوعي قادر على أن يؤثر في نهجها وقراراتها. وبالمناسبة فإن قادة هذا الحزب وصفوا وزارة بريماكوف بأنها بورجوازية.

ثم ان نقاد الحكومة من اليمين يتصرفون كأنهم نقلوا إلى روسيا في التسعينيات من كوكب آخر ولم يكونوا معنا، ولم تنتسب غالبيتهم إلى الحزب الشيوعي، ولم يدفعوا بدلات الاشتراك فيه. ولتوضيح الصورة نقول ان أحد قادة الليبراليين، يغور غايدار، كان أحد اكبر المشرفين على مجلة (كومونيست) الناطقة باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي. وهذا شاهد للعلم وللتذكار، وإن لم يكن ثمة ما يعيب في ذلك.

إن ظاهرة ما بعد الاتحاد السوفيتي تكمن في ان جزءاً من الشيوعيين السابقين ادرك دينامية العصر وتشبعه بروح التغيير، في حين ان جزءاً آخر

يتظاهر في الشوارع رافعاً صور ستالين وهو بالمناسبة، أمر ما كان مسموحاً به في عهد نيكيتيا خروشوف، وهو شيوعي.

وليس سراً ان قيادات الدول التي نشأت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي كانت من اقطاب الحزب الشيوعي، مثل رؤساء مولدوفا وكازاخستان وجورجيا وأذربيجان وأوزبكستان،... إلخ. وهذه ظاهرة شائعة وليست فردية، وهي تؤكد حقيقة مفادها ان عمليات تجديدية جرت داخل الحزب الشيوعي، وبدا يتكوّن خلالها أشخاص مستعدون لمواكبة الزمن.

وبدأت حكومة بريماكوف تتعرض إلى اللوم من يوم تشكيلها. والبعض ينسى، أو يتناسى، ان بريماكوف لم يوافق على قبول المنصب الا بعد الحاح من الرئيس بوريس يلتسن، وانه قبل تحمل المسؤولية في عزّ الازمة لذا فإن وزارته اشبه بفريق اطفاء. هذا ناهيك بأن انتقادات كثيرة ينبغي ان توجه عملياً إلى من قاد الحكومة سابقاً وتراكمت في عهده المشاكل والصعاب. وأنبه إلى ان بريماكوف لا يسمح لنفسه بتوجيه سهام النقد إلى اسلافه، لاعتباره ذلك أمراً لا أخلاقياً. وأذكر انه عندما تولى منصب وزير الخارجية حاول الصحافيون استفزازه ودفعه إلى ان يعلن رأيه بسلفه اندريه كوزيريف لكنه لم يفعل بدوافع مبدئية.

ومما له دلالته ان التهجم والنقد غير النزيه كان لهما مردود عكسي داخل البلد. فبموجب الاستطلاعات الاخيرة (اقتحم) بريماكوف قائمة ابرز الساسة في روسيا وغدت شعبيته موازية لشعبية غينادي زيوغانوف على الرغم من أن رئيس الوزراء، خلافاً لزعيم الحزب الشيوعي، لا يستند إلى تنظيم وجهاز

دعائي اضع هنا ملاحظة بالغة الأهمية وهي ان بريماكوف اكد مراراً ان الترشيح للرئاسة ليس وارداً في مخططاته ونياته. ويتعمق لدى سكان روسيا الاحساس بأن بريماكوف الذي لا يصنف ضمن اليسار أو اليمين، هو رجل دولة بالمعنى الاسمي للكلمة، وانه لا يحب الدعاية لنفسه وينبذ القوالب الايديولوجية في دفاعه عن مصالح الدولة التي تمر بمرحلة ليست باليسيرة.

والموضوع ليس في الاستطلاعات، إذ إن شخصية بريماكوف غدت عاملاً لتعزيز الاستقرار في البلد. ومن المهم ان رئيس الحكومة الجديد يعارض مطالب المعارضة اليسارية بحجب الثقة عن رئيس الدولة، ويكرر دائماً: لا تهزوا القارب.

وليس ثمة شك في ان الانتقادات الموجهة إلى الحكومة كان لها هدف آخر هو تشويه صورة الوزارة في نظر العالم الخارجي، ومن بينه المؤسسات المالية العالمية. وبين السطور يُقرأ التالي: نحن فقط، الليبراليين والمونيتاريين، نحتكر لأنفسنا ان نحصل على التفهم والموقف الطيب في التعامل مع صندوق النقد الدولي. ولكن السهم طاش هنا أيضاً. فالعالم يتابع بتعاطف متزايد جهود رئيس الحكومة الروسية للخروج من الازمة، وقد تعززت هيبة الدولة في الآونة الاخيرة.

وقوبل تعيين بريماكوف بتعاطف واهتمام في العالم العربي، وتلقى رئيس الوزراء من اصدقائه الكثيرين رسالات تهنئة، وأهم من ذلك تمنيات بالنجاح في اصعب مهمة يكلف بها في حياته. وجرى الاعراب عن الثقة بأن بريماكوف سيبذل في موقعه الجديد جهوداً لتعزيز الروابط بين روسيا والعرب. وأنا كمسؤول عن ملف الشرق الأوسط بوسعي التأكيد ان بريماكوف يتعامل بكل حماس واهتمام

مع اي خطوة تهدف إلى توطيد سمعة روسيا في الشرق الأوسط وتقربها من شعوب المنطقة.

وبريماكوف رجل مستعد لمد يد العون للجميع، دولاً أم افراداً. وعندما المّ بي مرض في الصيف الماضي فان بريماكوف على الرغم من مشاغله الكثيرة كان يجد متسعاً لعيادة المريض أو الاتصال به تلفونياً والبقاء على صلة مستمرة مع الاطباء.

إنه إنسان مذهل، ولكم كان نابليون على حق.

عفريت اطلق من القمقم

كان ذلك في عام 1979 البعيد عن يومنا. ففي نهار ديسمبري بارد اجتمع في الكرملين ليونيد بريجنيف ورئيس جهاز (كي. جي. بي) يوري اندروبوف ووزير الخارجية اندريه غروميكو ووزير الدفاع ديمتري أوستينوف، واتفقوا على أن الوقت قد حان لإدخال القوات السوفيتية إلى أفغانستان لتقديم (مساعدة أممية)، كما كان يقال آنذاك، وهي مساعدة لم يطلبها الشعب الأفغاني، بل أنه لم يكن على علم بها. وبديهي أن أحداً لم يستشر الشعب السوفيتي وجيشه الذي تعين عليه تنفيذ الأمر المشؤوم. والأنكى من ذلك ان (الرباعي) لم يجد حتى ما يدعو للتشاور مع سائر أعضاء المكتب السياسي. واعتقد ان العقل الباطن للأقطاب الأربعة كان منذئذ يحدس فداحة اللامشروعية في القرار.

من هنا بدأت المأساة الأفغانية المستمرة حتى اليوم، واستثيرت خلية النحل التي لم تهدأ بعد. وبدا للقادة السوفيت آنذاك أنهم سوف يستنهضون القوى التقدمية في أفغانستان ليخرجوها من سبات القرون الوسطى.

ولكن حصل العكس تماماً. فقد نهض الشعب كله لمواجهة الغزو الأجنبي وقادت القوى المحافظة الموجة الوطنية. وحصل الأفغانيون المكافحون ضد

المحتلين السوفيت على مساعدة مادية ودعم سياسي من دول عدة وفي مقدمها العالم الإسلامي، وهذا أمر مفهوم تماماً. ولكن بالتدريج أخذت تتصدر حركة المقاومة مجموعات وقوى راديكالية بدأت تعمل بنشاط وبدعم أجنبي لتنفيذ أهداف أبعد بكثير من طرد القوات العسكرية الأجنبية. والمقصود إعادة ترتيب جذرية لأفغانستان كلها. وحينذاك ولدت فكرة انشاء حركة (طالبان). وأؤكد مجدداً أن ذلك لم يحصل من دون مساعدة فاعلة من الخارج.

وإذا استبعدنا القشور اللفظية، فإن عملية إعادة الترتيب، في جوهرها، كانت تهدف إلى تحقيق نموذج متطرف للمجتمع الإسلامي متطرف تحديداً. يضاف إلى ذلك فرض هيمنة مجموعة قومية واحدة على أفغانستان المتعددة القوميات. وفي المرحلة الأولى بدا مغرياً لمؤسسي الحركة ان تكون لديهم في أفغانستان سلطة (طوع اليد) وأداة طيعة لتنفيذ نياتهم السياسية، وتعرض عشرات الآلاف، ثم مئات الآلاف من الأيتام الذين فقدوا جذورهم العائلية - العشائرية لعملية غسل دماغ ايديولوجية مكثفة، وجرى في الوقت ذاته تدريبهم عسكرياً. ونيطت بهؤلاء تحديداً مهمة السيطرة على جميع أراضي أفغانستان بعد انسحاب القوات السوفيتية، واستخدام القوة لاخضاع سائر الطوائف والقوميات والمجموعات العسكرية السياسية وأخيراً نيطت بهم مهمة إنشاء كيان اقتصادي واجتماعي وفق صيغة دينية بالشكل المشوه الذي اعتمده قادة الحركة وحماتهم. وبتعبير آخر، فإن ذلك كان نهج الحرب الأهلية التي تستمر على أرض أفغانستان المعذبة منذ تسع سنوات بعد انسحاب القوات السوفيتية في شباط فبراير عام 1989، لتصبح بذلك واحداً من أطول النزاعات الداخلية المسلحة.

وفي البداية خُيل لـ (آباء) الحركة ان كتلة الشبان التي كونوها ستبقى دائماً طيعة ويمكن ان (يصنع) منها كل ما يروق لمن يهتم بأفغانستان بفعل وضعها الاستراتيجي الوسيط. ولكن العفريت الذي اطلق من القمقم عدَل ظهره وتلفت حواليه وأخذ يتصرف على هواه وغالباً ما يتمرد على من رعاه في مهده.

وحقاً من كان في تلك الأزمنة العجاف ليفكر في أن الجزء (الطالبي) من أفغانستان سيغدو واحداً من مراكز الارهاب العالمية. ولنمضِ شوطاً أبعد لنقول إنه مع تزايد التفهم العالمي للخطر المحدق الذي يشكله الارهاب بوصفه طاعون القرن العشرين، تتحول أفغانستان بجهود قادة (طالبان) إلى بؤرة للارهاب وحتى إلى محمية يمكن للمجرمين من فرسان العبادة والخنجر أن يجدوا فيها ملاذاً ويستعدوا لعمليات جديدة. والمثال المعروف أكثر من غيره اسامة بن لادن، وهو ارهابي من العيار الدولي. ولكن هذا المثال غدا على كل لسان لأن ابن لادن بليونير يستخدم ثرواته لإنشاء هياكل ارتكازية ارهابية في منطقة واسعة من الشرقين الأوسط والأدنى. ولكم هناك في افغانستان من الارهابيين الأكثر خطراً ولكنهم أقل شهرة، الذين لا يعرف بهم أحد سوى زعماء الحركة ومسؤولي المعسكرات الخاصة الموجودة في أفغانستان.

في بداية عهدها نشأت (طالبان) بفضل تبرعات أجنبية، ولذا كانت مرتبطة بمن يرعاها في الخارج. أما الآن، وبعدما أصبحت أفغانستان مزرعة كبرى للمخدرات التي تنتشر في كل أنحاء العالم من باكستان إلى أميركا، فإن الارتباط المالي السابق لم يعد جوهرياً. وللمقارنة نقول إن كمية الأفيون الخام التي انتجت

في أفغانستان عام 1984 بلغت 41 طناً، وبلغ الرقم 2300 طن عام 1996. وهذه وقائع مهمة لفهم الوضع الراهن من حول حركة (طالبان).

ويشهد المراقبون الدوليون بأن الطلاب يعملون عن قصد وبشكل منتظم لتثبيت ممارسات التعنت الاثني وقمع القوميات والطوائف الأخرى في الأراضي الواقعة تحت سيطرتهم، وينظمون هناك مذابح جماعية. والاجحاف في حق النساء اتخذ أبعاداً غير مألوفة بالنسبة لأواخر القرن العشرين، كذلك الحال بالنسبة للظلامية في المجال الاجتماعي وخصوصاً التعليم. ويتكون انطباع بأن العالم كله يتحرك إلى أمام وأفغانستان تنغمر في لجة التعصب والغلو وإراقة الدماء والعداء الاثني.

وأقول صراحة إن هناك من يعلل نفسه بأوهام مفادها ان (طالبان) لا تشكل خطراً إلا على جيرانها في آسيا الوسطى شمالاً وفي إيران غرباً، ومن هنا فإن المتوهمين يرون أن الشر سيبقى بعيداً عنهم. وبالمناسبة لا يجوز أن نستبعد ان بعض هؤلاء كان يروق له مثل هذا التوجه لـ (طالبان). ولكن في واقع الأمر، فإن أفغانستان التي تسودها الحرب وانتهاك القوانين والتطرف هي مرجل كبير لعدم الاستقرار في إطارات جغرافية أوسع بكثير مما يتصور البعض.

ولكي أكون نزيهاً مع القارئ، ولا أبدو كمن يحاول ان يخيف الآخرين، سوف أبدأ بروسيا. نعم نحن نرى أن الممارسة الحالية لـ (طالبان) ونظريتها تشكلان خطراً على مصالح روسيا بفعل متاخمة أفغانستان للحدود الجنوبية لرابطة الدول المستقلة التي لا توجد بين روسيا وسائر اعضائها سوى حدود شفافة.

وفي الآونة الأخيرة يحاول قادة (طالبان) اقناع الآخرين بأنهم لا يخططون لتوسع في الخارج. وغالبية الناس لا تثق بهذه الوعود. وحقاً الأفضل أن يُسأل ابن لادن فهو سيوضح ما إذا كان ينوي الاقتصار على حدود أفغانستان. وثمة مثال آخر وهو المحاولات التي تقوم بها (طالبان) لإقامة روابط مع المعارضة الطاجيكية والعناصر المتطرفة في سائر بلدان آسيا الوسطى. وثمة معلومات عن ان ممثلي (طالبان) زاروا جمهورية الشيشان.

هذا، ناهيك بأن (الأفغان) موجودون في العديد من البلدان العربية، وهؤلاء تدربوا في أفغانستان ولهم خبرة قتالية. وهل ثمة شكوك لدى أحد في شأن النيات الفعلية للمتطرفين؟ أما محاولاتهم للتستر وراء شعارات دينية، فهي زائفة، إذ إن الإسلام دين عظيم، دين الخير والتسامح، ولا صلة لهم به البتة. وهذا لا يعني أبداً اننا لن نعترف بـ (طالبان). كلا، فنحن واقعيون ونتعامل مع هذه الحركة بوصفها قوة عسكرية - سياسية جدية على الساحة الأفغانية ومستعدون للتحاور معها. ولكن هذا لا يعني اننا مستعدون لتجاهل كل ما تفعله الحركة وما لا تريد التخلي عنه حتى تحت الضغوط القوية حالياً من جانب المجتمع الدولي. والأنكى من ذلك أن الطلاب قاموا أخيراً، وعلى خلفية التطهير العرقي المستمر، بارتكاب جرائم ضد موظفي الأمم المتحدة وديبلوماسيين أجانب. وواضح ان العفريت الذي أفلت من القمقم يأمل في أن يظل بمنجى من العقاب. ويأمل الطلاب بأن تعطي نجاحاتهم العسكرية مردوداً سياسياً وفي المقام الأول على الصعيد الدولي. ولكن النجاحات التي أحرزت وأكرر مرة أخرى بمساعدة أجنبية مكثفة لن تجعل الأسرة

الدولية تتغاضى عن الواقع الفعلي السائد في مناطق سيطرة (طالبان). ثم ان هذه النجاحات تتخللها اخفاقات في محافظات قندزوتاهاروغيرهما.

إن تحقيق السلام عبر الحرب أمر مستحيل وهذا ما ينبغي ان يفهمه قادة (طالبان). ولذا يجب وقف العمليات العسكرية واقتتال الاخوة، وإنهاء الحرب الأهلية وايجاد لغة مشتركة للتفاهم مع سائر القوميات والطوائف لتشكيل حكومة واسعة التمثيل.

ومن النافع ان يستخلص درساً من ذلك كله من يلعب بالعفاريت. وهي لعبة خطرة.

بدل الخاتمة

فراغ لن يمتلئ

يفجيني بريماكوف

وزير الخارجية الروسية (1969 - 1998) رئيس الحكومة الروسية (1998 - 1999)، رئيس غرفة التجارة والصناعة الروسية، اكاديمي اكاديمية العلوم في رسيا الاتحادية.

ليس ثمة عدد كبير من الناس في الدنيا، الذي تترك وفاتهم فراغاً لا يمتلئ في العمل في قلوب الزملاء، بله عن الاقارب والأصدقاء. ومن دون شك ان فيكتور فيكتوروفيتش بوسافاليوك كان أحدهم.

نحن غالبا ما نتحدث، بحكم التقاليد، بكلام طيب عن الذين يغادرون الحياة. وهذا جيد. وما يتعلق بفيكتور فليس هناك، ولا يمكن ان تكون، اية مبالغات. لقد كان إنسانا فذا. جمع في داخله مهنية الدبلوماسي العميق وغالبا الصلب والشاعر الموهوب ذي الانفتاح الروحي والموسيقار، والتواضع الذي قدره

من لا يعرفه جيدا، كأنه خجل، وتميز بمثابرة مقاتل حديدية، حينما كان عليه الدفاع عن مصالح البلاد. وظهرت في الاشهر الاخيرة من حياته أيضاً الشجاعة الواعية والحزم وجمع في قبضته بمهارة قوته باسرها، ولم ينتظر حكم القدر بصورة سلبية. لقد عرفَ فيكتور بالمرض الفظيع، وحتى باحتمال كونه غير قابل للعلاج، ولكن لم ييأس ولو للحظة واحدة. وظهر هذا ليس فقط في خلال مروره بدورة علاج مؤلم وصفه له الاطباء الذين سعوا لتمديد حياته. وطلب بان يأتوا له في المستشفى بوثائق الخدمة، وحتى آخر حياته عمل وعمل.

التقيت بفيكتور في اليمن عام 1966 وكان شابا، لاح من مظهره انه ما زال فتيا. وبصفتي مراسل صحيفة (برافدا) حضرت مؤتمر حضرموت للسلام حيث التقى رؤساء القبائل بعد ثلاث سنوات من الحرب الاهلية - جزء منهم دعم (الجمهوريين) والآخرين الملكية. وجرى المؤتمر بالصحراء بالقرب من حدود المملكة العربية السعودية. وأدت العزلة التامة إلى انعدام المعلومات عنها. وبعد ثمانية أيام تمكنا من اقناع المصريين والسعوديين، الذي راقبوا سير المباحثات، ان يسمحوا لي مع مراسل راديو موسكو ان نقلع إلى تعز. ووصل فيكتور فيكتوروفيتش إلى هناك قادما من العاصمة اليمنية صنعاء.

ودهشت بالحاح بوسافالوك الخفيف، الذي سأل به عن التفاصيل وكذلك بدقة الاسئلة التي طرحها. بالطبع لم يكن حينها قنصلاً مبتدئاً بسيطاً، وانما كان دبلوماسيا يتقدم نحو النضج. وقال فيكتور بانه سينقل كل ما سمعه إلى السفير السوفيتي. وأتذكر اني سألته ان كان يود الانتقال إلى الصحافة؟ ورد

وابتسامة خفيفة تطفو على شفتيه، انه اختار طريقا أخرا. فمن كان يفكر ان فكتور باسوفالوك سيصبح بعد 50 عاما نائبا لوزير الخارجية، وانا ساكون وزيرا. ولو عرفت ذلك لما كنت بالطبع قد اقنعته بتغير المهنة.

ولم اكن وحدي بذلك. ففي عام 1968 رافق فيكتور فيكتورفيتش كمترجم، وزير دفاع الاتحاد السوفيتي اندريه جريتشكو، خلال زيارته لمصر. ولم يكن (حب الظهور) غريباً على المارشال، فأخذنا معه انا ومدير مكتب وكالة انباء تاس في القاهرة الكسي كيسلوف - إلى موقع في منطقة قناة السويس. وكان هناك تبادل اطلاق كثيف - جرى ما يسمى بحرب الاستنزاف. وكان الوضع بالنسبة لباسافليوك ابدا غير سهل. وترجم من دون عيب. وعموما، علي ان أقول، اني لم التق طيلة حياتي مترجما متالقا من العربية مثله. لقد تمتع بموهبة خاصة كأنه اختفى خلال المحادثة التي يترجمها - وهيأ للمتحدثين التصور بانهما يتحدثان في لغة واحدة. وبهذا بالتحديد يظهر المستوى الرفيع للمترجم. وكنا نحن في اقرب مقر للجيش المصري الثاني. وكان رئيس المقر يقدم الشروح. ولم يكن جريتشنكو مجاملا خلال مثل هذه اللقاءات: « وقال وهو يتوجه إلى فيكتور: ترجم له بانه ضيق الافق ولا يستحق المكان الذي يشغله ». وغطت وجه فيكتور بقع حمراء. (أقول لك ترجم).

وترجم محاولا تخفيف حدة الكلام. وفي المساء خلال وقت العشاء، توجه جريشكو نحوه وساله: (فيكتور ما هي رتبتك؟).

- ملازم اقدم احتياط.
- انتقل للعمل معي سامنحك رتبة رائد.

وقال بوسافلوك بصوت خافت ومفهوم جدا

- ايها الرفيق وزير الدفاع ارجو ان تفهمني صحيح من فضلك: أنا اريد العمل في وزارة الخارجية.

تقاربت في هذا الوقت أكثر مع فيكتور فيكتوروفيتش. وكنت معه في شمال العراق عند مصطفى البرزاني. لقد كانت الرحلة غير سهلة. ولم تكن المهمة التي كلفونا بها سهلة: تقريب البرزاني من صدام الذي كان عضوا في نواة القيادة العراقية، بهدف مصالحة الاكراد مع بغداد. - عشنا في شمال العراق بكوخ. وتحدثنا مع فيكتورعن كل شيء. وحينها شعرت كيف تعلق بعائلته برقة. لقد ادهشتني معارفه الموسوعية، وبخاصة فيما يتعلق بالشرق الأوسط.

ومن ثَمَّ في بغداد حيث كان باسوفاليوك سفيرا للاتحاد السوفيتي. وأتذكر على وجه الخصوص اللقاءات خلال الازمة في 1991 خلال الحرب التي أطلق عليها (عاصفة الصحراء). في فناء السفارة السوفيتية ببغداد أنبوب من الاسمنت والمعدن. كان هذا ملجأً للدبلوماسيين خلال القصف. وبالطبع لا يمكنه انقاذ اللاجئين من اصابة مباشرة من الصواريخ أو القنابل. ولكنه حمى من شظايا صواريخ الدفاعات الجوية. وكانت القيثارة محبوبة السفير في الأنبوب. وكان في مقر السفير بيانو. وكان من المهم ان لا يزاول موظفو السفارة من الدبلوماسيين والفنيين العمل بلا كلل ولا ملل، ولكن أيضاً ان يجتمعوا سوية ويسمعوا الاغاني العذبة التي كتبها السفير وافتخر بها الجميع.

وعلى حد ذاكرتي ان فيكتور فيكتوروفيتش هو السفير الوحيد الذي تم تقليده وسام (الراية الحمراء) على الشجاعة التي ابداها عند قيامه بواجبه. لقد افتخرهو بذلك ولكنه لم يختال. لقد كان من طبعه أيضاً ان يغفر لمن لم يكن دائما على مستوى عالي.

لقد احب فيكتور فيكتروفيش الناس، وظهر هذا خلال العمل وفي اثناء الراحة. وعموما لقد كان العمل والراحة في حياته مترابطين عضويا إلى حد ان من الصعب التفريق بينهما. وأتذكر الفرح الذي شاع في وجهه حينما وصل نائب رئيس الوزراء العراقي لسفارتنا ببغداد في الساعة الثانية ليلا، لكي يبلغنا بقرار السفر لموسكو للاعلان عن الاستعداد لخروج القوات العراقية المسلحة من الكويت. وأمر السفير باحضار كل الاحتياط من المأكولات والمشروبات ووضعها على المائدة للاحتفال. وجلسنا طيلة الليل حول هذه المائدة.

وكان فيكتور فيكتورفيتش معي أثناء المباحثات مع صدام حسين. واردنا تلافي ولو العملية البرية، ولكن القيادة العراقية تأخرت طيلة الوقت في قراراتها. وحتى إن طارق عزيز تأخر عن زيارة موسكو ووصل بقرارات نصفية لم تقف عائقا امام انزال قوات التحالف التي كان تترأسها الولايات المتحدة في الكويت.

ولعب باسوفاليوك، الذي موفودا لبغداد بصفته ممثلا للرئيس الروسي، دورا كبيرا، ان لم نقل حاسما، في 1998 في درء ضربة أمريكية جديدة بالعراق. واعتمد سكرتير عام منظمة الامم المتحدة بالكامل (وقال لي بنفسه عن ذلك) في نجاح مهمته على مساعدة ونصائح باسوفاليوك الحكيمة.

وكم كان عدد الأيام الصعبة. وفي الوقت نفسه المشرقة والسعيدة، التي امضيتها معه خلال الجولات في بلدان الشرق الأوسط محاولين المساعدة على تحريك عملية التسوية السلمية. لقد كان مسار الشرق الأوسط الذي تراسه فيكتور فيكتوروفيتش، أحد الاتجاهات المأمونة في وزارة الخارجية. ومن دون شك كانت هذه من مآثره.

وأتذكر بحزن، هو بكل معنى الكلمة يمض في القلب، كيف اننا اجتمعنا بكامل هيئة وزارة الخارجية مع زوجاتنا للقاء المكرس للعام الجديد 1999. وكنت مدعوا أيضاً. حيث نهض فيكتور فيكتورفيتش، الشاحب والنحيل، بصورة مفاجئة وجلس وراء البيانو وادى آخر اغانيه بكلماتها المتفائلة. وترقرت دموع الكثيرين.

المحتويات

مقدمة خاصة بالطبعة العربية 5
كلمة لا بد منها 8
بطاقة شخصية 12
سماء بغداد القرمزية 17
كلمة المحرِّر 19
كلمة: سفتلانا نيكولايفنا بوسوفاليوك 21
استهلال 23
هكذا كانت البداية 24
مشاكل السفير الصغيرة والكبيرة 33
نحن والعراقيون: اختبار المشاعر 53
العراقيون والسلك الدبلوماسي في أيام الحرب 61
عن اتصالاتنا بالعراقيين 74
تأملات حزينة عن العراق ودكتاتوره وعن العلاقات السوفيتية - العراقية ... 88
حول الدروس الرئيسية (من الإقامة في بغداد) 128
بصدد ازمة شباط - فبراير حول العراق 146
بغداد بعد الحرب والوضع في وزارة الخارجية الروسية 156

التسعينيات. وزارة الخارجية 159
الازمة العراقية 1998 164
هجوم فيكتور باسوفاليوك 166
محطات باسافاليوك في الشرق الأوسط 170
اليمن 173
بغداد - العراق 180
بغداد. (حرب الخليج الأولى) أو (عاصفة في الصحراء) 193
دمشق، سوريا 202
سلطنة عمان 211
عودة روسيا للشرق الأوسط السلام والأمن في الشرق أهداف هل أمكن تحقيقها؟ 221
خيار السلام 234
مصالح روسيا في العالم العربي 238
ماذا يريد الروس من العرب؟ 244
لمصلحة من، ولماذا تطلب خصام روسيا مع الاسلام؟ 252
على رجال الاعمال تمهيد الطريق نحو الشرق 259
بوسافاليوك بالعربية روسيا وأحداث العراق 268
النزاعات الاقليمية: مرض تعاني منه البشرية... على تخوم القرنين 274
مستشرق في كرسي رئيس الحكومة 281
عفريت اطلق من القمقم 288
بدل الخاتمة 294
فراغ لن يمتلئ 294

مكتبة

ميزوبوتاميا

@Mesopotamia1972

- لقد كُتبت الكثير من المؤلفات الجيدة والمثيرة للاهتمام حول الأحداث التي شهدها العراق في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات من القرن العشرين. وتثار حتى الآن حولها مناقشات ساخنة وجدالات حادة. ومع ذلك، إن الكتاب الذي بيد القارئ العربي، لافت للنظر في كثير من النواحي، ويكتسب أهمية خاصة.

أولا وقبل كل شيء، إن عنوان الكتاب هو «سماء بغداد القرمزية»، وهو بطبيعة الحال يعطي تحليلا مفصلا لعمليات معقدة للغاية، قام بها مؤلف الكتاب فيكتور باسوفاليوك الذي تميز بمهنية عالية، و في الوقت نفسه إن الكتاب ليس دراسة أكاديمية وإنما تصور شخصي عميق لرجل لم يفهم وحسب بوضوح ودقة تلك الأحداث، ولكنه بالدرجة الأولى عايشها بعقله وقلبه وروحه.

«بوغدانوف» ممثل الرئيس للشرق الأوسط - نائب وزير الخارجية الروسية

- ومن ثم في بغداد حيث كان باسوفاليوك سفيرا للاتحاد السوفياتي. وأتذكر على وجه الخصوص اللقاءات خلال الأزمة في 1991 خلال الحرب التي أُطلق عليها «عاصفة الصحراء». في فناء السفارة السوفيتية ببغداد أنبوب من الاسمنت والمعدن. كان هذا ملجأ للدبلوماسيين خلال القصف. وبالطبع لايمكنه إنقاذ اللاجئين من إصابة مباشرة من الصواريخ أو القنابل.

ولكنه حمى من شظايا صواريخ الدفاعات الجوية. وكانت القيثارة محبوبة السفير في الانبوب. وكان في مقر السفير بيانو. وكان من المهم ان لايزاول موظفو السفارة من الدبلوماسيين والفنيين العمل بلا كلل ولا ملل، ولكن أيضا أن يجتمعوا سوية ويسمعوا الأغاني العذبة التي كتبها السفير وافتخر بها الجميع. وكان فيكتور فيكتورفيتش معي أثناء المباحثات مع صدام حسين. وأردنا تلافي ولو العملية البرية، ولكن القيادة العراقية تأخرت طيلة الوقت في قراراتها. وحتى أن طارق عزيز تأخر عن زيارة موسكو ووصل بقرارات نصفية لم تقف عائقا أمام إنزال قوات التحالف التي تترأسها الولايات المتحدة في الكويت.

«يفغيني بريماكوف» - مستعرب ورجل دول روسي

MA'NA
معنى للنشر والترجمة
TRANSLATION & PUBLISHING

دار الكتب العلمية
للطباعة والنشر والتوزيع
العراق | بغداد | شارع المتنبي
هاتف ٠٧٨١٩١٤١٢١٩ | ٠٧٧٠٢٩٣١٥٤٣
e.mail:darktbalmya@yahoo.com